الإمارات
THE EMIRATES

مَراود

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

العدد 64 – مارس 2024، السنة الثامنة

العدد 64 – مارس 2024، السنة الثامنة

ملف العدد:

تجليات رمضان في الموروث الشعبي العربي

اجتماع تحضيري لإطلاق جائزة الشارقة الدولية للتراث

تكريم «الشارقة للتراث» لمشاركته في «أضواء الشارقة»

سلطان بن أحمد القاسمي يشهد حفل افتتاح «أيام الشارقة التراثية»

MARAWED The 64nd Issue, March 2024, the 8th Year

صدر حديثاً

إدارة المحتوى والنشر
Content and Publishing Department
unesco
Centre
Under the auspices
of UNESCO
معهد الشارقة للتراث
SHARJAH INSTITUTE
FOR HERITAGE

مُرَاوِد

سياسة النشر

تعنى مجلة «مراود» بالتراث الثقافي الإماراتي بالدرجة الأولى، ثم العربي والعالمي، وتسعى من خلال أبوابها إلى الاضطلاع بتلك الغاية، والتركيز على موضوعات تراثية تتّسم بالجدة والموضوعية والتنوّع والشمول، ومقاربة التراث، بحثاً وتوثيقاً ودراسةً وتدقيقاً، كما تعمل المجلة على تتبّع تجليات التراث الثقافي في الأعمال الإبداعية الإماراتية والعربية من خلال الاحتفاء والتوظيف والاستحضار لمختلف عناصره ورموزه.

وتركّز المجلة على الموضوعات الثقافية والتراثية والإعلامية التي تلامس مختلف جوانب التراث الثقافي من مهن وحرف وألعاب وحكايات وأزياء وزينة وحلي وفنون وموسيقى.. وكل ما يتّصل بفروع التراث الثقافي وعناصره، محلياً وعربياً وعالمياً.

يشترط في المواد المقدّمة للنشر:

- الجِدّة والأصالة، وألا يكون سبق نشرها أو مقدّمة للنشر لدى مجلات أخرى.
- الموضوعية في الطرح والمصداقية في التناول.
- سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب.
- التوثيق العلمي وعزوُ كل قول إلى قائله.
- ألا تتضمن المواد ما ينافي المبادئ الأخلاقية والمقدسات الدينية أو يخدش الحياء، أو ينافي الذوق العام.
- ترفق مع المواد صور عالية الدقة والجودة.
- يراعى في ترتيب المواد المقدّمة للنشر الجانب الفني والموضوعي وفق رؤية هيئة تحرير المجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف في صياغة المواد، متى كان ذلك ضرورياً، لتتماشى مع سياسة النشر، ومع الطرح الإعلامي المناسب للقارئ.
- إدارة التحرير غير ملزمة بشرح أسباب رفض نشر المواد ولا إرجاعها.
- المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، وإنما عن رأي كتّابها.
- تستقبل المواد والمشاركات على بريد المجلة الإلكتروني: **marawed@sih.gov.ae**

للتواصل مع إدارة التحرير:

0097165014898

marawed@sih.gov.ae

تجليات رمضان في الموروث الشعبي

د. عبدالعزيز المسلّم

رئيس معهد الشارقة للتراث

رئيس التحرير

الصيام مظهر من المظاهر التي عرفتها البشرية منذ القدم، وإن اختلفت في تمثله، بحسب الداعي والسبب والغرض والكيفية، وارتبط بكثير من الطقوس والعادات التي كانت تعبّر عن استيعاب الأمم الغابرة والشعوب الماضية لمفهوم الصيام، وإدراكها كنهه وتشكيله في ثقافتها ووعيها الجمعي والفردي، وسلوكها الروحي. وقد عرفت الحضارات القديمة والثقافات العريقة والديانات السابقة مظاهر مختلفة وممارسات متنوّعة للصيام، كانت تتشابه حيناً، وتتباين أحياناً أخرى، فعرف عند الهيلينيين، والكولومبيين، والهنود الحمر، واليابانيين، والهندوسيين والبوذيين، والمصريين القدماء، وأقرّته الأديان السماوية بصنوف مختلفة وأنماط متماثلة.

وحسب اختلاف الغاية والهدف من الصيام، اختلفت كيفيته، وتباينت طرائقه في ثقافات الشعوب والأمم الماضية، حيث كان بعضها ينزع إلى ممارسات معينة، كالصوم عن الكلام، وآخر عن الطعام ساعات في اليوم، أو في أيام معلومة في أشهر معلومة، وقد اختلف الصيام في الإسلام جوهرياً عن الثقافات الأخرى، حيث مزج بين معنييه الظاهري والباطني، واللغوي والشرعي، لما في ذلك من تربية للنفس وترويض لها على ما يخالف هواها، كما يحمل الصيام مقاصد سامية، وقيماً راقية، تحثّ على التأمل والتفكر والتدبر، وليس مجرد الإمساك عن المفطرات ومفسدات الصيام فحسب.

ويأتي شهر رمضان كل عام ليبعث في النفوس الحنين إلى تلك الأجواء الروحانية، ومظاهرها الإيمانية التي تذكي تلك القيم العليا في النفوس، وتحدوها إلى الارتقاء في مدارك الصفاء والكمال، في الخلوات والجلوات، كما يحيي رمضان في الذاكرة ذكريات ماضية في أزمنة خالية، تكشف صورة احتفاء مجتمعاتنا بحلول الشهر الفضيل، وما يواكب ذلك من مظاهر ثقافية واجتماعية وترفيهية يتم استحضارها كل عام.

في هذا العدد ترصد «مراود» صوراً مختلفة من تقاليد رمضان في الموروث الشعبي الإماراتي والعربي، التي تعكس كيفية الاحتفاء بالشهر الكريم، ومظاهر الاحتفال، وما يصاحبها ويواكبها من طقوس وعادات وتقاليد عريقة، درج عليها الإماراتيون منذ آمادٍ بعيدة، وهي تختلف باختلاف المكان والزمان.

وفي العدد تطواف في عوالم التراث الثقافي العربي، استحضاراً لعناصره، وتوظيفاً لرموزه، واحتفاءً بمكوناته، لما لها من أهمية كبيرة في توثيق الذاكرة الشعبية والعربية والإماراتية.

المحتويات

العدد 64 – مارس 2024

مراود

الغلاف

10
ملف العدد
تجليات رمضان في الموروث الشعبي العربي

8
برامج وفعاليات
سلطان بن أحمد القاسمي يشهد حفل افتتاح النسخة الـ «21» من «أيام الشارقة التراثية»

84
فنون شعبية
فن العدساني

86
دراسة
«فتاة العرب».. القمر حين اكتمل

خواطر
78
الطرفة في المجتمع الكويتي القديم

98
زاوية
الشارقة.. نموذج لجهود الشيخ الدكتور سلطان القاسمي لإحياء ذاكرة الماضي

قراءة أدبية
92
«فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان..» كتاب عن تراث الطبخ في الأندلس

إضاءة
110
الهيمنة الذكورية ودونية النساء قراءة سوسيو - ثقافية لدينامية العلاقة بين الجنسين

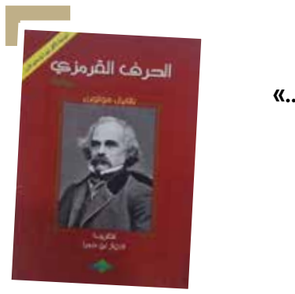

مقاربات
103
قراءة في رواية «الحرف القرمزي»

ضوء
114
من تراث «ماسبيرو زمان».. ومباهج هذا الزمان!

كتابة ونقوش
106
صورة أهل الصين في الثقافة العربية الإسلامية

الموروث الشعبي
118
الفخار والنحاس.. فنون تمتع النظر في «اليونسكو»

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

رئيس التحرير
د. عبد العزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

مستشار التحرير
د. ماجد بوشليبي
كاتب وخبير ثقافي

مدير التحرير
د. منّى بونعامة
مدير إدارة المحتوى والنشر

هيئة التحرير
أ. علي العبدان
أ. عتيج القبيسي
أ. عائشة الشامسي
أ. سارة إبراهيم

سكرتير التحرير
أحمد الشناوي

التصميم والإخراج الفني
منير حمود

التدقيق اللغوي
بسام الفحل

التصوير
قسم الإعلام

132
أعلام التراث
حمد بن خليفة بوشهاب (شاعر الإمارات الموسوعي)

الآراء الواردة في المقالات، والتحقيقات، والمقابلات، تُعبر عن رأي أصحابها ومواقفهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي وتوجه المجلة، ويتحمل أصحابها المسؤولية الأدبية أمام الرأي العام، والقانونية أمام الجهات المختصة.

800TURATH
+971 6 5092666
marawed_sih
www.sih.gov.ae

ISBN 978-9948-37-768-9

حوار العدد
مؤيد الشيباني: التوثيق فن قائم بذاته يشمل المثل الشعبي والقصيدة والرؤية والحدث والتواريخ

122

رؤى
القنص والحداق والغوص والتجفير .. مفردات تراثية ورد ذكرها في القرآن الكريم
128

الموروث الشعبي
الأبوذية.. شعر شعبي يرتبط بتقاليد وتراث الشعر العربي والعشق والشجن
126

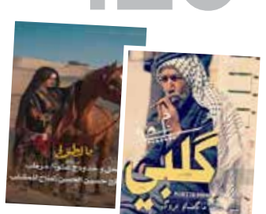

أفق
القهوة العربية.. رمز الكرم والأصالة
138

واحة القراءة
إصدارات معهد الشارقة لتراث.. ما بين التراث المحلي والعالمي
134

نافذة
144
رقصة الأسد.. رمز حيّ للثقافة الصينية

قصص من التراث
142
نبوءة البلبل

التراث الشعبي العربي
الفلسفةالجحوية في التراث الإنساني
140

سلطان بن أحمد القاسمي يشهد

حفل افتتاح النسخة الـ«21» من «أيام الشارقة التراثية»

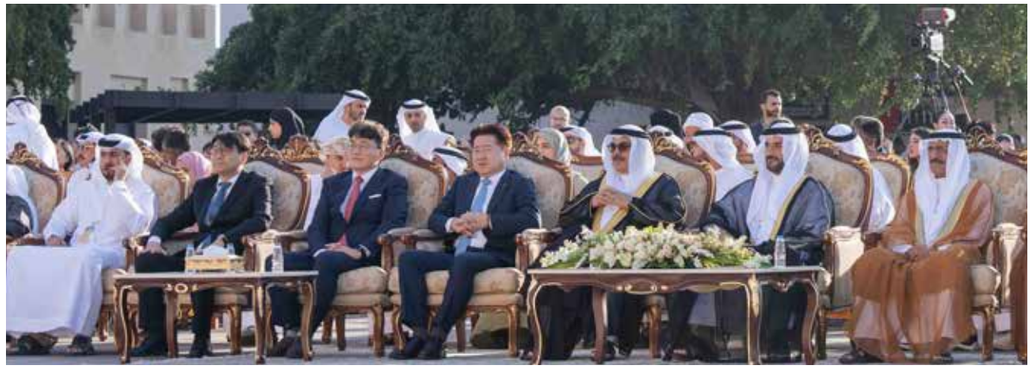

شهد سمو الشيخ سلطان بن أحمد بن سلطان القاسمي، نائب حاكم الشارقة، حفل افتتاح فعاليات الدورة الـ«21» من «أيام الشارقة التراثية»، التي نظمها معهد الشارقة للتراث تحت شعار «تواصل»، وذلك في منطقة ساحة التراث في قلب الشارقة، بمشاركة 13 دولة عربية وأجنبية، و25 جهة حكومية.

وشاهد سموه والحضور الفقرات الفنية التي استهلّها حفل الأيام التراثية، والتي تضمنت أنغام وأهازيج فن العيالة الإماراتي، وفن الآهال البحري، تلاه استعراض عرض الحربية، والقافلة، والعازي، والنوبان، والرواح والندبة، والهبان، وقدمت الفرق الشعبية الإماراتية فقرة الليوة والرزيف وفن الدان، بالإضافة إلى عرض منوّع قدمته الفرقة الوطنية للفنون الشعبية في جمهورية كوريا الجنوبية؛ ضيف الشرف لدورة هذا العام.

وتجول سمو نائب حاكم الشارقة في أرجاء ساحة التراث في منطقة قلب الشارقة، مستمعاً لشرحٍ عمّا تضمه أروقة الفعالية، وما تقدمه الجهات المشاركة من داخل الدولة وخارجها، وتوقف سموه أمام عدد من الأركان والأجنحة المشاركة التي جسدت المكانة الراسخة للموروث الشعبي وأثره في عقول الشعوب وحياتها.

وزار سموه المعرض الخاص بمقاطعة جيجو، ضيف الشرف الرسمي من جمهورية كوريا الجنوبية، وأعرب سموه عن تقديره للتنوع والثراء في الموروث الثقافي للدولة، وما تمتلكه من مقومات فنية وجمالية متميزة، وعرّج سموه على البيئات التراثية المختلفة التي تضمها الفعالية، ومنها البيئات البدوية والزراعية والجبلية، مثمناً سموه جهود المنظمين والقائمين على الفعاليات المختلفة، واهتمامهم بحماية التراث ونشره، وصون القيم والعادات والتقاليد المحلية الأصيلة.

اجتماع تحضيري لإطلاق جائزة الشارقة الدولية للتراث

عقد مجلس أمناء جائزة الشارقة الدولية للتراث الثقافي اجتماعه، برئاسة د. عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس مجلس أمناء الجائزة؛ لمناقشة مستجدات إطلاق النسخة الخامسة من جائزة الشارقة الدولية للتراث.

وناقش المجلس، خلال الاجتماع الذي عُقد بالقاعة الإقليمية لـ«اليونسكو» بمركز التراث العربي التابع للمعهد، الموضوعات المدرجة على جدول الأعمال، بحضور الدكتور مني بونعامة، رئيس اللجنة العلمية في الجائزة، وأعضاء المجلس الدكتور ماجد عبدالله بوشليبي، والدكتور سيف محمد البدواوي، وفاطمة أحمد عبيد المغني، والدكتور حمد بن محمد بن صراي.

وأثنى أعضاء المجلس على الدور الرائد لمعهد الشارقة للتراث في المحافظة على استمرارية الجائزة عبر دوراتها السابقة، والآفاق المنظورة للدورة الجديدة، بما في ذلك البرامج الثقافية والعلمية والحملات التعريفية بالجائزة، والجولات الترويجية، إضافة إلى الأجندة الزمنية للإعلان عن إطلاق الدورة الجديدة.

واتفق المجلس على عددٍ من الموضوعات للارتقاء بالجائزة؛ لتأخذ موقعها على المستوى العالمي، لاسيما أنّ الجائزة تعدّ الأولى عربياً التي تنحو هذا النحو الدولي بحقولها كافة.

«الشارقة للتراث» يستقبل وفد «مجمع القرآن الكريم»

استقبل سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث، وفداً من مجمع القرآن الكريم بالشارقة، برئاسة سعادة عبدالله خلف الحوسني، الأمين العام للمجمع، والوفد المرافق، وذلك لبحث سبل التعاون بين الجانبين، وقام الوفد المرافق بجولة تفقدية على أرجاء المعهد ومرافقه، حيث شملت الجولة الاطلاع على دور المعهد على الصعيد العلمي والأكاديمي والعملي، ومختلف الأنشطة والبرامج والفعاليات التي ينفذها على مدار العام.

تكريم «الشارقة للتراث» لمشاركته في «أضواء الشارقة»

كرّم سعادة خالد جاسم المدفع، رئيس هيئة الإنماء التجاري والسياحي بالشارقة، معهد الشارقة للتراث، المشارك في مهرجان أضواء الشارقة الدورة الـ13، التي انطلقت من 7 حتى 18 فبراير الماضي، وتزينت خلالها إمارة الشارقة بلوحات فنية على مختلف معالمها.

ملف العدد

تجليات رمضان في الموروث الشعبي العربي

رمضان أول

عادات وعبادات

د. عبدالعزيز المسلّم
رئيس معهد الشارقة للتراث

«مبارك عليكم الشهر»...
«اللـه يعـوده علينـا وعليكـم بالخـير والعافيـة وطولـت العمـر»...
«اللـه يعـوده علينـا وعليكـم كل سـنة وكل حـول، سـالمين وغانمـين لا فاقديـن ولا مفقوديـن»...

هـذه العبـارات التـي يتداولهـا أهـل الإمـارات في شـهر رمضـان الفضيـل، شـهر الطاعـة والمغفـرة والـكلام الطيّـب، شـهر النفحـات الإيمانيـة الطيبـة، شـهر الأنـس والطمأنينـة والصحـة، شـهر الخـير كل الخـير، شـهر الدعـاء والاستغفار،شـهر قيـام الليـل والقنوت، شـهر لا يضاهيـه شـهر آخـر عنـد المسـلمين.. فيـه أُنـزل القـرآن، وفيـه ليلـة خـير مـن ألـف شـهر، هـي ليلـة القـدر، هـذه الليلـة التـي تكـون حديـث النـاس وشـغلهم الشـاغل منذ شـهر شـعبان، فالـكل يسـتعد للظفـر برؤيتها،والفـوز ببركاتهـا.

عـن ليلـة القـدر في الذاكـرة الشـعبية مئـات القصـص والحكايـات التـي تصـوّر شـكل هـذه الليلـة، والكرامـات التـي ينالهـا مـن يفـوز برؤيتهـا، كتلـك التـي فـازت بطـول العمـر، وذاك الـذي حـاز بركـة شـفاء النـاس، وذاك الـذي رزق المـال الوفير،وغيرهـم الكثـير..

غـير أن السـمة البـارزة لشـهر رمضـان في الإمـارات قديمـاً كانـت تميـل إلى البسـاطة أكـثر، وإلى عـدم التكلـف، خلافـاً لمـا نـراه اليـوم مـن مظاهـر البهرجـة والزخـرف واللهـو، ففـي المـاضي كان رمضـان شـهر عبـادة وروحانيـة أكـثر منـه شـهر تسـلية ولهـو!

ورمضـان الأمـس كان يتصـف بصفـات مميـزة مـن بدايتـه إلى نهايتـه، فبشـراه رؤيـة الهـلال، وطلقـات المدافـع والأعيـرة الناريـة، تليهـا مسـيرات العبـادة والفـرح، بـدءاً مـن ألعـاب الأطفـال الشـعبية، وانتهـاء بصلـوات قيـام الليـل وقـراءة القـرآن الكريـم، ومحـاولات ختمـه مـراراً وتكـراراً.

الأطفال في رمضان

للأطفال جوّهم الخاص في رمضان، فهو الشهر الوحيد في أشهر السنة القمرية الذي يُسمح فيه لهم بالخروج من البيت واللعب بعد صلاة المغرب؛ فالشياطين مكبلة، والكل في سكينة ودعة، ولرمضان ألعابه الخاصة.

1- لعبة اعظيم سرى:

أو كما تسمى عند البعض (اعظيم لـوّاح)، وهي لعبة رياضية جميلة، تعتمد على عظم يابس لشاة أو عجل، ومسمى اللعبة تصغير لكلمة عظم، فقيل عُظيم، ينقسم اللاعبون إلى فريقين، ثم يرمى العظم إلى بعيد في الظلام، ويزعق الرامي «اعظيم سرى.. حد درى.. وحد ما درى..». ويتسابق الأطفال باحثين عن العظم، ومن يجده يرميه إلى زميله في الفريق نفسه، محاولين إبعاده عن الفريق الخصم وهكذا.

2- لعبة المدفع:

وهي مستلهمة من مدفع رمضان، حيث يقوم الأطفال بتصنيع المدفع بأيديهم، بدءاً من صنع العربة الخشبية ذات العجلات، ثم يصنعون فوهة المدفع، وهي عبارة عن ماسورة مياه، يثقبونها من الثلث الأخير لوضع الفتيل،ويدهنونها بألوان، حسب رغباتهم.

ومنهم من يبحث عن مفتاح قديم ذي فتحة من الأمام، فيملؤه بالبارود، ويضع فيه مسماراً، ويضربه في الجدار أو بحجر،فيحدث دوياً كأنه مدفع.

3- لعبة عمبر:

وتلفظ أحياناً (عنبر)، وتعتمد على كرة صغيرة ككرة التنس الأرضي، وعلب صغيرة بحجم قبضة اليد فارغة، عددها ست علب، وقد تزيد أو تنقص، ترصّ العلب فوق بعضها، بعد أن ينقسم اللاعبون إلى فريقين بالقرعة، يحاول أحد أعضاء الفريق المختار أن يوقع العلب من مسافة بعيدة بالكرة، فإذا وقعت زعق بأعلى صوته (عمباااااار)، فيهرب الفريق الآخر، ويلحق هو وفريقه بهم، عن طريق رمي الكرة من لاعب لآخر، فإذا ظفروا بلاعب من الخصم ضربوه بالكرة، وقالوا مات (أي خسر)، والآخرون من الفريق الخصم يحاولون صف العلب فوق بعضها، فإذا أتموا ذلك،فازوا، وإذا (ماتوا) جميعاً، أعيدت لهم اللعبة من البداية،حتى يتصالحوا من الألم والإجهاد.

4- لعبة يوريد:

بطريقة الاقتراع بالعدّ يقع الاختيار على أحد الأولاد ليكون الصياد الذي يقف في مكان يسمى «الهول» – وهو عبارة عن دائرة مرسومة في الرمل – ويهرب المتبقون، فيصيح هو بهم «يوريد»، ويردون عليه «بعدنا»، ويكررها إلى أن يردوا عليه برد آخر هو «لحقنا»، فينطلق وراءهم، ومن يمسك به يحل محله،وتعاد الكرة مرة أخرى بالصياد الجديد، أما الذي يفلت فإنه يقفز في دائرة الرمل، ويزعق «يووووويد»، وقد تسمى هذه اللعبة عند البعض «صايح».

5- لعبة الهول:

تحتاج هذه اللعبة إلى فريقين يلعبان في موقع معين، تحده حواجز من الطرفين كالجدران مثلاً،ويلزم كل فريق جانباً، ويتنافس كل فريق في اختراق الفريق الآخر، ولمس حائطه، فإذا لمسه صاح بأعلى صوته «هووووول»، وكأنه يقول: «هدف»، وهكذا كل فريق يذب عن حماه.

6- لعبة لمسلسل:

اشتقّت هذه التسمية من السلسلة،وهي تعني المقيد، وهم يقومون بتقييد أحد اللاعبين بحبل أو غترة قديمة، أو قد يترك دون تقييد، ويتحلق حوله اللاعبون متراصين، كأنهم بنيان مرصوص، ليشكلوا حدوداً منيعة، فيحاول هو اختراق هذه الحدود للخروج من الدائرة، فيُصد بكل قوة من الأولاد وهم يهتفون بنظم إنشادي جميل:

رمضان
في الذاكرة الشعبية

فهد علي المعمري
باحث - الإمارات

دائماً ما ترتبط المناسبات، مثل رمضان والأعياد وأداء فريضة الحج، وكذلك الطقوس المتعلقة بالأعراس والسفر واستقبال المسافرين، وغيرها من المناسبات، والطقوس في شتّى أنواع التراث الشعبي غير المادي، مثل الولادة والختان، وإقامة الولائم، إضافة إلى العادات والتقاليد التي تمثل بدورها الشطر الأكبر من الذاكرة الشعبيّة لدى المجتمع الإماراتي الذي نهل من مائها كثيراً، ولم يرتوِ منها يوماً، وما زال ينهل إلى هذا اليوم، ليشكل بذلك ذاكرة شعبيّة يأخذها من السلف، وينقلها إلى الخلف، لتستمر دورة الحياة في التراث الشعبي عند أبناء مجتمع الإمارات.

وكثيراً ما اختزنت الذاكرة الشعبيّة في دولة الإمارات الكثير من الذكريات التي تُعَدُّ اليوم مصدراً مهمّاً من مصادر حفظ التراث الشعبي؛ لذا كانت هذه الذاكرة التقييد الأكثر لحفظها واستمرارية بقائها عبر السنين والأجيال المتلاحقة، فكانت النتيجة بقاء حكايات وروايات وأشعار وأمثال وقصص تتناقلها الأجيال وتحفظها الصدور، وتروى على الألسن، فكانت مجالس للحكمة والرواية والأشعار والسمر.

وبما أن الذاكرة الشعبيّة مملوءة بالذكريات، تلك الذكريات التي عَلقَت على جدار الذاكرة سنين طويلة، واحتوت على الكثير؛ وكأنها مزرعة كبيرة حوت من كل صنف، وبذلك فهي كريمة في عطائها، ولم تبخل على من أراد منها شيئاً، بل كانت تعطي أكثر ممّا تأخذ، فامتدّت مساحتها لتضم الآلاف من الذكريات الشعبيّة، وفي هذا اليوم أصبحت هذه الذاكرة هي المحطة الرئيسة التي يتوقف عندها كل طلاب التراث الشعبي، ليسمعوا ويقرؤوا ويكتبوا ويؤلفوا في تراثنا الشعبي.

نقتطف من هذه المزرعة الوفيرة ثمرة رمضان، نعم شهر رمضان المبارك؛ ذلك الزائر الذي ينتظره جميع أبناء المجتمع الإماراتي؛ صغيره وكبيره، رجاله ونساؤه، انتظار الغائب الذي طال غيابه، وانتظار الأسرة التي غاب عنها أحد أفرادها وقرُبَ موعده، هكذا كانت لهفة المجتمع الإماراتي لشهر رمضان المبارك؛ لذلك امتلأت الذاكرة الشعبيّة بتراثيّات هذا الشهر الفضيل الذي أخذ نصيباً وافراً من هذه الذاكرة، فكانت الحصيلة أشعاراً وأمثالاً وقصصاً، بجانب العادات والتقاليد التي كانت تمارس في هذا الشهر، لاسيّما قبله بأيام وبعده بأيام، إذ تسبقه الاستعدادات له، وبعده تأتي الفرحة بعيد الفطر، ويسمّى محليّاً «العيد الصغير».

إذا بدأنا الحديث عن شهر رمضان المبارك، فإنّنا نتحدّث عن ضيف زائر لا يشبهه ضيفٌ في مثل زيارته، وليس في مثل تقديسه وإجلاله، إن ذلك الزائر الذي يزورنا في كل عام مرة واحدة، ولكنها تستمر شهراً كاملاً، هو الزائر العزيز على القلوب ينتظره الصغير قبل الكبير، ومن أجل ذلك الحب والإجلال أخذ له مكاناً في تراث مجتمع الإمارات، وأصبح شهر رمضان المبارك من التراثيّات الإماراتية التي تتمثّل في العادات والتقاليد والطقوس والسنع والألعاب الشعبية والأزياء والملابس، كل هذه التراثيّات أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تراث شهر رمضان في مجتمع الإمارات.

نبدأ أولا بالشّوّاف، ونتساءل من هو الشّوّاف، هو ذلك الرجل الذي يمتلك الرؤية البصريّة الحادّة، والتي

تميّزه عن غيره بأنه يستطيع رؤية الأماكن البعيدة أو الصغيرة جداً، وهذا الشّواف يُرتكز عليه في رؤية هلال شهر رمضان المبارك، وما أن يراه ذلك الشوّاف، فإنه يخبر أصحاب الاختصاص بأنه رأى هلال شهر رمضان، وعلى إثر ذلك تبدأ عمليّة إخبار الناس بأنه تمت رؤية الهلال، وأن يوم غدٍ هو غرة رمضان المبارك، ويتم ذلك عبر إطلاق صوت المدفع، وكذلك عبر إشعال النار من منطقة عالية الارتفاع كالجبال الشاهقة ليرى هذه النار سكان تلك المنطقة وما جاورها.

بعد إعلان شهر رمضان المبارك يبدأ الجميع كباراً وصغاراً، ذكوراً وإناثاً، باستقبال طقوس وأجواء رمضان، في لهفة من الجميع للتعبّد وصلة الأرحام والإكثار من عمليّة التواصل الإنساني بين الأهل والأقارب والجيران والجميع خلال الشهر الفضيل. وهذه اللفة تبدأ قبل شهر رمضان، فمنذ بداية شهر شعبان الذي يطلق عليه القصيّر؛ لأنه شهر يمر بسرعة كبيرة وتنقضي أيامه كأنها قصرت عن الثلاثين يوماً، وذلك لتعلّق الجميع بشهر رمضان، وأنه لم يبقَ له سوى شهر شعبان الذي يمر عليهم بسرعة البرق، ولذا أطلقوا عليه القصيّر.

وإذا ما أدلفنا الحديث عن العادات الدينيّة في ذلك الشهر الفضيل، فكان الناس فيما مضى ولا يزالون يولون هذا الشهر المبارك الاحترام الكبير، مثل النوافل والسُّنن وصلة الأرحام، ومن هذه العبادات صلاة التراويح التي تُشعِر المصلين بشهر رمضان، ولصلاة التراويح عادات وطقوس يؤديها أفراد المجتمع، مثل تعطير المسجد بالعود، حيث لا يخلو مسجد من المساجد إلّا وفيه مدخن أو أكثر من قبل صلاة العشاء حتى انقضاء صلاة التراويح، أما قبل صلاة المغرب فمن العادات التي أصبحت تراثاً في شهر رمضان، هي إرسال الطعام من كل البيوت القريبة من المسجد، ووضعها في مائدة كبيرة في فناء المسجد؛ ليأكل منها المساكين والفقراء وعابري السبيل، أمّا في بقية أوقات النهار، فيتم في تلك المساجد قراءة القرآن الكريم، واجتهاد البعض ختم القرآن مرة أو أكثر خلال هذا الشهر الفضيل.

أمّا الحديث عن مطبخ رمضان، فهو حديث مملوء بعبق التراث، ذلك أن الأطعمة في شهر رمضان تختلف عن بقية أيام السنة، ومن بين التحضيرات التي تقوم بها النسوة قبل شهر رمضان طحن حب الهريس، حيث يتم الطحن مع بداية دخول شهر شعبان، وذلك استعداداً لصنع الأطباق الإماراتيّة المفضّلة، بالإضافة إلى شراء المؤن، فهناك المأكولات الشعبيّة مثل الأرز والثريد والهريس والعرسيّة والمضروبة والمرق، بجانب الحلويات مثل الفرني والساقوْ والخبيص، ثم فيما بعد منذ بداية السبعينات المشروبات الباردة، وتعرف محلياً بـ«الشربت» مثل شربت الفيمتو، وكل بيت يقوم بإرسال وجباته التي قام بطبخها إلى منازل الجيران، ويستقبل منهم وجباتهم، وهذه الممارسة وإن هي تتم في كل أيام السنة وبشكل مغاير، إلّا أنها في رمضان أصبحت من العادات والتقاليد المقدّسة التي لا يتنازل عنها أي بيت، وترى السكك قديماً، وهي الممرات التي بين البيوت مزدحمة بالأطفال الصغار، وهو يحملون تلك الصحون المختلفة بأنواع الطعام إلى منازل الجيران.

كما كان عالم الطفولة هو الآخر يسير في رحاب رمضان بما هو متاح ومتوارث من الألعاب، في جوّ مفعم باللعب، حيث كانت ألعاب الأطفال حاضرة بعد صلاة العشاء والتراويح، وهناك ألعاب الأولاد الخاصة بهم، وهناك ألعاب البنات الخاصة بهم، وهذه الألعاب اليوم تعد من الموروثات الشعبيّة، وتعرف بالألعاب الشعبيّة، مثل لعبة التبّة، والطرّة، وقبّة ومسطاع، والهول، وعْظيم لوّاح، أمّا ألعاب البنات مثل خوصة بوصة والمريحانة.

أما بعد منتصف الليل، فلم نعد نسمع اليوم عند وقت السحور ذلك الرجل حامل الطبلة الذي ينشد قصائد تحفّز الناس على النهوض لتناول السحور، وبعدها أداء صلاة الفجر، وسط أصوات المؤذنين التي تعلو

المساجد، ولم تعد عادات تناول السحور كما كانت، لاسيما مع تنوّع أصناف المأكولات والأطعمة، بعد أن كان السحور في الماضي مقتصراً على اللبن والتمر، وربما هناك من يخلط خبز الرقاق باللبن أو الأرز باللبن مع قليل من الماء والتمر كذلك.

ولكن يبقى وقت الليل بعد صلاة العشاء والتراويح هو الوقت الأكثر حباً في شهر رمضان، لاسيما إذا تكلمنا عن بداية العقد السابع من القرن العشرين، حيث أصبحت الألعاب هي غير تلك الألعاب القديمة الشعبيّة وحلت محلها الألعاب الجماعيّة الأخرى مثل كرة الطائرة وكرة القدم والتي تبدأ بعد منتصف الليل، كما أن السهر أصبح عادة في شهر رمضان منذ ذلك الوقت الذي ذكرناه قبل قليل، حيث أصبح السواد الأعظم يحرص على البقاء مستيقظاً إلى أذان الفجر ليصلّي ثم ينام بعد ذلك.

وقبل أن نختم الحديث عن العادات والتقاليد والطقوس التي تكون حاضرة في شهر رمضان المبارك، نذكر الاستعداد ليوم الفرحة الكبرى، فرحة يوم العيد، وذلك واقعٌ في شهر رمضان، حيث إن الاستعداد له يكون في رمضان، فقديماً لم تكن الحياة الاجتماعية بهذه الرفاهية، فكانت الملابس الرجالية قليلة، ويصعب على الجميع شراء عدد من الملابس التي نسميها الكنادير، ولكن ليوم العيد خصوصيته وأهميته؛ لذا لابد من الملابس الجديدة، وعليه تتم عملية تلوين الكندورة القديمة من البياض إلى لون آخر، وأكثر ما يكون هو لون الوَرْس، وهو اللون الأصفر القريب من البرتقالي، وأما زينة المرأة والبنات الصغيرات فهي الحنّاء، ومع بداية السبعينيات بدأت مرحلة أخرى من التجهيزات، وهي خياطة الكنادير الجديدة، وشراء الأحذية الجديدة، وكانت هذه المشتريات تمثل فرحة كبيرة لا توصف لدى الأولاد الصغار، حيث يكونون في لهفة وشوق دائم، والنظر إلى تلك الكنادير وإلى ذلك الحذاء ليلبسوا الجديد ويستمتعوا به.

وكان للشعر نصيب في شهر رمضان المبارك، يقول الشاعر علي بن سلطان بن بخيت العميمي، ذاكراً العادات والتقاليد في ذلك الشهر الفضيل:

يا مرحبا بْشهرٍ على الناس لافي
شهر رْمضان الي به الناس يبهون
تلقى جميع الناس فيها اوْتلافي
وقت الفطور وْعقب ما هُم يصلّون
لي من لفاهم ضعيفٍ وشافي
مدّوا له ايْد العون بمّا يسْتطيعون

وفي الأمثال يصادفنا مثل عنوانه «رمضان دوك يرابك»، ورمضان هنا اسم علم، ويرابك هو الجراب، وقلبت الجيم ياءً، واليراب هو سلّة مصنوعة من خوص النخل لحفظ التمر بداخلها، وقصة المثل على النحو الآتي: كان هناك رجل لا يملك من المال إلّا الشيء القليل الذي يَسُدُّ به حاجته هو وزوجته، وكان يذهب كلّ صباح إلى عمله، وعندما يعود إلى منزله يأتي بقليل من التمر فيضعه في ذلك اليراب، وكان يكرّر فعلته هذه في كلّ يوم، فقالت له زوجته يوماً: لمن كل هذا التمر الذي تجمعه، فقال لها: إنّ هذا التمر لرمضان، وكان يكرر ذلك العمل كلّ يوم، حتى امتلأ اليراب بالتمر، فقالت له الزوجة: لمن كل ذلك التمر، فقال لها: قلت لك من قبل إنّه لرمضان، وفي أحد الأيام ذهب كعادته من الصباح الباكر إلى السوق، وفي قت الضحى جاء أحد أصدقائه إلى منزله وطرق الباب، ففتحت الزوجة الباب وقالت: من أنت؟ فقال لها. أنا صديق زوجك، واسمي رمضان، هل هو في المنزل؟ فقالت: ليس في المنزل، فقد ذهب إلى السوق. فقال لها: إذا جاء فأبلغيه السلام، فقالت: انتظر، الحمد لله الذي أتى بك، فإن زوجي قد ملأ لك يراباً من التمر، وسمعته يقول إنّ هذا اليراب لرمضان، فانتظر حتى آتيك به لتأخذه معك، فانتظر رمضان قليلاً، ثم أتت زوجة الرجل ومعها يراب التمر، وقالت: رمضان دوك يْرابك، فأخذ رمضان يراب التمر وذهب، وفي وقت العودة عاد الرجل إلى البيت ومعه قليل من التمر ليضعه في اليراب، وذهب إلى اليراب فلم يجده، فطار عقله ونادى زوجته، فجاءته مسرعة، فقال لها: أين اليراب؟ فقالت: جاء صاحبه وأخذه، فقال لها: ومن صاحبه؟ قالت: صديقك رمضان، وأنت أخبرتني بهذا، فأصبح يقلّب كفّيه، ويقول: إنيّ أجمعه لشهر رمضان، وليس لصديقي رمضان!

شهر فضيل
له مكانة في النفوس

د. سالم زايد الطنيجي
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

بعد أن يعدّ شــهر رمضان في الحاضر وقتــاً مميزاً، ينتظره المســلمون حول العالم بشــغف واشــتياق، يأخذنا الزمن في رحلة عــبر الذاكــرة إلى مراحــل مضــت، لنعيش تلك اللحظات الرائعة والروحانية التي شــهدها شــهر رمضان في الماضي.

في الأماكــن القديمــة، كانت أرجــاء البيوت تنبــض بالحياة والنشــاط خلال شــهر الصيــام، كانــت الليــالي مملوءة بالصلوات والقــراءة، حيث يجتمع أفــراد الأسرة في أجواء هادئــة ومريحة، يتســابقون في قــراءة القــرآن الكريم وتلاوتــه بتأمــل عميــق. كان الســحور والإفطــار لحظات اجتماعية ترســخ روابط الألفــة والمحبة بين الأفــراد، حيث يشــدون أنغام الدعاء، ويشــاركون بفرحة الإفطار المنتظر.

وفي الأســواق، كانت روائــح التوابل والحلويات الشــهية تعبق بالهواء، مشــعةً بألوان وأصوات تجــذب الناس إلى متاجر الحلويات والتمــور.. والموائد الرمضانية البســيطة منتــشرة في كل الأماكــن، حيــث يجتمــع النــاس لتبادل التحايا والأطعمــة اللذيذة.

ولكن لا يكمن ســحر رمضان في الزخرفــة الظاهرية فقط، بل ينبــع جماله مــن روح العبادة والتأمــل والتضحية. في تلــك الأيام، كانــت القلوب تنبــض بالإيمان والشــوق إلى اللــه، وكانت الليالي تمر بســكينة وســلام.

هكــذا كان شــهر رمضان في المــاضي، لا يقتــصر جماله على العــادات والتقاليد، بل يتجــلى في روحانيته وتأثيره العميــق في حياة المســلمين، رمضــان أيام زمــان، قد كانت الأســواق والشــوارع تزخر بأجواء خاصــة، حيث كانت المحــال مزينة بالزينــة الرمضانيــة، والمأكــولات الخاصة بالشــهر المبــارك كانت تعتــلي قمة الاهتــمام، والناس يتبادلــون التحيــة والتهــاني، والجو يكون مملــوءاً بروح الســكينة والتضامن.

كانــت للعائــلات تقاليدهــا الخاصــة بهــذا الشــهر، حيث وجبات الإفطــار والســحور التي تجمــع الأسر في أوقات معينــة، في فرصــة للتواصــل والتلاحــم، كــما للصدقات والعطــاء حضورهــما البــارز في تلــك الأيام.

في الليالي الرمضانيــة، تمتلئ أماكن العبــادة بالمصلين الذين يشــاركون في صلاة التراويح والقيام، ويســتمعون إلى تــلاوة القرآن الكريــم، وكانت الأنشــطة الدينية تلعب دوراً مهماً في جعل الشــهر مملــوءاً بالروحانية والتأمل.

من خــلال هــذه الذكريات، يــبرز رمضان أيام زمــان كفترة مميــزة من الترابط الاجتماعــي والروحانيــة، حيث القلوب مفتوحــة، والعلاقــات تتعــزز. ورغــم تغير الزمــن، يبقى حب وتقدير هــذه اللحظات خالداً في قلــوب الناس. كانت الزيــارات العائليــة في رمضان في الأيــام الماضية تلعب دوراً مهــماً في إضفــاء الفــرح والبهجــة على الشــهر الكريــم. اللقاءات العائلية تجمع الناس في المســاء، حيث الأسر تتجمع لمشــاهدة الأهل والأرحام مــا يعكس جمال العلاقــات الأهلية بينهم، وتمتد الســهرات الرمضانية إلى وقت متأخــر من الليل، حيــث يتبادلون الحكايــات والألغاز، ويشــاركون في الأنشــطة الترفيهيــة التي تعــزز الروح الاجتماعيــة والتفاعل بــين الأفراد.

فيما يتعلــق بالأكلات، كانــت الأطعمــة التقليدية لرمضان تشــكل جزءاً لا يتجزأ من التجربة الشــهرية التي يعيشــها أبناء الإمــارات في الماضي الجميل. ورغــم التغيرات التي

شـهدتها الحياة والعـادات على مر الزمـن، تظل ذكريات رمضان محفـورة في ذاكرة الناس، وتعكـس جمال الفترة التـي تجمع بـين الديـن والتقاليـد والفرح، مـا يجعلها فـترة لا تنسى في تاريـخ الأفراد والمجتمـع. كانت ليالي رمضـان في تلـك الأيـام تـزدان بروحانيـة خاصـة، حيث يسـود السـكينة والتأمل في اللحظـات الهادئـة، بينما يحيط بالمـكان الهـدوء والسـكون، في فرصـة للتفكير والتأمـل في القيم والأخـلاق الروحية.

في نهايـة الشـهر، حيث الليـالي العشر الأخـيرة تحمل في طياتها ليالي لا تنـسى، إذ يتعمق الناس في العبادة والتضرع بالدعـاء، ولحظات القرب من الله تعطي شـعوراً فريداً بالسـكينة والسلام.

على الرغـم من التغيرات في أسـلوب الحيـاة والعادات، يبقـى رمضـان زمـان خالـداً في قلـوب النـاس، وتظل الذكريـات الجميلـة تعكس جـمال تلك اللحظـات الفريدة التي كانـت تميز هـذا الشـهر المبارك.

شهر يعني الكثير

يحمل شـهر رمضان للنـاس قيماً دينيـة وثقافية مهمة، وله تأثير كبـير في الحيـاة الروحية والاجتماعيـة للأفراد في العديـد من الثقافات والتقاليد الإسـلامية. إليك بعض المعاني التـي كانت لها رمزيـة في الماضي:

1. التقـرب إلى الله: رمضان يعتبر شـهراً مهماً للتقرب إلى الله عـن طريق الصيام والعبادة. يُعـدّ الصيام والقيام ليلاً من الأعـمال الصالحة التي تعـزز الروحانية، وتعين الفرد على التفكير في قيمـه الدينية والأخلاقية.
2. التكافـل والتعـاون: كان شـهر رمضان قديمـاً، فرصة لتعزيـز التكافـل والتعـاون بـين الأفـراد والمجتمع، فالنـاس يشـعرون بالمسـؤولية نحـو الفقـراء والمحتاجـين، ويتبرعـون بالصدقـات والإعانات بشـكل كبـير خـلال هذا الشـهر.
3. تعزيـز العلاقـات الاجتماعيـة: يجمـع رمضـان الأسر والأصدقـاء في جلسـات الإفطار المشـترك التي تعزز الروابـط الاجتماعيـة. كان النـاس يقضون وقتـاً أطول مع أفـراد العائلـة والأصدقـاء، وكانت هـذه اللحظات مملـوءة بالتضامـن والحب.
4. التحـلي بالصـبر والتقديـر: الصيام في رمضـان يعلّم النـاس صبراً وتحملاً للظـروف الصعبـة. كان الفرد يقدر قيمـة الطعـام والشراب بشـكل أكبر بعد يـوم كامل من الصيـام، ما يعـزز تقدير نعـم الله.
5. التغيـير والتجديـد: كان النـاس ينظـرون إلى رمضـان كفرصـة للتجديـد الروحـي والشـخصي، ويسـعون لتحقيـق التغيـير الإيجـابي في حياتهـم مـن خلال التفكـير في أهدافهـم وتحسـين سـلوكهم.

وعليه يعد شـهر رمضـان تجربـة دينية وروحيـة مميزة

للمسـلمين، ويتمنـى كثـيرون أن يكون له تأثـير إيجابي في حياتهـم ومجتمعاتهم.

في المـاضي، يجتمع الناس خلال شـهر رمضـان، وخاصة عند وقت الإفطار والسـحور، كانت هنـاك طقوس وتقاليد اجتماعيـة تعـزز التواصل والتلاحـم بين الصائمـين، إليك بعض السـياقات التـي كانت تحـدث في الماضي:

1. الإفطار المشـترك (السـحور): تجتمع العائلات والأصدقاء لتنـاول وجبة السـحور المبكـرة قبل بدايـة فجر يوم جديد، وهـذه اللحظات تمثل فرصة للتواصل ومشـاركة التجارب اليومية.
2. الصـلاة في المسـاجد: كانـت المسـاجد مكانـاً مهماً للاجتـماع والتواصـل خـلال شـهر رمضـان. فيحضرون الصلوات الجماعيـة، خاصة صلاة التراويـح في الليالي الرمضانية، حيـث يلتقون أفراد مجتمعهم ويشـاركون في الطقـوس الدينية.
3. المـأدب الرمضانية: تقيم العائلات مـآدب رمضانية كبيرة في بيوتهـا، وتتـم دعوة الأقـارب والأصدقـاء لتناول الإفطار معـاً. وتعزز هذه المناسـبات روح المشـاركة والتضامن.
4. زيارة الأقـارب: كانت الزيارات بين الأقـارب والجيران أكثر فاعلية خـلال رمضان، حيث يتبادلـون التهاني والتحية.

تلك الأمـور كانت تسـهم في تعزيـز التواصـل والترابط الاجتماعـي بـين الصائمـين في الماضي.

عادات متوارثة

شـهر رمضان له أهمية كبـيرة في الإسـلام، قديماً كما في الوقـت الحـالي، يعيش النـاس تجربة فريـدة خلال هذا الشـهر المبارك. إليك بعض العـادات والتقاليد التي اعتاد النـاس اتباعها خلال شـهر رمضان:

1. الصيـام: كانـت العمليـة الرئيسـة خلال شـهر رمضان هـي الصيـام، حيـث يمتنـع المسـلمون عـن تناول الطعـام والـشراب والتدخـين مـن الفجر حتـى المغرب.
2. دعـوة الإفطـار: كانـت دعـوة الإفطـار أمـراً مهماً، وتتجمـع العائلات حـول مائـدة الإفطار لتنـاول وجبة خفيفـة بعـد غروب الشـمس.
3. الصـلاة والعبادة: زادت النشـاطات الدينية خلال شـهر رمضان، حيـث تكثر الصلـوات وقراءة القـرآن. كما كانت هنـاك ليالي خاصة في هذا الشـهر، مثـل ليلة القدر، حيـث يبحث المسـلمون عـن ليلـة خاصـة ذكرت في القـرآن الكريم.
4. الإحسـان والتكافـل الاجتماعـي: كانـت هنـاك تقاليد قويـة في تقديـم المسـاعدة والتبرعـات للفقـراء والمحتاجـين خلال شـهر رمضان، ويحـرص الناس على تقديـم الصدقـات والإحسـان لتعزيـز روح التكافـل والمسـاعدة المتبادلـة.
5. التركيز عـلى التأمل والتفكـير: يسـتغلون الناس فترة الصـوم والامتناع عـن الانشـغال بالحاجـات الدنيوية للتأمـل والتفكـير في الجوانب الروحيـة والدينية في حيا تهم .
6. تجنـب الأمور السـلبية: قـد يحاول النـاس تجنب الأمور السـلبية والمشـكلات خـلال شـهر رمضـان، محاولين الحفـاظ عـلى جو هـادئ ومريح.
7. تحضـير الأكلات التقليديـة: كانـت هناك تقاليـد غذائية خاصة بشـهر رمضـان، حيث يُعـد الناس وجبـات خاصة وتحضـير أطعمـة تقليديـة لمشـاركتها مـع العائلة والأصدقاء.

تلـك هي بعـض العـادات والتقاليـد التي كانت شـائعة

في قضاء الصائمين لشهر رمضان قديماً. يجدر بالذكر أن هناك اختلافات في التقاليد والعادات بين الثقافات والمجتمعات المسلمة.

الوقت يدار بطريقة دقيقة

في شهر رمضان الفضيل، يكون نمط الحياة للناس يختلف بشكل كبير حول العالم الإسلامي، وهناك تقليد في بعض المجتمعات بالاستيقاظ في وقت مبكر قبل الفجر لتناول وجبة السحور، وهي وجبة الإفطار التي يتناولها الصائمون قبل بداية فترة الصيام. بعد ذلك، يقومون بأداء صلاة الفجر، ومن ثم يعودون للنوم لفترة قصيرة قبل بدء يومهم.

بالطبع، هناك اختلافات بين الثقافات والمجتمعات، ولكن الهدف العام هو الالتزام بالصيام وأداء الواجبات الدينية خلال شهر رمضان. بعد النوم لفترة قصيرة بعد صلاة الفجر، يبدأ الناس يومهم العادي، وفي بعض الحالات، قد يتم أداء الأنشطة اليومية الرئيسة، مثل الأعمال اليومية، في فترات الصباح.

مع اقتراب موعد الإفطار، يتوجه الناس إلى المنازل لتناول وجبة الإفطار، وهي وجبة خفيفة تكسر الصيام بعد غروب الشمس. ثم يؤدون صلاة المغرب، ويتابعون الأنشطة الدينية والاجتماعية. في الماضي، هناك اهتمام خاص بالعبادة والقراءة الدينية خلال رمضان، والليالي مخصصة لأداء صلاة التراويح في المساجد. بعد صلاة التراويح، يمكن أن يستمروا في القيام بالعبادات الشخصية أو الاجتماع مع العائلة والأصدقاء.

من ثم، بعد نهاية الليل، قد يستمرون في القيام بالعبادات أو يختارون الراحة للتجهيز ليوم جديد من الصيام والعبادة.

تعويد الأطفال على الصيام

في المجتمعات التقليدية والثقافات القديمة، كانت هناك طرق عدة لتعويد الأطفال على الصيام خلال شهر رمضان أو في أيام أخرى. يمكن أن تختلف هذه الطرق باختلاف الثقافات والتقاليد، ولكن في العموم، كانت العائلات تستخدم بعض الأساليب التقليدية لتربية الأطفال على الصيام، إليك بعض الطرق الشائعة:

1. التدريج: يمكن أن يتم تعويد الأطفال على الصيام تدريجياً ببدء تجربتهم بفترات قصيرة من الصيام، ثم زيادة هذه الفترات تدريجياً حتى يصبحوا قادرين على صيام اليوم كاملاً. هذا يمكن أن يخفف من الصعوبة على الأطفال ويمنحهم الفرصة لتكوين عادات صحيحة.
2. التحفيز والمكافأة: يُشجع الأهل أطفالهم بإعطائهم مكافآت صغيرة أو إشادة عندما يتمكنون من الامتناع عن الطعام والشراب خلال ساعات الصيام. ويكون هذا محفزاً إيجابياً لتشجيع الأطفال على الالتزام با لصيا م .
3. التوجيه والتثقيف: يمكن أن يلعب الجانب التعليمي دوراً مهماً في تعويد الأطفال على الصيام. يمكن للوالدين شرح أهمية الصيام من الناحية الدينية والروحية، وكيف يمكن لهم أن يستفيدوا من هذه الخبرة.
4. المشاركة في الأنشطة الدينية: تشجع المشاركة في الأنشطة الدينية مثل الصلاة وقراءة القرآن والمشاركة في الأنشطة الخاصة بشهر رمضان. هذا يمكن أن يساعد الأطفال على فهم سياق الصيام، ويجعل العملية أكثر إيجابية بالنسبة لهم.
5. الدعم العائلي: يلعب الدعم العائلي دوراً مهماً، فيكون الجو في المنزل داعماً لتحفيز الأطفال وتعزيز إرادتهم في ا لصيا م .

هذه هي بعض الطرق الشائعة التي كانت تُستخدم لتعويد الأطفال على الصيام في الماضي، وقد تختلف تلك الطرق باختلاف الثقافات وا لتقا ليد .

دور الأم في شهر رمضان

يكون دور الأم في شهر رمضان حيوياً ومهماً، حيث تقوم بالعديد من الأدوار التي تسهم في جعل هذا الشهر مميزاً للعائلة. إليك بعض الأدوار الرئيسة التي قد تقوم بها الأم في شهر رمضان:

1. الإعداد للوجبات الرمضانية: تقوم الأم بالتخطيط والتحضير لوجبات الإفطار والسحور. قد تبذل جهداً إضافياً لضمان توفير تشكيلة متنوعة وصحية من الأطعمة.
2. الرعاية الأسرية: تحرص الأم على توفير جو ديني وروحاني في المنزل، من خلال قراءة القرآن مع الأسرة وتشجيع الأطفال على العبادة والأعمال ا لخير ية .
3. التعليم الديني: تلعب الأم دوراً في تعليم الأطفال القيم والأخلاق الإسلامية، وتشجيعهم على القيام بالأعمال الصالحة والعبادات.
4. العناية بالصحة: تهتم الأم بالصحة والتغذية الجيدة لأفراد العائلة، وتسعى للحفاظ على رشاقتهم ونشاطهم خلال شهر رمضان.
5. التعاون والإحسان: تشجع الأم على التعاون والتضامن بين أفراد العائلة، وتحث على إظهار اللطف والرحمة تجاه الآخرين.
6. التواصل الاجتماعي: تدعم الأم الروابط الاجتماعية في المجتمع، سواء من خلال دعوة الأهل والأصدقاء لتناول الإفطار في المنزل أو من خلال المشاركة في الأنشطة المطلوبة.
7. الترتيب والتنظيم: تسهم الأم في تنظيم الوقت والجدول اليومي للعائلة، ما يسهم في الاستفادة القصوى من أوقات شهر رمضان.

بشكل عام، يمكن القول إن دور الأم في شهر رمضان يتعدى إعداد الطعام، حيث تسهم في خلق بيئة دينية وروحانية، وتعزز القيم الإسلامية والتآزر الأسري.

ختاماً، كان شهر رمضان شهراً مميزاً ومملوءاً بالروحانية وتضاف اللمسات الخاصة على هذا الوقت المقدس. كانت لحظات الإفطار تجمع الأهل والأحباء حول مائدة الطعام، حيث يشعر الناس بالسعادة والتقارب الأسري. وتتلون الليالي المظلمة بأصوات الأذان في المساجد، حيث كانت النفوس تبحث عن القرب من الله والتأمل في العظمة والجمال الروحي. كانت الصلوات والتسابيح تملأ الأرجاء، والمساجد تضج بالناس الذين يسعون للتقرب من الله وتحقيق النجاح الروحي.

وفي ختام رمضان في الزمن الماضي، تمتلئ القلوب بالشكر والامتنان، وتكون النفوس محملة بالطاعات والأعمال الصالحة، كانت تلك اللحظات تاريخاً يترك أثراً عميقاً في قلوب الناس، حيث فترة من التوبة والتجديد الروحي، وكانت بداية لرحلة جديدة مع الخير والبركة.

رمضان..
رحلة في ذاكرة التراث الإماراتي

فاطمة سلطان المزروعي
رئيس قسم الأرشيف الوطني

يقال إن الهوية الأولى لأي أمة من أمم الأرض تكمن في لغتها، وهذا بطبيعة الحال متفق عليه، والسبب ببساطة متناهية أن اللغة هي الوعاء الذي يجتمع فيه كل شيء لهذا الأمة، من قيمها وعاداتها وتراثها وأصالتها وتجاربها وخبراتها، وعند اهتزاز أو ضعف اللغة، تكون المحصلة في المجمل هزة عنيفة لجميع تلك القيم التي تكون ضاربة العمق في الزمن والتاريخ، وببساطة متناهية اللغة هي الحضارة.

شهر رمضان الكريم له مذاق خاص، يختلف عن بقية الأيام، ففي الماضي، ورغم شظف الحياة وصعوبتها، إلا أن قدومه كان يعدّ عيداً للكبار والصغار، فهو شهر التراحم والمودة والتقارب، سواء في الصيف أو الشتاء، لقد كانت هناك سوالف الآباء والأجداد، يتندرون بها تارة، ويتحسرون عليها في أيام أخرى، شهر رمضان عند أهل الحير (الجبال) يحسبون له باليوم منذ بداية شهر شعبان 29، فكانوا يسندون مهمة استطلاع هلال رمضان لمن يثقون به في رجاحة عقله ودينه وقوة إبصاره، فيصعد إلى أعلى جبل في المنطقة يراقب الهلال مع غروب الشمس، فإذا رآه أطلق عياراً نارياً ليعلن للجميع رؤيته هلال رمضان، وإن لم يره، يعود أدراجه ليكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً، وفي كلا الحالتين كان يعود إلى والي أو أمير المنطقة حيث يجتمع أهل المنطقة يناقشونه حول رؤيته الهلال أو عدم رؤيته، وعند الرؤية يصلون التراويح ليلتها، ويعقد الصيام بالإجماع، وتكون القرى المجاورة قد سمعت إطلاق النار، فعرفت بمقدم رمضان، أو يرسلون لهم من يخبرهم، وقد ترسل القرى المجاورة مندوبين من عندها، للتأكد من أن إطلاق النار في تلك القرية كان لرؤية الهلال ولتهنئتهم بقدومه.

لقد اعتاد أهل الإمارات الاحتفال بشهر رمضان بكثير من العادات والتقاليد التي يمارسها المسلمون على اختلاف ثقافاتهم، فقد كانت الاستعدادات لرمضان تبدأ قبل دخول شهر شعبان، إذ تقوم الأسر الإماراتية بشراء (المير)، وهي المواد التموينية اللازمة لوجبات الإفطار والسحور، وكانت متوافرة في تلك الفترة في أسواق دبي والبريمي وصار والباطنة، وكان يستغرق الوصول إليها طويلاً، وقد يتجاوز اليومين إلى أسبوع أو أكثر.

ويتم في هذه الرحلات شراء الملابس والأطعمة الجافة مثل الطحين والأرز والملح والقهوة، وبيع والتمور والجلود المدبوغة والمخاريف والحابول وغيرها، أما البدو فيأخذون السدو والجلود المدبوغة وغيرها من المعدات الخاصة بالعناية بالجمال والحيوانات وأنواع السروج والشداد، وكان الارتحال والسفر إلى هذه الأسواق من ممارسات الرجال دون النساء، ومن لا يرغب أو لا يستطيع السفر لسنّه أو لعدم توافر وسيلة انتقال، أو لأي سبب آخر، يكلف الرجال المسافرين بشراء مستلزماته، ولا يحتاج إلى شهود أو عقد، كما أن المكلف الشراء لا يتقاضى أي أتعاب لعمله.

لقد اعتاد رجال القبيلة الاجتماع معاً لتناول وجبات الإفطار وأحياناً السحور، فكانوا يجتمعون عند مسجد القرية، يتوسطهم شيخ القبيلة، وكل أسرة كانت تسهم في هذه المائدة بطبق، فتتنوع الأطعمة مثل الهريس والأرز واللحم والثريد والدجاج، وهناك خبز الرقاق والبلاليط واللقيمات والقهوة، ويبدأ تناول الإفطار ببعض التمرات واللبن والقهوة بعد رفع الأذان، ثم يؤدي الجميع الصلاة بإمامة المطوع، وبعد ذلك يعودون لاستكمال إفطارهم على المائدة التي يترأسها شيخ القبيلة، وعلى يمينه المطوع وكبار القوم، بينما يجلس الصغار في طرف المجلس، ويتم تكليف الصغار ممن هم فوق العشر سنوات بصب القهوة على الجميع.

وخلال الجلسات تتنوع الأنشطة المجتمعية، وتمتد

الأحاديث بشأن الحياة والمشكلات العائلية والخلافات، مثل مشكلات الزراعة والري والسفر إلى الهند، وحكايات البحر والقصص التي كان بعضهم يرويها عن سفراته. ويقوم الناس خلال النهار في رمضان برعي الغنم، وجمع الحطب، وعمل الصخام، وكان هذا الفحم يباع في أسواق أبوظبي أو دبي.

وكان معظم النهار يقضيه بعضهم، وخاصة في فصل الصيف، في النوم تحت شجرة غاف أو سدر حتى إلى ما بعد صلاة العصر، حيث يعودون بأغنامهم إلى البيت، فتكون الحريم قد أعدت طعام الإفطار الذي لا يتعدى أحياناً الحليب والتمر والبلاليط، ولم يكن أحد من الرجال خاصة، وكذلك الحريم، يفطر بمفرده أو مع أسرته، إنما كان يحمل ما عنده ويذهب به إلى حظيرة الوالي أو كبير القرية، وكذلك الحريم، وينتظرون أذان المغرب الذي يتعرفونه بالخبرة، وبغروب الشمس، عندها يؤذن المؤذن، فيفطرون، ثم يصلون المغرب جماعة، ثم يعودون لتناول طعام العشاء الذي لا يتعدى الخبز المعد من الذرة المنتجة محلياً أو الدخن أو الشعير المطحون على الرحى، وقد يكون معه لحم مجفف أو دجاج محلي موجود في البيت، وأحياناً مع السحناة، ويصلون العشاء والتراويح ثم يجلسون لقراءة القرآن والسوالف إلى ما قبل السحور، وذلك بشكل دوري كل يوم في بيت من البيوت، وأيضاً كل منهم يأتي بما عنده، وغالباً ما يكون الطعام من الخبز أو الشوب، وهو عبارة عن خبز بحجم متين ومطلي بالسمن الطبيعي والعسل، إضافة إلى التمر، وهو غالباً من الخنيزي أو النغال المضاف إليه الميبة والثريد، لا يكون إلا عند الأسرة المقتدرة، وتستمر الرمسة إلى وقت السحور الذي يتعرفونه (بصقعة الديك)، فهو يصيح مرتين، في المرة الأولى تنبيه لقرب حلول السحور، والثانية بدخول وقت السحور، فيذهب كل منهم إلى بيته لتناول سحوره الذي غالباً من الخبز والقهوة والتمر، وبعد السحور ينامون انتظاراً للفجر الذي يبدؤون بعده يوماً جديداً، وكان أهل الحير أو أهل الجبال يعيشون حياة قاسية وسط الجبال التي تحتضن قراهم من كل جانب، وكانوا لا يرون حولهم إلا الحجارة الصماء القاسية متجهمة

دائماً، وكانوا يتغلبون عليها بالتزاور والتراحم والمودة. وقد تمسك أهل الحير بمناطقهم رغم صعوبتها، لوجود ما يربطهم بها، إذ لم يستقروا أصلاً في هذا المكان الصعب إلا لوجود الزراعة البسيطة وعين ماء فجرها الله لهم في هذا المكان؛ لذلك كانوا في رمضان يتعاونون على الري، لكن في الليل، ويسمونها (فزعة)، حيث يخرجون لمساعدة من عليه الدور في ري مزروعاته، ثم يعودون إلى سمرهم وسوالفهم، ولم يكن هناك لا أجهزة راديو ولا تلفزيون لتنقل لهم حلول الشهر الكريم، بل كانوا يعتمدون على أنفسهم وسط الجبال التي قد تحتجب الشمس قبل موعدها، كانوا يحتاطون في ذلك بصعود شخص يومياً إلى قمة جبل لاستطلاع غروب الشمس، وأحياناً تصادفهم مشكلة أخرى في الشتاء، وهي أن الرؤية أحياناً تحجبها السحاب، وقد روى الأجداد في السابق أنه أحياناً تتبلد السماء بالغيوم السود، وعند آخر النهار يظن الناس أن موعد الإفطار قد حان، يتناولون فطورهم، ولكن بعد بضع دقائق تظهر الشمس من بين السحاب.

أم البدو فلا يختلف صيامهم عن الحضر، حيث كانوا عندما يكتمل شعبان يقولون (الليلة ضاوي رمضان)، وكانوا يرسلون من يثقون بذمتهم ودينهم ليستطلعوا هلال رمضان، وإذا أجمع ثلاثة منهم على رؤية الهلال (نقعوا ثلاث طلقات نارية إعلاناً بقدوم الشهر الفضيل، ويقولون: هلال هلك الله ربنا وربك الله)، ويصلون التراويح ليلتها، ويصبحون صائمين، وفي الصباح كل منهم يذهب إلى عمله، فمنهم من يرعى البوش أو الغنم، وكانت حياتهم بسيطة وسهلة، وكان التعرف إلى موعد الإفطار أسهل بالنسبة لهم، لعدم وجود جبال، وإن كانوا يحتاطون للأمر أيضاً، فإذا كانت هناك عراقيب تحيط بهم، فإنهم يرسلون من يعتلي أعلى كثيب من هذه الكثبان، خاصة في جهة الغرب، ليتأكد من غروب الشمس تماماً، ويعطي إشارة بذلك ليؤذن المؤذن، ويتشابه الأمر بين قرى الحير والبدو، فيما بعد صلاة العشاء والتراويح إلى السحور الذين يتعارفون عليه بسيرة الثريا، والشيء نفسه بالنسبة للنهار ويختلف الوضع بالنسبة لأهل الزراعة في القرى الريفية، حيث كانوا يروون زراعاتهم في المساء عقب صلاة التراويح بالتناوب، لتفادي حرارة الجو نهاراً، ويستمر ذلك إلى ما قبل السحور، وفي النهار كانوا يقومون ببقية أعمالهم من قبل صلاة الفجر إلى الضحى، وينامون

تحت النخيل، وعندما يكون الحر قاسياً عليهم يضطرون إلى تبليل قطعة قماش كبيرة، ويغطون بها أجسامهم لتخفيف الحرارة، ويبقون في زراعاتهم إلى ما بعد صلاة العصر، حيث يعودون إلى بيوتهم استعداداً لتناول طعام الإفطار في حظيرة الوالي أو كبير القرية بالنظام نفسه في قرى الحير، وكان الإفطار بمتابعة الشمس، فإن غابت أفطروا والفطور قد يكون جماعياً، كما في القرى، وكانوا يبلغون عن قدوم رمضان بين الفرجان (ينقعون بالتفقان)؛ أي يطلقون الطلقات النارية التي تسمع حتى لو كانت من مكان بعيد، وذلك لعدم وجود أي حواجز أو موانع تمنع ذلك، إضافة إلى صوت المدفع الذي كان يثور من أمام قلعة الحاكم، لكن الاختلاف الواضح كان في وجود مساجد ومطاوعة يأتون من خارج البلاد، يشاركون في إحياء ليالي رمضان، وكان أهالي الفريج يتجمعون في حظيرة والفريج يتكون من عشرة إلى عشرين بيتاً، وغالباً ما يكون السح مع الجامي وعليه السمن البلدي، والسحور كما في القرى كل يتسحر في بيته، وعلى ظهر النجم، فإذ ظهر قالوا إن السحور قد وجب، فيتسحرون ويرقدون حتى أذان الفجر، وبعد الصلاة كل يذهب إلى عمله إلا أنا، لفارق الذي يمكن أن يذكر بين المدن والقرى إمكانية معرفة قدوم رمضان في بلدان مجاورة عن طريق قادم أو أولئك الذين كانوا يملكون أجهزة راديو قديمة، يستمعون فيها إلى إذاعات الدول المجاورة، ومع ذلك كانوا لا يعترفون بهذا وكانوا يعتمدون قدوم هلال رمضان بالنظر بأعينهم، والعيد بالحساب، بل كانوا يرفضون الصيام تماماً، ما لم تكن الرؤية من عندهم وحدث في بعض الأحيان خاصة في السنين القريبة من قيام الاتحاد.

وعندما دخلت السيارات إلى الخدمة بين دبي والعين وأبوظبي وكانت تستغرق ساعات عدة، لكن كان القادم يصل إلى أهله في العين من دبي في اليوم نفسه، وقد حكى أحد الأشخاص في العين أنه عرف من خلال مذياع في دبي بحلول رمضان في دولة مجاورة، فنوى الصيام وركب السيارة مع الفجر، وحضر إلى أهله في العين قرب العصر تقريباً، فوجدهم في برزتهم يتناولون الفوالة والتمر والقهوة، فأخبرهم، فنهروه وطلبوا منه الإفطار؛ لأنهم لا يعترفون بقدوم رمضان إلا بـ«الشوف».

أما النساء في رمضان، فقد كن يعانين التعب والمشقة والمسؤوليات، وتتنوع بين الاهتمام بالأطفال والمنزل ورعاية الزوج، وتفقد العائلة والزيارات الاجتماعية ورعاية الحيوانات وحلبها وتنظيفها والقيام بأعمال الحياكة والسدو، كذلك القيام بمهام إعداد الطعام وتجهيزات الفطور والسحور وغيرها، فالنساء كن يطبخن الهريس والثريد والبلاليط واللقيمات والخبز المدقوق والخبيص والثريد والمدقوق والبثيثة وغيرها من الأطعمة الشعبية التي كانت تسد رمقهم، وتقوّي عظامهم حتى يستطيعوا القيام بأعمالهم اليومية.

كان الأطفال يحظون بكثير من التشجيع لصيام رمضان، وبالأخص الصوم لأول مرة، فيحضرونه لتناول الإفطار معهم، والإشادة به وبإنجازاته، وكان الأطفال يتسابقون على الصيام وتحمل الجوع والعطش والحرارة الشديدة في رمضان، ليتمكنوا من صوم الأيام والحصول على التكريم المشرّف، حيث يقوم الرجال في المجلس بالتحدث إلى الطفل والافتخار بصيامه، وحثه على أداء واجباته الدينية، كما يتم منحه كوباً من اللبن وحبة رطب عند أول صيام له يكمله؛ لكي يكون أول من يفطر من

الرجال عند الأذان إكراماً له، وهذا ما يترك الأثر الجميل في النفس طوال الحياة، ويحرص الرجال على اصطحاب أبنائهم إلى المجلس لتناول الإفطار وتدريبهم عملياً على العادات والتقاليد العربية الأصيلة في الضيافة وطرق التعامل مع الضيوف وصب القهوة، كما يحتك الطفل بكبار السن، ويتعلم منهم الكثير، حتى يساعده ذلك على تحمل اختبارات الحياة والصبر، فكان رمضان فرصة لتعليم الأطفال العادات والتقاليد، كما الألعاب الشعبية حاضرة لدى الأطفال في رمضان، وخاصة بعد صلاة التراويح، ومن أهمها (الهول)، وينقسم الأطفال إلى فريقين، ويقوم كل فريق بثبيت راية وسط الملعب، ويحاول كل فريق حماية رايته، فإذا ما لمسها أحد أعضاء الفريق الآخر يحقق الفوز المنشود، وكذلك يلعبون لعبة (عظيم لواح) التي تعتمد على عظمة من وسطها بحبل طويل ويلوح بها اللاعب ويقذفها إلى أعلى، ويتراكض اللاعبون للإمساك بها مرددين (عظيم لواح) وغيرها من الألعاب.

كما أن هناك آداباً معينة على المائدة في رمضان، فعندما يؤذن المؤذن للصلاة، يسمح فقط للصبية الصغار بشرب قليل من الماء، ولكن الجميع ينتظرون الشيخ أن يكون أول المفطرين، وبذلك يسمح للبقية بأن تفطر بشرب اللبن والقهوة وبقليل من الرطب، وعندما يقوم الشيخ للصلاة يقوم الجميع لذلك، فيصطفون لتأدية الصلاة خلفة أو خلف الإمام الذي يقومه الشيخ ثم يعود الجميع لمائدة الإفطار لاستكمال إفطارهم، ويتبادلون التهاني والتبريكات بحلول الشهر والدعوات الصالحات ثم ينصرفون إلى أسرهم، وعند صلاة العشاء يتجمعون مرة أخرى، حيث تجلب القهوة العربية من كل بيت والرطب وبعض الحلويات مثل العصيدة والبثيثة وغيرهما.

يقوم الناس بإحياء ليالي رمضان في المساجد، فكان المطوع يتلو القرآن الكريم، ويقرأ في السنة النبوية المطهرة والأحاديث الشريفة وسير الصحابة والتابعين، وقصص الزير سالم وعنترة بن شداد وغيرها.

وتعدّ ليلة النصف من رمضان من الليالي الحزينة في التراث المحلي، فهي أذان بانتصاف الشهر وقرب انقضائه فيحييها الناس بكثير من الحزن على فراق الشهر الفضيل، وذلك بالتزاور وصلة الأرحام والأذكار والتهجد، كما كان المسحراتي يتجول في الطرقات، ويدق بطبله وهو يردد بصوت مسموع:

اصحَ يا نايم
واذكر ربك الدايم

المسحراتي هو أحد مظاهر شهر رمضان في الإمارات قبل التطور الذي شهده المجتمع، حيث كان شريكاً رئيساً في مجالس أيام أول، سواء على مستوى الحضور الشخصي أو على مستوى تزامن عمله مع فترة إحياء تلك المجالس التي كانت تمتد أحياناً إلى فترة السحور، وكانوا يرددون المدائح النبوية والأناشيد الخاصة بفترة السحور، لقد كان المسحراتي من أهم طقوس رمضان وتفاصيله الجميلة الباقية في الذكرى فقد كان يضرب على طبلته ليصل إلى أوسع مجال في الفريج، وقد تغيرت الحال، وازداد حجم المدن، وغابت مهنته في زحمة الحياة، بعد قدوم الساعات والهواتف المتنقلة وغيرها، ليكون شهر رمضان فرصة للتغيير في كل الجوانب الحياتية، في حياتنا واهتماماتنا وزياراتنا وعلاقاتنا الإنسانية بالأهل والأرحام والجيران، ليكن رمضان فرصة لننهل من القراءة من سيرة سيدنا محمد، صلى الله وعليه وسلم، والتعرف إلى سيرة الأنبياء وقصص الأولين.

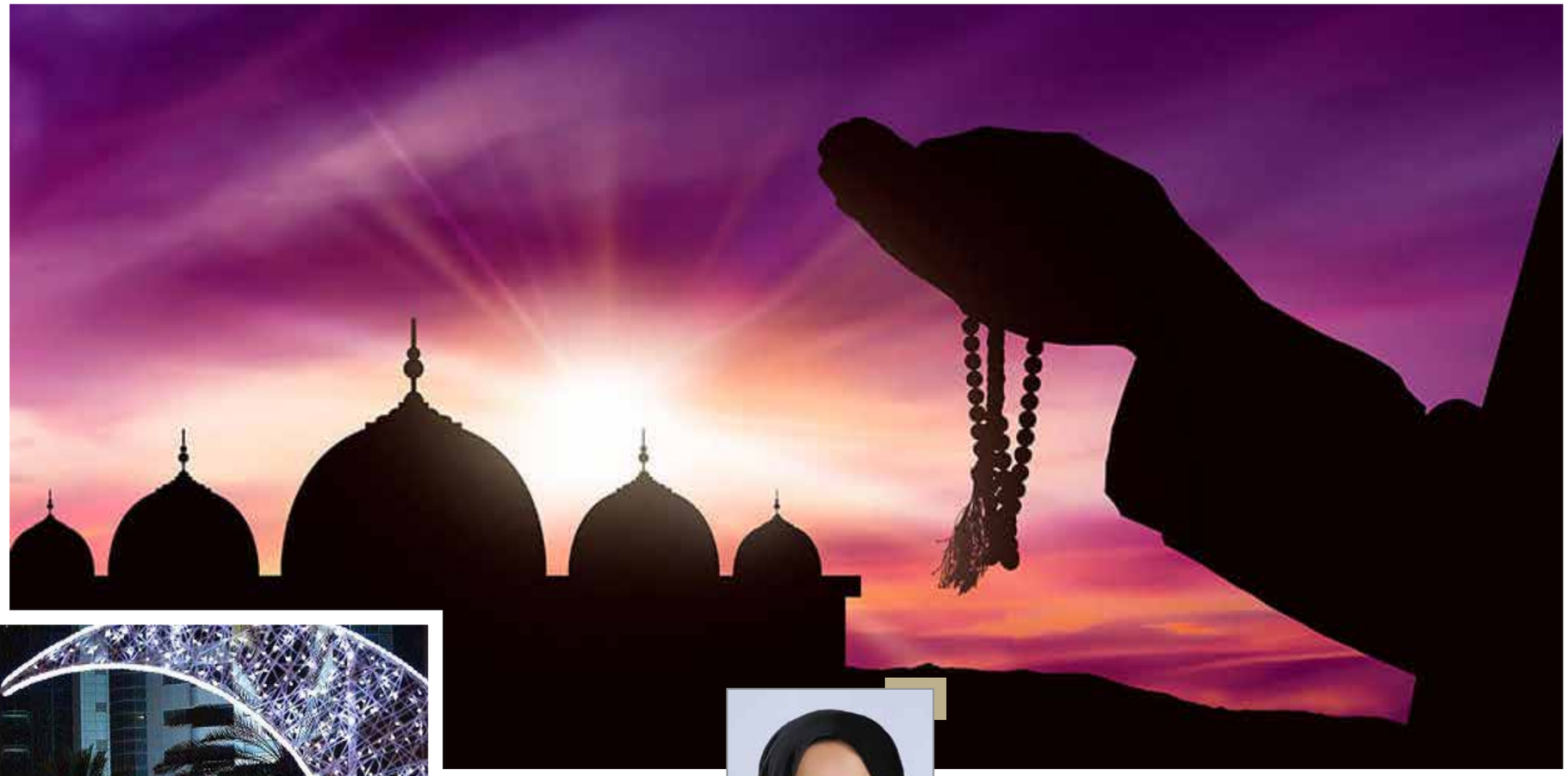

طقوس شهر رمضان من الذاكرة..

ما بين لمّة وعبادة

مريم سلطان المزروعي
كاتبة - الإمارات

إن العـادات والتقاليـد الإماراتيـة نابعـة مـن أصالـة أبنـاء دولـة الإمـارات وتعاونهـم وتآلفهـم، وهـذه العـادات نجدها في كثـير مـن العلاقـات الاجتماعيـة، فتناقلتها الأجيـال مـن جيـل إلى آخـر، متشـابهة ومتنوّعـة في جميـع أنحـاء الدولـة، مـع اختلافـات بسـيطة، لكـن المنبع يبقـى واحـداً، وتبقـى العـادات والتقاليـد والآداب محتفظـة برونقها وجمالها.

عندمـا يحـل شـهر رمضـان الفضيـل علينـا كل سـنة، تكـون لـه نكهـة خاصـة، فهـو ينبـض بالحيـاة بأيامـه التـي تتقـارب إلى الثلاثـين يومـاً أو تقـل بيـوم واحـد، تضـج فيـه الحركـة، وتنبـض بالحيـاة، وتفـرش السـجاد، وتتبـدل الـزوالي (مفردهـا زُوليَّـة وتعنـي السـجاد، الحصـير ومـا يُفـرَش على الأرض)، ويغسـل البيـت وينظـف، وتؤخـذ أغـراض المطبـخ؛ مـن أوانٍ وأكـواب، وتتزيـن البيـوت بزينـة شـهر رمضـان مـن الفوانيـس الدافئـة، يتفاعـل معهـا الأطفـال والكبـار، شـهر رمضـان الفضيـل لـه طقـوس خاصـة، فأبوابـه تفتـح للجميـع إلى مـا بعـد تنـاول السـحور، إلّا أن هـذه العـادة قـد قلّـت كثـيراً في الوقـت الحـالي عـن المـاضي، فالمجالـس تتبـارك بكـثرة الحضـور وترابطهـم، وتآلفهـم، والخيـام الرمضانيـة تنصـب لعابـري السـبيل والـزوّار مـن أجـل تنـاول وجبـة الفطـور وقـراءة القـرآن الكريـم، ويرحـب بقـدوم شـهر رمضـان بتباشـير:

مرحبا مرحبا يا رمضان شهر الدين والغفران
من صـامه بلا نيـّه صيامه يندري سية
ومن صامه ولا صلى طـاح النـار يتقـلى

التقيت الوالد سلطان سعيد المزروعي من مدينة أبوظبي، الذي ما أن فتحت معه ذكريات الماضي حتى أخذت الذكريات تمر أمام عينيه، فأصبح يسردها بشوق ولهفة، فشعرت بما يشعر به، يقول: «الحياة قديماً كانت مختلفة، الجار يشعر بجاره، لا يأكل لقمة ولا يضعها في فمه قبل فم جاره، والمناسبات الدينية لها قدسية خاصة، وطقوس معيّنة، نشعر بروحانية شهر رمضان الكريم، وذكر الله، ففي مدينة أبوظبي كان يقام المالد، وأذكر عند قبيلة الخوري منهم أحمد درويش خوري، وكذلك بعض الأسر من قبيلة الرميثات والقبيسات، وكان المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، من أكثر الناس حباً لذكر الله وذكر النبي محمد، عليه الصلاة والسلام، كان للنساء البدويات قديماً دور كبير ومتعدد، فهي تقوم بواجباتها وأعمالها ومسؤولياتها، تستيقظ في الصباح الباكر، وتخم؛ أي تنظف المنزل، وتجلب الماء، وتخيط ملابس زوجها وأبنائها، وقبل صلاة المغرب بفترة تبدأ بإعداد الطعام من خبز رقاق، والودام (الوجبة الرئيسة سواء لحم أو دجاج أو سمك)، وتجهز الجامي، وكنا نشرب المرقة، لم نكن نعرف ما الشوربة، وأعمالها لا تقف هنا، بل تقوم بجمع الحطب، ورعي البوش (الإبل)، وحلب الغنم، وإعداد القهوة، كما كنَّ يستعنّ بجاراتهنّ في كل شيء، وعلى الرغم من كل ذلك فهي تكون صائمة لا تتذمر ولا تشتكي، والرجال يكدون ويسعون بحثاً عن الرزق، لكنهم يجتمعون قبل أذان المغرب بدقائق، وكنا كل يوم نجتمع عند واحد منا، وبعدها نتسامر ونشرب القهوة، والأطفال منذ صغرهم نبدأ بتعليمهم على الصيام بالتدريج، حتى يتعودوا صيام شهر رمضان الفضيل، ووقت السحور لابد أن نشرب حليب الإبل، لما له من فوائد كثيرة، فهو يمد جسم الإنسان بالطاقة طوال اليوم، ويقلل من العطش». اللقاءات كثيرة، والحوارات جميلة، والحديث مع كبار المواطنين له نكهة خاصة، لا يشعر بها إلا الذي افتقدها، جدتي

شمسة بنت حميد المزروعي، طيّب الله ثراها، كانت كثيراً ما تحدثني عن العديد من القصص والحكايات التي كان لها التأثير الكبير في حياتي، ومن بين الذكريات حكايات شهر رمضان الكريم، تقول: «كنا لا نمتلك الكثير من المعيشة والمؤن، كيس أو كيسين من الأرز أو الذرة أو الدخن، نصنع الخبز منه، ونفطر مع الجيران، ونتشارك في كل شيء، جميعاً نتعاون في إعداد وجبة الإفطار، وكنا نذبح الذبيحة، وتقسّم إلى أجزاء، وتتوزع على الكل بالتساوي، كما كنا لا نرمي العظام، بل نصنع منها المرقة التي فيها كثير من الفوائد، منها أنها تقوي عظامنا، وتروي عروقنا بعد صيام طويل، خاصة في فترات الصيف والشمس الحارقة التي كانت تسلخ أجسامنا وتحرقها من شدتها، فكنا نبلل ملابسنا حتى نخفف من شدة الحرارة، ولكن هذا كان لا يمنعنا من مواصلة الصيام، شهر رمضان شهر الرحمة والكرم والتعاطف، كما أن رمضان كان بالشوف، والعيد بالحساب». ويذكر السيد حويرب المنهالي في أحد لقاءاته: «إن شهر رمضان من الأشهر التي لها قدسية خاصة، فقد كنا نتبع الهلال حتى نتيقن من وجوده، وإذا رأى أحدنا الهلال أطلق طلقات عدة في الهواء (ينقعون بالتفق) حتى نسمع الصوت، لكن المشكلة إذا كانت هناك ظروف جوية، زادت من صعوبة رؤية الهلال مثل تأثيرات الجو في السماء، سواء ملبدة بالغيوم أو الرطوبة، وبهذا أُعلن بداية شهر رمضان الكريم، النساء كنا يقمن بإعداد طعام الإفطار، ونحن نقوم بأعمالنا الخاصة، من رعي واهتمام بالهوش والبوش (الأغنام والإبل)، فقد كان حليب الإبل ولحومها من أهم المواد الغذائية التي توضع على مائدة الفطور في رمضان، وهما عنصران مهمان وأساسيان، فنحن نفطر بحليب الإبل مع التمر، لما له من فائدة كبيرة للصائم، وهذه تعتبر وجبة أساسية لدى البدوي، وبعدها نصلي صلاة المغرب، ونرجع نكمل إفطارنا، وبعدها ننصرف إلى صلاة التراويح، كما كنا نجتمع في مجلس واحد، ويكون ملتقى اجتماعياً غير عادي، تجمعه أجواء الصحبة والصداقة، وكذلك النساء، فالتعاون والتكاتف موجود إلى اليوم، لكن الاختلاف أصبح هناك تنوع في

المأكولات والمشروبات، فأصبحنا لا نعرف ماذا نريد أن نأكل من كثرة الأصناف واختلاف ألوانها، لكن حليب الإبل هو الأساس والأطباق الشعبية، وتجمُّع الأهل سر جمال ورونق رمضان الإمارات». وقد ذكر شهر رمضان في العديد من المواضع في الشعر، وتغنّى به الشعراء، يقول صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي:

أهدي سلامي لكل صايم — مبروك شهر هل شريف
لو كان حظ السعد لايم — لكانت الدنيا على الكيف

ويقول سالم الجمري في قصيدة «صافي النحر»:

يشبه على البان عوده — ميّال بين الشجر
بالطيب تنفح ردونه — من فايجات العطر
لو كان يسم بوصله — باصومله شهر

الدراما

الفولكلورية الكويتية في الثمانينيات

ذاكرة رمضانية أسست مخيالاً وقصصاً

لولوة المنصوري
كاتبة - الإمارات

إن الذاكرة التي تسافر بي نحو عوالمي الأولى مع رمضان، لا تمتد بعيداً أكثر من حقبة الثمانينيات، فكل الذواكر الشعبية الأخرى تنعتق من وصال مروي شفوي بيني وبين الأجداد والآباء، أو مما قرأت عنه وبحثتُ فيه أو شاهدته في تمثيل تلفزيوني يحيي ذاكرة رمضان في الماضي، وعبقه السحري العظيم؛ أي أن الذاكرة الشعبية لرمضان هي ذاكرة مستقاة بالنسبة لي، ذاكرتهم التي شربتُ من رافدها العذب، ذلك لأننا - نحن أبناء الثمانينيات - نملك ذاكرة أخرى مختلفة تقريباً، ومتجزئة عن ذاكرتهم.

أعبر الآن في ذاكرتي الرمضانية، وأندهش بأننا هكذا فجأة صارت لنا نحن أيضاً أبناء الحداثة ذاكرتنا الخاصة، فقد مرّ أكثر من أربعين عاماً منذ الثمانينيات حتى الآن، وهي فترة كافية لتتشكّل لنا ذاكرة خاصة جديدة.

لم أعش زمنهم الرمضاني الذي تأصلت فيه عادات وتقاليد حميمة متجذرة في صورة المسحراتي أو مدافع الإفطار أو الزيارات المسائية أو القرقيعان وغيرها من الذكريات الشعبية. نحن من جيل استوعب منذ بدايات حبوه على الأرض مظاهر الحداثة والبيوت الإسمنتية والدراما التلفزيونية الرمضانية، والبدء بالاستعانة بالمطاعم والكثير من الإقبال على التحضر والتباعد والتكوين النسيجي الحداثي الجديد، وهذا أيضاً شأن مختلف البلدان العربية.

لكل زمن روح، وجوهر تكوين خاص به، وحين يقبل شهر رمضان تعود بي الذكريات إلى كثير من الرمزيات الحميمة التي عشتها في طفولتي، مع العائلة والجدات ورفيقات الفريج والمساجد، لكن الأبرز منها كان الوعي الجديد في إقبال الناس على الدراما الكويتية في الثمانينيات التي شكّلت ركيزة تأسيس الوعي الجمعي في تلك الفترة، فكانت رمزاً فنياً تنموياً حسياً، يثري مساحة المعرفة والفضول، حيث كنا نتسارع نحو منهل القصص والحكايات الشعبية العالمية المقدمة بشكل قالب درامي فولكلوري شائق، اشترك في أدائه نخبة جميلة وعريقة من فناني الكويت. لقد مثلت المسلسلات الكويتية الفولكلورية الرمضانية في حقبة الثمانينيات غذاءً للسرد والأخيلة، ومنبعاً للقصص والتشويق والمثيولوجيا، كان في مجملها يلخص مؤلفات سردية شعبية عالمية حملت في طياتها مسارات التوتر والأحداث الضدية، فطرحت فكرة الخير والقيم النبيلة مقابل طغيان الشر والظلم والمفاسد بأسلوب درامي مقنع وعفوي وممتع وحقيقي.

في تلك الفترة لم نكن نعي تماماً فكرة الرمزية والميتافور في حكايا المقولبة على شكل درامي ممتع، لكن الآن ما إن نستحضرها حتى تتكشّف لنا أبعاد ذكية في الإسقاطات والتناص مع حكايات الموروث الديني والتصادم مع بعض التقاليد الزائفة التي عبرت الزمن في الوعي الجمعي على أنها مُسلمات وأفكار مقدسة.

وعبر هذه المساحة أحاول أن أستعرض باختزال للقارئ، وأستذكر معه أبرز عناوين وقصص تلك المسلسلات الفولكلورية العظيمة.

مسلسل مدينة الرياح

كتبه: طارق عثمان

وأخرجه: عبد الرحمن الشايجي

وعُرض عام 1988م

بطولة: خالد العبيد، هدى حسين، عبد الرحمن العقل، أحمد الصالح.

وتدور قصة المسلسل حول «عجاج» الذي لا يعرف من هم أهله، ولا يعرف سوى الشخص الذي قام بتربيته، وقد أخبره بأنه ابن رجل عظيم، وأوصاه بالذهاب إلى مدينة الرياح للبحث عن أهله.

وفي الوقت ذاته يكون هناك شخص يعرف سرّ عجاج، وهو «الحيزبون الأكبر» الشرير الذي يريد نشر الدمار في كل مكان، فيكلف أبناءه «علقم» و«حيزبونة» لمحاولة تغيير عجاج ليتحول إلى شخص كاذب ومخادع،

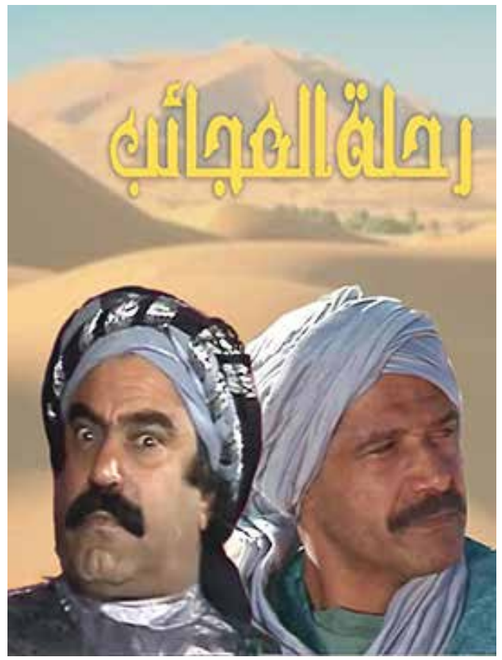

ويزرعون الحقد بداخله، وذلك لأن الحيزبون الأكبر لديه نبوءة بأنه يستطيع أن ينشر الدمار في العالم عن طريق حاكم مدينة الرياح.

وكون عجاج هو بالأساس ابن الحاكم من زوجته الأولى، وبسبب جريمة كبرى قام بها الحيزبون الأكبر مع زوجة حاكم المدينة الثانية «كهرمانة»، استطاعا أن يضران والدة عجاج ويجعلان الحاكم يخرجها من المدينة خوفاً عليها وعلى ابنها.

وكون علقم وحيزبونة قاما بإغلاق كل السبل أمام عجاج كي يستطيع أن يتواصل مع الخير الذي بداخله، وبعد هجوم قام به عجاج وجماعة الحيزبون الأكبر استطاعا السيطرة على مدينة الرياح، وتنصيب عجاج حاكماً لها، ووقتها يأتي دور الحيزبون الذي أراد مساعدة عجاج على تولي حكم مدينة الرياح أن ينشر الدمار بالعالم، إلا أن الخير في داخل عجاج يأبى ذلك، ويجعله يؤجل هذه الأمور. وفي النهاية ينكشف لعجاج السر الحقيقي الذي أخبرته به «أم بهلول» التي ربته، وتعرف الحقيقة كاملة، حيث أخبرته أن الحيزبون الأكبر هو السبب في وفاة أمه. فيتعاون عجاج مع أخيه من أبيه «نعمان»، والخيرين من أهل المدينة من أجل الخلاص من الحيزبون الأكبر وأبنائه.

مسلسل الغرباء

تم عرضه في 1984م.

سيناريو وحوار: طارق عثمان.

إخراج: حمدي فريد

بطولة: غانم الصالح، ميعاد عواد، عبد الرحمن العقل، حياة الفهد، أحمد الصالح.

تدور أحداث القصة حول مدينة العواصف وغزو كامل الأوصاف ومساعده جاسر وجنودهم لهذه المدينة، ويتسبب هذا الغزو في انتشار الظلم والفساد وحالة من الخوف والذعر بين أبناء المدينة، يقود كلاً من الفارس الملثم ومرجان بوضع الخطط اللازمة لتحرير مدينتهم من الحاكم الظالم.

مسلسل رحلة العجائب

مسلسل تلفزيوني أنتج عام 1990، أخرجه: عبد الأمير مطر، كتبه: طارق عثمان، وقام ببطولته: خالد العبيد، وجاسم النبهان، باسمة حمادة، هدى حمادة.

تدور أحداث العمل حول والي «مدينة السلام» وابنيه «شهاب» و«سحاب»، وتبدأ الأحداث من رغبة زوجة الوالي «وداد»، وهي والدة ابن الوالي الأصغر «سحاب»، بأن يكون ابنها هو خليفة أبيه بحكم الولاية بدلاً من أخيه الأكبر «شهاب»، فتطلب ذلك من الوالي، خصوصاً أنها تزوجته بعد أن أنقذته من الموت.

فقرر الزواج منها، لكن كان لديها ثلاثة طلبات ينفذها لها مهما كانت، وقد نفذ لها طلبين بوقتها، وهي إخراج والدها من السجن وتعيين أخيها «نعمان» قائداً لشرطة المدينة، إلا أن الوالي رفض هذا الطلب بشدة، خصوصاً كونه يعرف أن «وداد» لا تحب «شهاب»، ولتحقيق مرادها وبتخطيط من أخيها «نعمان» تقرر الطلب من الوالي بأن يبعث ابنه «شهاب» في رحلة لسنتين لتلقي العلم. وذلك كي يكتسب خبرة تؤهله لتولي الحكم من خلال ما يكتسبه من خبرات. وتخبر الوالي بأن هذا هو طلبها الأخير، ويجب عليه أن ينفذه، وعلى الرغم من عدم اقتناع الوالي بهذا الطلب، ومعرفته بأن «وداد» تريد التخلص من «شهاب» بأي طريقة كي تفتح المجال أمام ابنها «سحاب» للوصول إلى الحكم، إلا أن الوزير يقنع الوالي بهذه الفكرة، وذلك لما قد يحققه «شهاب» من الرحلة من فوائد، فيوافق الوالي على مضض.

مسلسل الإسكافي

من إنتاج الكويت عام: 1998م.

القصة من تأليف الكاتب العراقي زهير الدجيلي

بطولة: عبد الحسين عبد الرضا، سعاد عبد الله، غانم الصالح، أحمد الجوهر، جاسم النبهان.

وهي قصة معروف الإسكافي الذي قام بدوره الفنان (عبدالحسين عبدالرضا). وشبيه الوالي أبو شجاع، يجد نفسه فجأة مكان الوالي، بعد أن قام الوزير ومساعدوه بالتخلص من أبي شجاع واستخدام الشبه بينهما كي يحكموا المدينة باسمه.

تدور الأحداث حول والي عدل ستان (أبو شجاع)، الوالي العادل الذي يتولى أمور ولاية عاشت في ظل عدله وكرم أخلاقه زمناً طويلاً، وكان دوماً ينشد العدل والرحمة بين رعيته وأبناء ولايته، لكن زمرة الفساد المحيطة به، والتي ظلت تطمح إلى الاستيلاء على

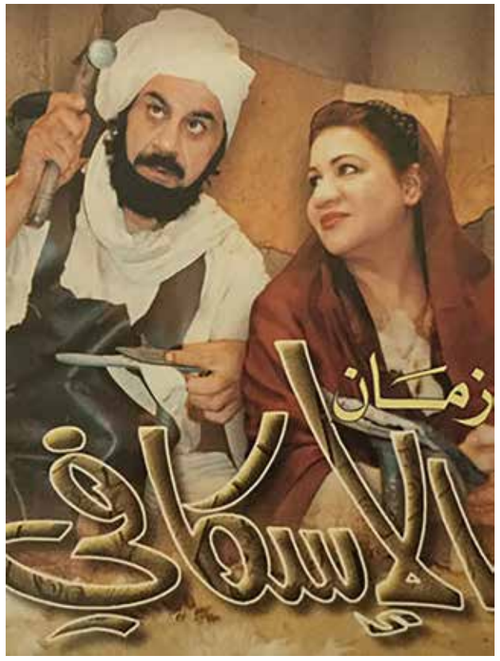

أمور الولاية، وتعد للكسب غير المشروع تضع خطة لإبعاد الوالي ووزيره الشاب (بدران) الذي هو بالأصل ولده عن الولاية، ويتم ذلك بخطة لا تخطر على بال أحد لإبعاد الوالي وإحلال شبيه له في الحكم، حيث تجد في الإسكافي (معروف) وهو شبيه الوالي في الشكل الشخص المناسب ليحل محل الوالي الحقيقي، وذلك كي تخدع الناس الذين أحبوا الوالي وأطاعوه، وكي تبعد الشبهات عنها. وينخدع الناس بالوالي المزيف، ويحسبونه إنه قد تبدل وتغير عليهم حين يواجهون إجراءات وأعمالاً لم يعهدوها منه من قبل. وبوساطة معروف الإسكافي وزوجته (دليلة) التي صعدت من وسط وضيع إلى وسط رفيع، تتمكن الزمرة الفاسدة من تحقيق أغراضها بسهولة، إلا من مقاومة يقوم بها أشخاص من أهل الولاية يكشفون الخداع والتحايل، ويعملون على إحقاق الحق، وإرجاع الوالي الحقيقي ووزيره إلى الولاية. ويحصل الوالي أبو شجاع ووزيره بدران على دعم من حاكم جزيرة لجؤوا إليها، فيتمكنا من العودة إلى الولاية بوسائل خفية ومحكمة، وبمساعدة من أنصارهما يتمكنون من إلقاء القبض على الزمرة الفاسدة المحتالة، وكشف الحقيقة للناس.

الذاكرة الشعبية
في شهر رمضان

د. فهد حسين
أكاديمي وناقد - البحرين

كلما اقترب شهر رمضان المبارك تبدأ تلك الذكريات التي تتوارثها الأجيال عبر مجموعة من المكونات الرئيسة لهذا الشهر، حيث التوزيع اللاإرادي يحدث بصورة طبيعية قبيل هذا الشهر وفي أثنائه، وبمجرد انتهاء الشهر تنتهي تلك الذكريات، أو لنقل تعود إلى صندوقها منتظرة عاماً هجرياً كاملاً لتخرج مرة أخرى، وهكذا دواليك، على الرغم أن الذاكرة الفردية والذاكرة الجمعية تمتلك الكثير من الذكريات في هذا الشهر، تلك التي توزعت وتنوعت بين العبادات الدينية والممارسات الاجتماعية والتربوية، فضلاً عن طبيعة الأطعمة والمأكولات والمشروبات التي تحمل صفات ومذاقاً يختلف عن الأشهر الأخرى.

بمعنى، حينما يقترب هذا الشهر تبدأ علامات البهجة الآخذة في التوغل نحو التخطيط لما ستقوم به هذه الأسرة أو تلك من أعمال يومية منذ الصباح حتى الفجر، كما تفكر في كيفية تقديم المساعدات العينية والمادية وغيرهما للمحتاجين، ولكن في الوقت نفسه، فإن ربات البيوت لا ينسين أبداً العادة التي تشربتها الذاكرة الجمعية في السنوات الأخيرة، وباتت من المهام الضرورية التي تقوم بها سيدة المنزل، وهي ما يطلق عليها في المجتمع الخليجي بـ«النقصة»، إذ تفكر في ما ستقدم إلى صديقاتها وأهلها وجيرانها من مواد وهدايا تمثل جزءاً من طبيعة هذه الشهر الذي لا نسميه إلا بالشهر الكريم. بل إن استقبال هذا الشهر الفضيل الذي يعلوه الفرح والبهجة تختلف من مكان لآخر، ومن جيل لجيل، ومع مراعاة الفصول بين الصيف والشتاء، حيث احتفالات مصر مثلاً لاستقبال شهر رمضان واستعداد الناس له، تختلف عما في المغرب العربي، وعما في الخليج، وعما في الدول الإسلامية الأخرى، بل لا أستبعد أن احتفالات الاستقبال في الأرياف تختلف عنها في المدن، وعنهما في المناطق الصحراوية أو في السهول، وهكذا، فكل هذا التباين في طرائق استقبال رمضان يصب نهاية الأمر باتجاه مصب السعادة والفرح وغرس الاطمئنان في نفوس جميع المسلمين، إذ تتمظهر في هذا الشهر، الأكلات الشعبية التي كانت مقتصرة على الشهر نفسه، ثم أصبح بعضها متداولاً طوال

العام، وتحديداً في المطاعم الشعبية الخليجية، مثل اللقيمات والبلاليط والهريس، كما هناك أغاني الأطفال التي يصدحون بها بعد الإفطار أو عندما يمارسون اللعب خارج المنازل، أو في الأندية الرياضية القريبة من مناطق سكنهم، والأهم عندهم ليلة النصف من رمضان التي تمثل لهم محطة اجتماعية ونفسية حينما يقومون بالأهازيج والغناء وهم يطوفون البيوت، ويطرقون الأبواب لأخذ بعض المكسرات والمأكولات الخفيفة من أهالي هذه المنازل.

وبالإضافة إلى كل هذا، فحضور المسلسلات التي أطلق عليها بالبرامج الرمضانية، لا شك متنوعة بين المفيد وغير المفيد، إذ هناك العديد من الأسر والأفراد التي تقضي أوقاتاً طويلة تعد بالساعات لمشاهدة المسلسلات ذات المستويات الهابطة في كثير منها، لكن علينا ألا نبخس حق الأعمال الدرامية التي تناقش بعض قضايا المجتمع، أو تلك التي تعود بنا إلى ذاكرة الزمن الجميل، وهنا أذكر ما كان يقدم تلفزيون البحرين من أعمال تراثية برؤية فنية، مثل: مسلسل (فرجان أول).

إن قراءة القرآن في شهر رمضان من العادات التي تشكل محطة مهمة للمسلمين، سواء كانت القراءة محصورة بين أفراد العائلة الواحدة أو بشكل مفرد، أم كانت قراءة القرآن في المجالس التي يرتادها الناس مساء بعد أداء الصلاة والتعبد، فضلاً عن المجالس الرمضانية الأخرى التي تشكلت فقط للزيارات الاجتماعية؛ أي أن كل ما نقوم به، وما كان هو في دائرة التنوع الثقافي الاجتماعي الذي يزيد كل عام بشيء من التحولات والتغييرات والإضافات، ليكون عبر سنوات ضمن الموروثات التي تتوارثها الأجيال، وهذا ليس غريباً طالما العالم بات قرية كونية متصلة أطرافها ببعضها بعضاً.

وهنا لو حاولنا أن نعد ما لهذا الشهر من جمال روحي واجتماعي، وإعادة لذاكرة المجتمع الجمعية، لن ننتهي، حيث شهر رمضان يحمل عنوان المدرسة التربوية الجامعة التي تعلمنا المزيد من القيم والمبادئ الإنسانية المرتبطة بالعطاء والتكافل والتواصل والتكامل والتسامح والألفة والرحمة، وصلة الأرحام، والتواد بين البشر الذين يعيشون في مجتمع واحد، لكن مع تطور الزمن وتغيير العديد من الاستعدادات لرمضان روحياً واجتماعياً، فإننا نستقبل شهر رمضان ليس في ثوبه الاجتماعي فقط، بل في تعدد ألبسته التي تشكل منعطفاً مهماً في حياتنا وسلوكنا وممارساتنا طوال الشهر، بمعنى إذا كنا ولا نزال نردد قبل نهاية الشهر الفضيل: يا رب بلغنا شهرك الفضيل، وأتمم علينا نعمه، فعلنا أن نفكر ملياً بكيفية التعامل مع متطلبات هذا الشهر، وما ينبغي القيام به والامتناع عنه، فإن الله سبحانه وتعالى لم يقل لنا اسرفوا في عاداتكم الغذائية والتموينية، ولا تبالغوا في العطايا والهدايا التي لا شك تؤثر في دخل الأسرة بصورة أو بأخرى، بمعنى ألا ينبغي التفكير ملياً بمقارنة تلك العادات التي كنا نتوارثها ونمارسها ومدى صدق مشاعرنا وعلاقاتنا في مقابل ما نمارسه من عادات جديدة تهتم بالمظهر الشكلي والصرف المادي المبالغ فيه؟ أي الوقوف على القيم الروحية والاجتماعية، وليس الممارسات التي تسهم في البذخ والإسراف!

لا شك، في أن هناك عادات وتقاليد توارثناها، ولها وقع إيجابي في حياتنا إلى يومنا هذا، حتى بعد رمضان، وهناك عادات وممارسات سلبية متنوعة وكثيرة، بل تزيد كل عام وبين لحظة وأخرى، وتتمثل هذه في طبيعة الوجبات اليومية عند الإفطار والسحور، حيث التسابق في تنوع الأطعمة التي تعد كل يوم، وتنتهي بحاوية النفايات، حتى أصبحت منطقة الخليج من أكثر الدول التي ترمي فضلات الأطعمة في هذه الحاويات، فهل نحاول إعادة تركيب علاقتنا بما يستجد ممارسات تتعلق بالأكل والشرب والضيافة وغيرها؟

أما حضور الثورة المعلوماتية والتكنولوجية، فقد فلها دور سلبي مع كثرة إسهاماتها الإيجابية، وتتمثل السلبيات في إعطاء الأفراد مساحات كبيرة من الحرية لدخول هذا العالم الذي يبعده طوال هذا الشهر عن الممارسات الفعلية المرتبطة بالشهر الفضيل، إذ ينفرد الفرد بنفسه في غرفته للتصفح والمتابعة والمحادثة، وترك بعض الشعائر وعادات الشهر، ما يؤثر سلباً مع الوقت في تقليص الارتباط بها. كما أن ضمور دور المسحراتي الذي كنا ننتظره في تلك الأزمنة، وهو يضرب على الأبواب ويطرقها معلناً وقت السحور، لكن هذه العادة لم تعد منتشرة بحكم التمدن والمدنية في المجتمع، وبحكم التطور الذي جلب وسائل أخرى تغني عن دور المسحراتي، كذلك السهر الذي يستمر عند معظم الأسر والعائلات حتى وقت السحور، فضلاً عن العديد من الناس لم يعد السحور يشغلها.

شهر رمضان..
لكل ممارسة حكاية

أ.د. مصطفى جاد
عميد المعهد العالي للفنون
الشعبية بالقاهرة - سابقاً

في الوجدان الشعبي العربي: شهر رمضان عشر مرقات، وعشر حلقات، وعشر خلجات.. أي أن العشرة أيام الأولى تشتهر بتناول اللحوم والطيور التي تعبر عنها بالمرقات، والعشرة أيام الثانية يبدأ فيها الاهتمام بإعداد كعك العيد الذي يتخذ شكل الحلقات المنقوشة، والعشرة الأخيرة يتحول الاهتمام إلى شراء ملابس العيد الجديدة أو (الخلجات).

في الوجدان الشعبي العربي؛ شهر رمضان عشر مرقات، وعشر حلقات، وعشر خلجات؛ أي أن العشرة أيام الأولى تشتهر بتناول اللحوم والطيور التي تعبر عنها بالمرقات، والعشرة أيام الثانية يبدأ فيها الاهتمام بإعداد كعك العيد الذي يتخذ شكل الحلقات المنقوشة، والعشرة الأخيرة يتحول الاهتمام إلى شراء ملابس العيد الجديدة أو (الخلجات).

وفي الثقافة الشعبية الرمضانية كثير من الروايات الشعبية، والتاريخية.. تعالوا نتتبع فولكلور رمضان منذ ساعاته الأولى حتى قدوم عيد الفطر.. وسنبدأ بتنسم رؤية هلال رمضان، وما يصحبها من مظاهر احتفالية، وهي يوم التاسع والعشرين من شهر شعبان، كما تعرف بيوم الشك؛ أي التشكك فيما إذا كان اليوم هو الأخير من شعبان أم الأول من رمضان. وفي لبنان تعرف بـ«سِيبِانِة رمضان» أو «سيران رمضان»، بمعنى تبيان حقيقة حلول شهر الصوم، إلا أن أهالي بيروت حرّفوا الكلمة مع مرور الزمن إلى «سيبانة»، وهو احتفال تخرج فيه العائلات للأكل والاحتفال قبل صوم رمضان. وفي تونس تعرف ليلة الرؤية بـ«يوم القَرْش»، ويتم فيه الاحتفال بليلة رمضان بالتسامر تحت ضوء القمر، وتبادل أحاديث الأبناء والأجداد، ويتخلله تقديم ولائم، وتوزيع المشموم والحناء ودهن العود. وترصد الدراسات الميدانية الكثير من الممارسات المرتبطة ببداية استقبال شهر رمضان، مثل تزيين الشوارع والحارات بالقصاقيص الملونة التي يشترك الأطفال في إعدادها، ويتنافسون في تشكيلها، ولضمها في خيوط، ليظللوا بها الأماكن من خلال ربطها بين البلكونات والشبابيك المتقابلة، ويقوم الجيران بدعم هذه الممارسة مادياً ومعنوياً بتيسير هذه المهمة.. وقد يتفنن بعض الأطفال في إعداد شكل مسجد من الجريد وتحويطه بالأوراق الملونة أيضاً، ليتوسطه مصباح صغير يضفي حالة من الجمال على الزينة.. كما يصمم بعضهم أشكالاً من الفوانيس الملونة. ويدخل في إطار الاحتفال بتزيين الشوارع والحارات انتشار المصابيح الملونة التي تصاحب الزينة والفانوس والمسجد المعلق، ليعيش الجميع في حالة رمضانية لا تأتي إلا في هذا الشهر. وممارسة تزيين الأماكن في رمضان نجدها في جميع البيئات بتنوعات متعددة، بداية من الطبقة الدنيا حتى الطبقات العليا، التي تحرص على تزيين بيئاتها بتلك العناصر.

ولايزال الطفل العربي هو أيقونة الاحتفال بشهر رمضان، حيث تظهر بعض الممارسات كاختبار الطفل

الصائم من غير الصائم، فيقوم أحدهم بقرص ظهر إصبع السبابة لزميله، فإذا ظل موضع القرص قائماً، كان ذلك دليلاً على صيامه والعكس. وهو بدايات إعلان موقف الجماعة الشعبية تجاه المفطر في رمضان.. والذي يصاحبه بعض الأغاني والأهازيج.

وفي الخليج العربي، تُعرف احتفالية «الكركاعون»، أو «كرنكعوه»، أو «جرجيعان»، أو «قرقاعون»، أو «القَرَنْقَشوة».. وهي احتفالية تقام في ليلة النصف من رمضان، حيث يرتدي الأطفال الملابس التقليدية مثل «الدراعة»، ويذهبون للأقارب والجيران يرددون بعض الأهازيج. لجمع «القرقيعان»، وهو عبارة عن خليط من المكسرات في أكياس معلقة في رقابهم، حيث يعطونهم الجيران هذه الحلوى أو مبالغ نقدية. ويُطلق عليه اسم «ليلة الحوامة» في بعض المناطق بالسعودية، ويرتبط بطلب عيدية عيد الفطر. وفي العراق احتفالية «ماجينا»، التي يخرج فيها الأطفال - بعد الإفطار - مصطحبين الشموع، ويجمعون من كل بيت بعض النقود والحلوى. وفي تونس تعرف عادة «الموسِم»، وهي هدايا يقدّمها الخطيب إلى خطيبته ليلة السابع والعشرين من رمضان كعربون محبة، وتوثيق للصلة، ووشائج القرابة.

كما يرتبط الشهر الكريم ببعض العناصر الرئيسة التي تميزه عن بقية العام، مثل «مدفع الإفطار»، وهو مدفع حربي يُستخدم لتنبيه الصائمين لوقت الإفطار، وقد دارت حوله كثير من الحكايات في مصر والشام، منها أنه كان يتم تجريبه فانطلق مصادفة وقت الإفطار، فاعتقد المصريون أن الحاكم المملوكي (وفي رواية أخرى محمد علي باشا، وفي رواية ثالثة الخديوي إسماعيل) يقوم بالتنبيه بموعد الإفطار بهذه الطريقة، ولما بلغ الحاكم ذلك، أمر بإطلاقه وقت الإفطار. كما يُطلق على مدفع رمضان اسم «الطوب»، وهو المدفع القديم الذي كان يُحشى بالخرق والبارود من الأمام.

أما عنصر الطعام في رمضان، فقد تميز ببعض الأكلات التي اشتهرت به، وفي مقدمتها «الكنافة»، و«القطايف»، و«التمر»، ولكل منها طرائق تقليدية، سواء في الإعداد، أو في مواقيت التناول، حيث تنتشر الأفران التقليدية بالقاهرة - على سبيل المثال - لعمل الكنافة وبيعها مباشرة للجمهور.. وكأي عنصر شعبي يدور حوله الروايات، نُسجت حول «الكنافة» روايات عدة، منها شكوى معاوية بن أبي سفيان إلى طبيبه بشعوره بالجوع أثناء الصيام - وفي رواية أخرى في الفترة بين الإفطار والسحور - ليتوصل الطبيب مع طهاة قصر معاوية إلى أكلة الكنافة، التي قدمها له على الصاج، ثم انتشرت بعد ذلك من قصر الملك بدمشق إلى عامة الناس في العصر العباسي. وتشير روايات أخرى إلى ارتباط الكنافة بالفاطميين في مصر الذين استقبلوا المعز لدين الله الفاطمي بكثير من الهدايا، ومن بينها الكنافة التي كانت تعكس مظاهر عادات الطعام الرمضانية في هذا الوقت.

وإلى جانب الكنافة اشتهرت أيضاً «اللقيمات» في الخليج العربي، وهي حلوى معجنات بالسكر والعسل تشبه «الزلابية» في مصر. وفي السودان اشتهرت «الرَحْمَتَات» وهي طعام يعد للأطفال في الخميس الأخير من رمضان عبارة عن فتة وأرز ولحمة، كما تقدم في الجمعة اليتيمة من رمضان طلباً للرحمة. كما اشتهر في شهر رمضان عادة «الطبق الدوار»، الذي يقدمه أحد الأشخاص لجاره وفيه أكلة معينة، فتتم إعادة إرساله لجار آخر بطعام آخر.. وهكذا، وفي الأردن عُرفت هذه العادة بـ«السكبة»، وهي صحن من أكل الأسرة وإرساله إلى الأقارب والجيران أيام رمضان، فتتعدد الوجبات في البيت بطريقة تبادل الصحون، ومن السكبة ما يتم إرساله إلى الفقراء والمحتاجين. ويعد عنصر المشاركة الجماعية، واللقاءات على مائدة واحدة من أهم عناصر التراث التي تشهد تطوراً وتنوعاً فريداً. فالدعوة على الإفطار خلال شهر رمضان - وفي الأيام الأولى خاصة - من أشهر هذه الممارسات، سواء دعوة العائلة، أو دعوة الأصدقاء، أو الدعوات العامة. وتتسع فكرة الدعوة هنا إلى ما يعرف بـ«موائد الرحمن»، التي يتبرع بها شخص أو مجموعة من الأشخاص لإفطار غير القادرين في رمضان، أو من لم يسعفهم الوقت للوصول إلى بيوتهم. وقد ارتبطت عبر التاريخ بكثير من الروايات وتعددت أسماؤها، مثل: دار الضيافة - سماط الخليفة - دار الفطرة، ثم مائدة الرحمن. وفي الخليج العربي ظاهرة «القريش»، حيث تجتمع النساء في البيوت آخر يوم من شهر شعبان، ويجلسن معاً على مائدة طويلة متنوعة الأكلات لتوديع شهر شعبان والاحتفاء باستقبال شهر رمضان المبارك. عناصر كثيرة سنحاول عرضها في المقال القادم كارتباط رمضان بعادات دورة الحياة، والمسحراتي، وليلة النصف من رمضان، وتوحيش رمضان، وأغاني رمضان، حتى نحتفل معاً بقدوم عيد الفطر المبارك.. إن شاء الله..

المَسْمَع الطبيعيّ في رمضان

Soundscape in Ramadhan

علي العَبْدان
مدير إدارة التراث الفني
معهد الشارقة للتراث

المَسْمعُ الخارجيّ أو المَسْمع الطبيعيّ (soundscape) هو كل ما يسمعهُ الإنسان من حولهِ في الحالات الاعتيادية، كأصوات العصافير، وحفيف الأشجار، وثرثرة الناس، وأصوات السيارات والطائرات ونحوها، وأصوات الآلات، وحتى الموسيقى التي تُعزف أو تُذاع من بعيد، وأصوات المواد المسموعة والمرئية في وسائل التواصل الاجتماعيّ، وأجهزة الهاتف والحاسوب، ذلك كلهُ يُسمّى المَسمعَ الطبيعيّ، فما الأصواتُ التي تميّز المَسمعَ الطبيعيَّ في شهر رمضان؟

بالإضافةِ إلى الأصوات الاعتياديّة؛ يتميّز المَسْمعُ الطبيعيُّ خلالَ شهر رمضان المبارَك في عموم العالَم العربيّ والإسلاميّ بحضور أصواتٍ خاصّةٍ به، يبدأ ذلك في ماضي الإمارات وعامّة الخليج مثلاً بإطلاق قذيفةِ مدفع وقتَ التأكد من رؤية هلال شهر رمضان، ويستمرّ إطلاق المدفع وقتَ مغيب الشمس طيلة الشهر، من أجل تنبيه الناس إلى إباحة الشروع في تناول طعام الإفطار، ثم تُقامُ صلاةُ التراويح كلَّ ليلةٍ بعد صلاة العشاء، وهي من ضمن المَسْمَع الرمضانيّ المُميَّز، سواءٌ في الماضي أو في الحاضر، وهي في الحاضر أكثرُ وضوحاً كمَسْمع موسميّ، والناسُ اليومَ أكثرُ تفاعلاً معها، فيجري اختيارُ إمامٍ حَسَن الصوتِ لجوامعَ ومساجدَ معيَّنةٍ في كلّ مدينةٍ خلال شهر رمضان، من أجل صلاة التراويح أو التهجد في العشر الأواخر من الشهر، ويقوم كثيرٌ من الناس بتتبّع هذه المساجد من أجل الصلاة خلفَ الإمام ذي الصوتِ الجميل، وهذا في العموم، إذ يوجد أيضاً كثيرون ممن يتتبّعون المساجد التي تنتهي بسرعة من صلاة التراويح، حتى وإن كان صوتُ الإمام ليس جميلاً. من جهةٍ أخرى يشهدُ المَسْمَع الرمضانيّ المعاصِر شعاراتٍ صوتيةً خاصة، تُنتِجُها القنواتُ الفضائية، إذ يحرصُ كثير منها على أن يكون لكلٍّ منها شعارٌ مَرئيٌّ مَسموعٌ خلال

هـذا الشـهر، مثـل شـعار قنـاة سَـما دبي عـلى سـبيل المثـال: «رمضـان نـوَّر سـمانا»، مـع موسـيقاه المُصاحِبـة، التـي تَعلَـقُ بـآذان المستمعين مـدةَ الشـهر، ويوجـد كثـير مـن الأصـوات الأخـرى التـي تمَيّـز المَسْـمَع الرمضـانيّ في العـصر الحديـث، مثـل الألعـاب الناريّـة التـي تنطلـقُ أحيانـاً هنـا أو هنـاك، ومثـل الأغـاني والأناشـيد الخاصـة بالشـهر، كأغنيـة المطـرب المـصريّ محمـد عبـد المطلـب: «رمضـان جانـا، وفرحنـا بـه، بعـد غيابـه.. أهـلاً رمضـان»، أو كالنشـيد الـذي كان يُبَـثّ مـن إذاعـة الشـارقة: «رمضـانُ قـد أهـلّا، بالضيـاءِ وأطـلّا، مُسـعِداً أهـلاً وخـلّا، ليتَـهُ في كلّ حـين».

ومـن المَسْـمَع الرمضـانيّ في الخليـج قديمـاً صـوتُ مَـن كان يُسـمّى «بوطبيلـة»، وفي مناطـق أخـرى مـن الخليـج أيضـاً يُسـمّى «المْسَحِّر»، وهـو «المسـحّراتي» في مـصر، وكـما هـو ظاهـرٌ مـن اسـمِهِ تكـونُ وظيفتُـهُ في رمضـان تنبيـهَ النائمـين للسُـحور قبـل أذان الفجـر، وبَـدءِ الإمسـاك عـن الطعـام والـشراب، وإنما سُـمّيَ «بوطبيلـة»؛ لأنـه كان يُعلّـقُ طبـلاً عـلى كتفِـه، ويـضربُ عليـه لإيقـاظ النائمـين، ومـن الملاحـظ تشـابُه العبـارات في هـذا السـياق، ففـي الكويـت مثـلاً يقـول بوطبيلـة، أو المسَـحِّر: «يـا نايـم يـا نايـم، اذكـر ربّـك الدايـم»، ويقـول المسـحّراتي في مـصر: «يـا نايـم وَحِّـد الدايـم»، ولا شـك في أن هـذا التشـابه النـصيّ يعـودُ إلى التشـابه في المـوروث الثقـافيّ، وبالإضافةِ إلى ذلـك يتجمّع كثـيرٌ مـن الأطفـال حـولَ المسـحِّر حـين يطـوفُ بـ«الفرجـان»، وهـي الحـارات في الخليـج، ويُـردّدون معـه بعـضَ عباراتِـه، أو يُـردّدون كلمـة التوحيـد: «لا إلـه إلا اللـه، محمـد رسـول اللـه»، وفي مقابـل هـذا العمـل؛ يُعطـى المسـحِّرُ أو بوطبيلـة مبلغـاً مـن المـال، أو بعـض طعـام السـحور، أو أيَّ شيءٍ تجـودُ بـه نفـوسُ المُسـتيقظين للسـحور.

ومـن العـادات القديمـة في بعـض دول الخليـج كالبحريـن مثـلاً؛ أنهـم يُخصّـصون ليلـة النصـف مـن رمضـان لتوزيـع الحلـوى والمكـسرات عـلى الأطفـال، ويُسـمّونه «قرقاعون»، فيقـوم الأطفـال بالاسـتعداد لهـذه المناسـبة بعـد وجبـة الإفطـار، فيحملـون معهـم سِـلالاً مصنوعـةً مـن خُـوص النخـل، كي يجمعـوا فيهـا الحلـوى والمكـسرات، ويقـومُ

بعـضُ هـؤلاء الأطفـال بالـضرب عـلى طبـولٍ صغـيرة، وهـم يُـردّدون جميعـاً أهازيـج القرقاعـون، وغيرهـا مـن الأناشـيد الشعبية. لكـنّ الأمـرَ لا يقتـصِرُ عـلى الصِغـار، إذ يقـومُ الرجـالُ بزيـارةِ بعضهـم بعضـاً في هـذه الليلـة، ويـؤدّي بعضُهـم فنـونَ الفجْـري، وهـي فنـونٌ ترفيهيّـةٌ تتميّـزُ بالألحـان الشـجيّة، ثـم يستمتعون بالضيافـةِ الرمضانيـة، مـن القهـوة والشـاي، والحلـوى، وغيرهـا مـن الوجبـات الخفيفـة.

في الإمـارات لا توجـد أناشـيد أو أهازيـج خاصـة بشـهر رمضـان المبـارك حسـبَ علمـي، إلا أن يكـون أداءً مـن ضمـن فـن (المالـد)، وفـن المالـد فـنٌ قديـمٌ في الإمـارات، ربـما يعـود إلى أكـثر مـن مائتـي عـام، وقـد أحـضرهُ فيـما يظهـر بعـضُ الصوفيـة المُهاجريـن إلى سـواحل الإمـارات، إذ هـو غـيرُ معـروفٍ في داخـل الإمـارات عنـد البـدو، فيبـدو أن وجـودَهُ فيهـا قـد جـاءَ مـن السـاحل، وهـو فـنٌ يرتبـط بالمولـد النبـويّ الشريـف، وبعـض المناسـبات الدينيـة، كالإسراء والمعـراج، وكذلـك بعـض المناسـبات الاجتماعيـة كالـزواج، خاصـةً لـدى بعـض الأُسَـر المُحافِظـة، ويبـدأ هـذا الفـن بمـن يُسـمّى «النـظّيم» – بتشـديد الظـاء –، وهـو مصطلـحٌ يـدلُّ عـلى مَـن يعـرفُ نظـمَ الأشـعار، أو يحفـظُ كثـيراً منهـا، ويكـونُ مُطّلِعـاً عـلى السِـيرة النبويـة، وشروعـاً في الأداء؛ يجلـس النـظّيمُ متوسّـطاً صفـاً مـن الإيقاعيّـين، الذيـن يُصاحبونـه بالـضربِ عـلى «الاسْـماعات»، جمـع «اسْـماع»، وهـو رَقٌّ مُتوسّـط الحجـم، يُسـمّى في بقيـةِ الخليـج «طـار»، أو «طـارَه»، وهـو اسـمٌ مأخـوذٌ مـن الإطـار الخشـبيّ الدائـريّ الـذي يُشَـدُّ عليـه الجلـد، فيبـدأ النـظّيم بالابتهـالات، وذكـر اللـه، والصـلاة والسـلام عـلى رسـول اللـه، ويُجاوِبُـهُ صـفٌّ ثـانٍ مُقابِـلٌ لصفِّـه، وهـؤلاء لا يمسـكون باسْـماعات، ولكنّهـم جوقـة (chorus)، أو «ردّيـدة»، كـما في الاصطـلاح العامّـيّ، ثـم يبـدأ النـظّيمُ بإنشـاد المدائـح النبويـة، أو يقـرأ سـيرة البرزنجـي إذا كان ذلـك في ذكـرى المولـد النبـويّ.

وكـما بـدأ الشـهرُ بصـوتِ المدفـع، فإنـه ينتهـي أيضـاً بهـذا الصـوت، فيُسـمعُ إطـلاقُ المدفـع وقـتَ التأكـد مـن رؤيـةِ هـلال شَـوّال، أي هـلال العِيـد، ويبـدأُ مَسْـمعٌ آخَـر، هـو مَسْـمعُ العيـد السـعيد، فتُسـمعُ تكبـيراتُ النـاس، وتهانيهـم، وتبريكاتهـم، خـلال العِيـد.

الحياة الرمضانية في عيون الرسامين

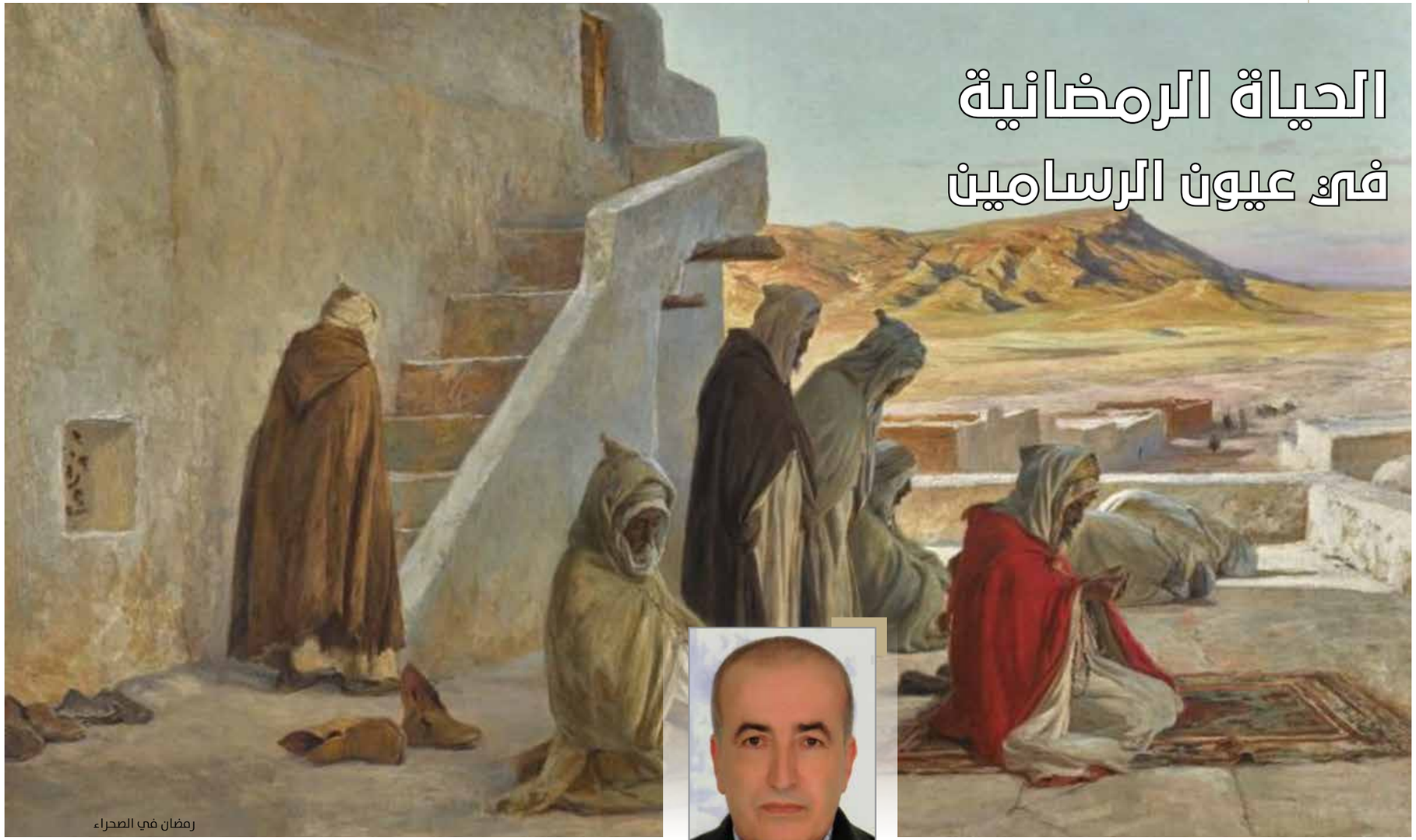

رمضان في الصحراء

الزبير مهداد
كاتب وباحث ـ المغرب

يتشوّق المؤمنون في البلاد الإسلامية لحلول شهر رمضان كل سنة، ويتهيؤون له بما يليق به من شروط لضمان ممارسات تعبدية واجتماعية وغذائية، تكتسي أحياناً طابعاً احتفالياً، متتبعين الكثير من العادات التي توارثوها. وقد استهوت الحياة الرمضانية عدداً من الفنانين، المسلمين والغربيين، الذين استلهموها في لوحاتهم الفنية، التي تصور تراثاً ثقافياً دينياً غنياً، من خلال نسمات وأجواء رمضان.

في المقالة التالية، نستعرض بعض هذه الأعمال الفنية، التي أبدعها فنانون أوروبيون وعرب، والجوانب التي رصدتها في الحياة العربية خلال هذا الشهر المبارك.

تعد لوحة «الهلال» للرسام ديني من بين لوحاته الجميلة الشهيرة، تصور عملية رصد واستطلاع الهلال من طرف البدو في واحة «بوسعادة» الجزائرية، حيث كان البدو يستطلعون هلال شهر رمضان بطريقة تقليدية تعتمد على الرؤية المباشرة، كما توارثوها منذ الفتح الإسلامي، حيث تخرج مجموعة من أهل الثقة والمشهود لهم بحدة البصر إلى مكان مرتفع لاستطلاع الهلال، وعند رؤيته يشيعون الخبر بثبوت الرؤية في المنطقة والمناطق المجاورة، التي يظل أهاليها يترقبون الخبر السعيد. وفور بزوغ الهلال في كبد السماء، يتبادل الناس التهنئة بمناسبة حلول الشهر الفضيل.

يواجه المشاهدُ منظرَ صبي مستلق على صخرة كبيرة على جانبه الأيمن، ويرتدي عباءة زرقاء فاتحة جداً، وبرنساً أزرق داكناً مزيناً بخطوط بيضاء، وسروالاً يصل إلى أسفل الركبة، ويرتدي أيضاً شاشية حمراء. صبي بوجه مستدير وقسمات جميلة، تدل على الانهماك في مراقبة الهلال. ويده اليمنى على ذقنه يتكئ عليها رأسه، واليسرى على الحجر الكبير.

الهلال نصر الدين دينيه

مراقبة الهلال

يبتدئ شهر رمضان بعد ثبوت رؤية الهلال، أو بتمام ثلاثين يوماً من شعبان. وكانت عملية رصد هلال رمضان، في اليوم التاسع والعشرين من شعبان، تتم وفق طقوس تقليدية لطيفة، عاينها بعض الرسامين وخلدوها في لوحاتهم. منهم الرسام الفرنسي إيتيان ديني (ت 1929) الذي أسلم، وتسمى باسم نصر الدين دينيه، فأصبح الدين الإسلامي هو موضوعه المفضل، وخلف عدداً من اللوحات التي تجسد عملية رصد هلال رمضان، والصلاة، وسائر مظاهر الحياة الإسلامية.

ويتصدر المشهد رجل عجوز يتوسط اللوحة، يرتدي برنساً أبيض، وعباءة بيضاء، رأسه ورقبته محاطتان بعمامة بيضاء. وهو رجل كهل متوسط القامة، حسن الملامح، يحمل لحية سوداء أنيقة يخالطها الشيب، وعيونه مشرقة مع حواجب كثة. ولا يبدو من يديه سوى اليسرى التي يمسك بها سبحة بنية، ينظر باهتمام إلى السماء، لعله إمام المسجد، محاطاً بفريق رجاله.

على يمينه رجل يرتدي عباءة بيضاء، وشاشية حمراء بهت لونها بالشمس، وتحيط برأسه عمامة مفتوحة ذات لون أخضر فاتح. ويتجه نظره وسبابة يده اليمنى نحو السماء، يشير إلى الهلال، وفوق رأسه، يظهر رأس الصبي الثاني، بوجه يتطلع بدوره بشوق إلى رؤية الهلال، ويبدو فرحاً بمشاهدته الهلال.

الجميع يشرئب بعيونه نحو اتجاه معين، وبعضهم يشير بأصابعه نحو الهلال، وبشائر الفرح والثقة تبدو عليهم. تنطق بها الابتسامة المشتركة التي تعكس حالة الرضا التي يعيشونها، وتبين لنا مدى سعادتهم بقدوم الشهر الكريم.

يسيطر الجبل وحجر كبير في مقدمة اللوحة على ديكور اللوحة، كما نرى جزءاً من السماء في أعلى اللوحة على اليسار.

استعمل الرسام بمهارة كبيرة الألوان وتحكم فيها، فعكست الطبيعة الصحراوية للمنطقة، وعبرت عن نضارة وجوه سكانها، وبشرهم، على الرغم من تواضع مستواهم الاقتصادي، وغياب مظاهر الرخاء والثراء، لكن الألوان تعكس بهدوئها وليونتها ما يجيش في نفوس السكان، وبياض ونقاء سريرتهم.

الصلاة

إن الجو الروحي لشهر رمضان يضفي على الحياة اليومية للمسلمين لحظات من الإشراق والصفاء الروحي، الذي عبر عنها كثير من الرسامين، الذين صوروا المسلمين صائمين، أو مؤدين صلواتهم، أو يحيون حياتهم اليومية في ظل هذا الشهر، فصوروا صلاتهم، وعاداتهم، وحياتهم الرمضانية ليلاً أو نهاراً.

لوحة الصلاة للرسام يوجين غيراريديت (ت1907)، وهو فرنسي الأصل، قام برحلات عدة إلى بلاد المغرب العربي في أواخر القرن التاسع عشر، ووجد الكثير من الإلهام والراحة في البيئة الصحراوية وسكانها من البدو الرحّل، خاصة في واحات الجنوب الجزائري.

تصور اللوحة عدداً من البدو يصلون في خشوع جنباً إلى جنب في الصحراء، في أجواء رمضانية بسيطة. الضوء يعبر عن تراجع النهار الذي يميل نحو نهايته، وكذلك السماء التي تظهر عند غروب الشمس، فاللمعان طبيعي، لا توجد إضاءة صناعية.

نفار رمضان أيوب الفاتحي

بعض المصلين واقف، وآخرون جالسون أو ساجدون. يتوجهون نحو القبلة، بينما يتوجه أحد المصلين إلى السلم لمغادرة مكان الصلاة، بعدما أدى فريضته.

يتقدم المصلين شيخ ببرنس أحمر، جالس على سجادة، يرفع يديه بالدعاء، لعله الإمام. جعل الرسام الإمام أهمّ العناصر التي تستدعي التّأمل؛ ليرفع منها ويعبر بها عن حالة الخشوع والسكينة والوقار.

أما المكان، كما يبدو من خلال مشهد المنازل الواطئة، فلعله سطح المسجد، حيث يحلو للمصلين أداء الصلوات في المواسم الحارة. وقد همدت المدينة في الخلف وراءهم. وكأنّ المكان قد سكن.

يطغى الدفء الصحراوي على اللوحة، فلباس المصلين كلهم عبارة عن برانس تقليدية بألوان حمراء وبنية أو بيضاء، وجلاليب بيضاء تحت البرانس، أسدلوا قلنسواتها على رؤوسهم، في أجواء مفعمة بالإيمان والروحانية والسكينة.

قدم غيراريديت روحانية وبساطة الأجواء الصحراوية والرمضانية بإحساس عميق، ولا يظهر في اللوحة أي تكلف أو مباهج دنيوية مثل الزينة والأطعمة وغير ذلك، وأنّ الرّاهن فضاء تعبّدٍ تتراجع فيه كلّ عوارض الدّنيا وتختفي.

المسحراتي

لوحة «نفار رمضان» للرسام المغربي الشاب أيوب الفاتحي: «النفار» بوق أسطواني طويل من النحاس، يتكون من ثلاث أو أربع قطع نحاسية مفككة، يتم تجميعها وتصير عبارة عن قضيب مجوف بطول مترين، يضيق من الجهة التي ينفخ فيها، ويتسع قليلاً كلما اقترب من جهة البوق. يتم النفخ فيه لإخراج صفير حاد وقوي.

والنفار آلة قديمة، ومازالت تستخدم اليوم في المغرب في الأعراس، ولدى طوائف صوفية، وخلال شهر رمضان، لإعلان وقت السحور.

يطلق المغاربة لفظ «النفار» على المسحراتي، الذي يقوم بجولات بين دروب أحياء المدينة قبيل الفجر، لإيقاظ الناس لتناول وجبة السحور وأداء الصلاة. وفي ختام الشهر، يقوم بجولة في الدروب لجمع ما يجود به الأهل من هبة نقدية أو عينية (ملابس، أو مواد غذائية)، مردداً خلال جولته: «حق النفار يا أهل الدار».

هذا ما وثقته اللوحة، التي يبدو فيها مشهد يتكرر في كل آخر رمضان بدروب المدينة العتيقة، يبدو في اللوحة نفار ببوقه النحاسي، ينفخ فيه، وصبي يتسلم من امرأة بباب منزلها ما تكرمت به عليه، ورجل آخر

مسحراتي من المغرب جان لوي أندريس

بجوار حمار يجمع العطيات ويضعها في البردعة. كما يبدو بالدرب عدد من النساء والصبيان.

و«المسحراتي» في المغرب لا يرتبط بالضرورة بآلة «النفير»، فقد يستعمل أيضاً المزمار المعروف عند المغاربة بـ«الغيطة»، أو الطبل. وقد يجتمع العازفون بالآلات الثلاث أثناء تجوالهم، أو قد يتم الاكتفاء بآلة واحدة كالطبل.

«المسحراتي من المغرب» للويس جون إندرس (ت1989)، وهو فنان أمريكي موهوب وُلد بالقرن التاسع عشر، هاجر إلى بريطانيا ثم فرنسا، وأمضى الكثير من الوقت متجولاً في المغرب، بعدما شغفه نمط العيش استقر بالنهاية بالعاصمة الرباط منذ سنة 1931م.

نلحظ في اللوحة الشكل المألوف للمسحراتي الباسم، الذي تمتلئ عيونه بالشغف، وتدل ملامحه على الانهماك. يلبس قميصاً أزرق يحمل طروزاً وزخارف، ويبدو تحته قميص قصير أبيض خفيف، وسروال بني، ويضع على رأسه عمامة بيضاء مشدودة وغير مرتبة، تلف طربوشاً أحمر بذؤابة سوداء سميكة وبارزة، ترقص مع حركاته. رصد «لويس» في اللوحة المسحراتي الذي شاهده

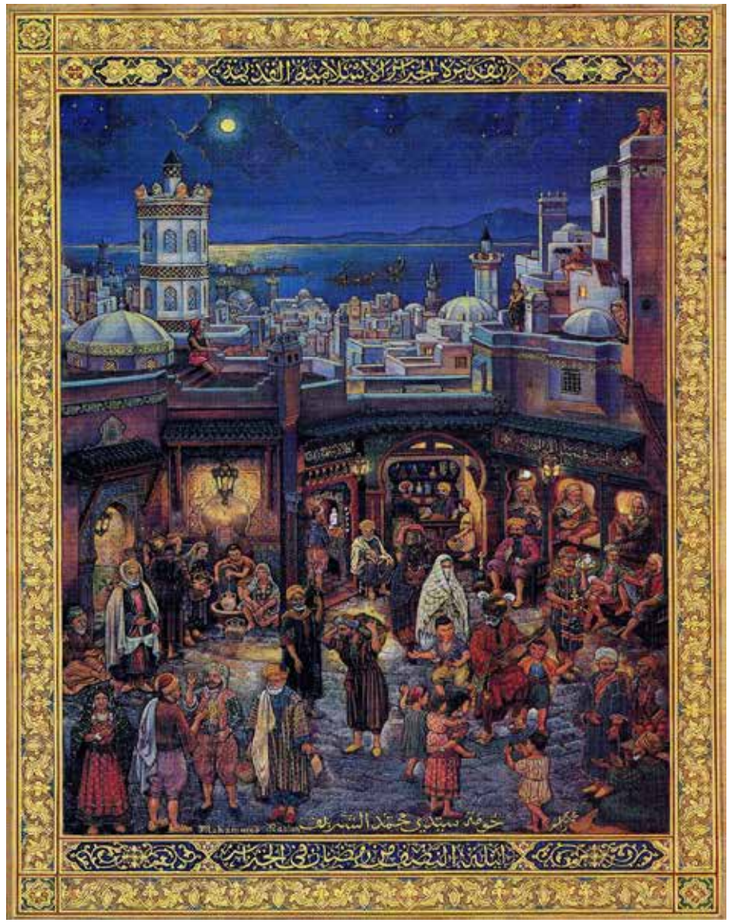

ليالي رمضان محمد راسم

بالفعل في الرباط، ونلحظ التفاصيل البسيطة التي توحي بأن الرجل لم يكن مجرد قارع على الطبل، بل يؤدي عملاً يحبه، لارتباطه بمناسبة ذات قيمة دينية واجتماعية كبيرة، يقرع الطبل ويدعو الناس إلى الاستيقاظ، ويحتسب أجره على الله. بينما في ظهر اللوحة ينتشر الرمادي الذي يشير إلى بداية الفجر.

الحياة اليومية

لوحة النصف من رمضان للرسام محمد راسم (ت1975)، الفنان الجزائري الذي يعد من أشهر من رسم المنمنمات في العصر الحديث، خلف رصيداً مهماً من الأعمال الفنية، منها لوحة ليلة النصف من رمضان في الجزائر.

يظهر في اللوحة منظر لأناس يتبادلون أطراف الحديث، ويتسامرون فيما بينهم في مختلف الزوايا وحتى في سطوح المباني، مرتدين ألبسة تقليدية. وأبرز الفنان ملامح البهجة الظاهرة على وجوههم التي تدل على الفرح بالشهر الفضيل.

أما في الخلفية فتظهر الأبنية الجزائرية والمساجد، كما تظهر الإطلالة البحرية الرائعة التي زادها جمالاً وجود القمر بضوئه المنعكس عليه.

وظف الفنان الزخرفة النباتية الموروثة، وهذا ما نراه بكثرة في الإطار الزخرفي، وكذلك في الملابس. واستعمل اللون بإحكام تام، فوزعه بشكل متناسق بين جميع عناصر اللوحة، وعدل بين الألوان الحارة (الأحمر، الأصفر، البرتقالي، الوردي)، وبين الألوان الباردة (الأزرق، الأخضر، البنفسجي).

أما الإضاءة فقد وظفت من خلال عنصرين، الأول كان ضوء القمر الذي زاد السهرة الرمضانية جمالاً بضوئه المنعكس على البحر، أما الضوء الثاني فقد كان يأتي من خلال الفوانيس المضاءة في هذا الشارع.

عيد الفطر

لوحة «صباح عيد الفطر» للرسام النمساوي الأصل الفرنسي الإقامة لودفيج دوتش (ت1935): تمثل صباح عيد الفطر الذي ينهي به شهر رمضان، والذي يحتفي به المسلمون بعدد من الطقوس والعادات، في اللوحة تصوير لتقليد زيارة القبور يوم العيد، والتي كانت سائدة في مصر.

تصور اللوحة نساء واقفات، وأخريات جالسات، يلبسن عباءات سود، واحدة تحمل طفلها الصغير، والأخرى تحمل قفة على رأسها، يظهر منها إبريق كبير، ومنديل، ولعل القفة فيها أنواع من المأكولات، مما يقدم صدقة عن الميت. وعلى القبر تجلس امرأة في وضع حزين جداً، وهي تمسك رأسها، وكأنها تستعيد ذكريات الفقيد، وفوق القبر الآخر يجلس رجل في الوضع نفسه. كما نلمح رجالاً آخرين ونساء وصبية، بجوار المقابر. وفي اللوحة ذاتها، نرى بعض الورد الذي أحضره أهل الفقيد موضوعاً على القبور، مع سعف النخيل.

فاللوحة توثق لطقوس تقليدية متوارثة، خلال العيد في مصر وغيرها، اعتقاداً من المسلمين بأن أفضلية زيارة القبور تزيد في أيام العيد التي يلتمس فيها الرحمة والمغفرة للموتى من الله تعالى، فيقصدونها حاملين معهم بعض خيرات الله، لتوزيعها على الفقراء والسائلين. إلا أن ما يميز الحالة المصرية هي وضع الورد وسعف النخيل على القبر، هذا المشهد الذي قد لا يتكرر في غيرها من البلدان.

الخاتمة

استعرض المقال عينة مختارة وصغيرة جداً من اللوحات، فقد راكم الرسامون العرب، والمستشرقون الذين زاروا البلاد العربية، آلاف اللوحات، خصصت للموضوعات الدينية حيزاً مهماً، صورت تدين الناس، والتحام الأجيال خلال المناسبات الدينية، ما يدل على قوة ومتانة الثقافة الدينية، وتجذرها الاجتماعي، وقيم التواضع والتسامح التي يرسخها الإسلام في النفوس، وتعزيزه ثقة المسلمين بذواتهم. فكثير من اللوحات تعد أعمالاً قيّمة لبعدها التوثيقي، أو الثقافي التواصلي، تعاد قراءتها اليوم بكثير من الإعجاب.

فاللوحات، وإن طغى عليها البعد التوثيقي، فإنها لا تخلو من فحوى روحي، بألوانها، وظلالها، وشخوصها، وملمسها، ما يمنحها حياة متجددة، تنطق بمعلومات جديدة عند كل قراءة متجددة.

صباح يوم الفطر في مصر لودفيج دويتش

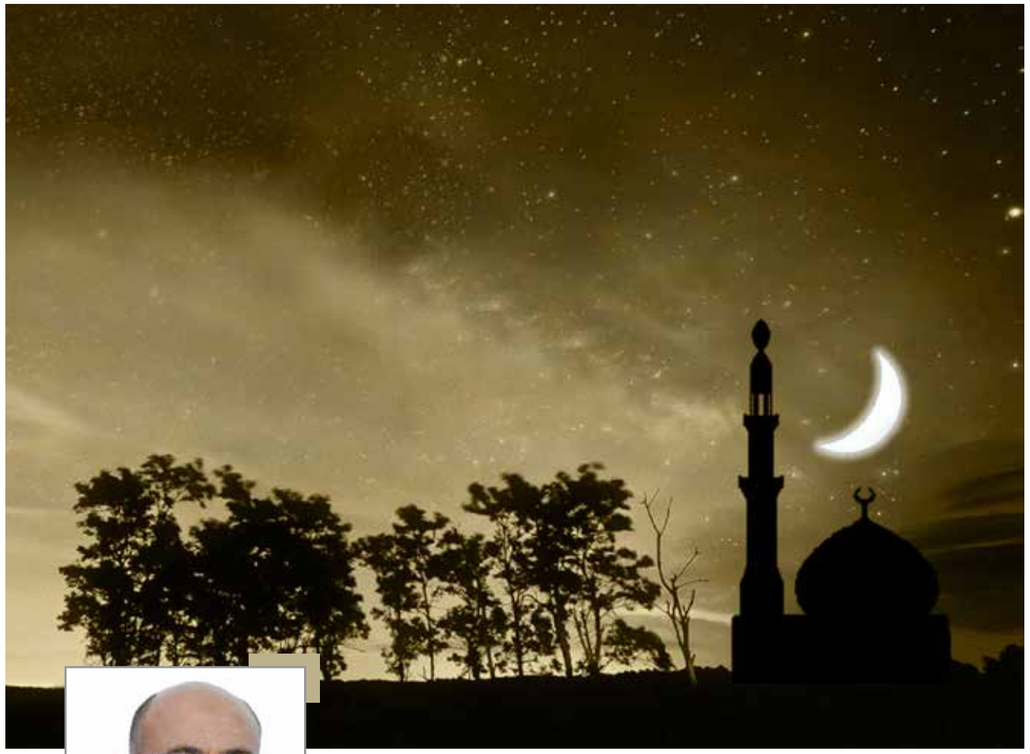

رمضان وعاداته المتأصّلة
لدى أهل الخليج

خالد صالح ملكاوي
باحث وإعلامي - الأردن

على الرغم من رياح التغيير التي أصابت نواحي حياتية عدة، مازال شهر رمضان في دول الخليج العربية يحتفظ بطقوسه الأصيلة، وعبق ذكرياته التي تلمّ شمل معظم الأسر، ومازالت عادات الشهر الكريم تحتفظ بروحها، ولايزال لأهل الخليج عاداتهم وتقاليدهم الرمضانية المتوارثة عبر الأجيال، وهي تعكس روح الأصالة، وتجسّد قيم المحبة والتواصل الديني والاجتماعي، وتنمُّ عن التجانس بين المجتمعات الخليجية عامة.

فالتغيُّر الذي أصاب مجتمعات المنطقة، ولحق بتفاصيل الحياة، وأثّر في علاقات الناس وتقاربهم الاجتماعي، سرعان ما يضعُف تأثيره، حتى يكاد ينزاح، منذ أن تَهِلّ تباشير الشهر الفضيل، ويُحيي الناس استعداداً له ليلة النصف من شعبان، فيتميز الشهر بالإحسان والتكافل الاجتماعي والتآزر الإنساني، ويرتبط سلوك هذا الشهر وطقوسه، رغم تنوّعها، بعادات توارثتها الأجيال، وحافظ الناس عليها، وتلتقي في طابع عام يجسّد مفاهيم التسامح والإخاء والألفة والمودَّة التي نشأ معها وكبرُ أفراد هذه المجتمعات، وتتشابه ابتداءً من استقبال الشهر وصولاً إلى وداعه، وهي تستعيد عادات مستمدة من الموروث الذي مازالت روحه حاضرة.

شعبان شهر الاحتفالات والاستعدادات

تبدأ الأجواء الرمضانيّة في مختلف دول الخليج العربية قبل قدوم الشهر الفضيل، حيث تتهيأ النساء منذ مطلع شهر شعبان، الذي تشهد ليلة النصف منه في الإمارات إحياء «حق الليلة»، إذ يرتدي الأطفال بعد صلاة المغرب ملابسهم التقليدية، وينتقلون من بيت إلى آخر، حاملين حقائبهم القماشية، يطوفون في الفريج مرددين:

أعطونا الله يعطيكم
بيت مكة يوديكم
أعطونا مال الله
سلم لكم عبد الله.

ويُحتفل في آخر أيام شهر شعبان في عدد من دول الخليج بالاستعداد لبدء صيام رمضان بيوم «القريش»، إذ اعتادت الأسر يوم رؤية هلال رمضان على حمل جميع أنواع الأطعمة المتوافرة في المنزل والذهاب بها إلى بيت كبير العائلة؛ لتغدو مائدة للاحتفال بقدوم الشهر الفضيل، وكلمة «القريش» تعني السخاء، فيقرقش الشخص النقود في جيبه ويسمع صوتها، حيث كانت كل أسرة تجود وتسخى، أو تقرقش بما لديها من طعام وشراب.

وتشهد معظم أيام شعبان استعدادات ربات البيوت في المجتمعات الخليجية للتهيؤ والتموين المبكر لشهر رمضان، فيقُمن بتحضير التوابل الخاصة برمضان، وتجهيز البنّ والأرز وصنع السمن البلدي من حليب الأبقار والغنم، كما يحتفين بدقّ الحَبّ الذي يوفر أساس المواد الأولية للأكلات الرمضانية، وقد ارتبطت بهذا الطقس أغان منوعة تُؤدى أثناء عمليات الدقّ والطحن مثل:

هلّ شعبان وهلّ شهر الصيام
وأشوف خلي ثالث العيد مطروح

ليلة النصف من رمضان

الاحتفال بمرور النصف الأول من رمضان هو من أبرز الطقوس الرمضانية في دول الخليج العربي، ويطلق عليه عادةً «قرقيعان»، وهو يشبه في مضامينه الاحتفال بليلة النصف من شعبان، وفيه ينطلق الأطفال بعد صلاة العشاء خارج منازلهم؛ ليقوموا بالتجوال في ممرات أحيائهم السكنية، وكذلك الأحياء المجاورة، ليجمعوا في أكياسهم أكبر قدر من الحلويات والمكسرات الخاصة بالاحتفال.

ففي سلطنة عمان يطلق عليه «قرنقشوه»، حيث يرتدي فيه الأطفال الملابس التقليدية، ويجوبون بعد صلاة العشاء «الفرجان»، قاصدين البيوت التي يكافئهم أصحابها بتقديم الحلوى والمكسرات، مرددين أثناء تجوالهم:

قرنقشوه قرنقشوه
أعطونا شيء حلواه

ويمثل «الكركيعان» مناسبة عزيزة على الصبيان والبنات في الكويت، وتكون عادة ليالي الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر من رمضان، ففيها يتجمع الأطفال ضمن مجموعات، وتختار كل مجموعة رئيساً لها، وتطوف تلك المجموعات على منازل الحي حاملين الأكياس لملئها بالكركيعان، وبأيديهم الطبول والطاسات، مرتدين الملابس التقليدية، مرددين:

سَلّم ولدهم يا الله
خلّه لأمّه يا الله

وعادة ما تقوم ربة البيت أو من ينوب عنها لتقدم لكبير المجموعة صحناً مملوءاً بالكركيعان، أو تعطيه النقود أحياناً.

ويردد الأطفال في البحرين الأهازيج التي مطلع إحداها:

حياك الله يا رمضان
يا بو الكرع والبيذجان.

ويرتدي أطفال المنطقة الشرقية في المملكة العربية

السـعودية أجمل ثيابهم احتفاء بالقرقيعـان، ويخرجون في مجموعات يحملون أكياساً خاصـة، ويطوفون على بيوت الجـيران طمعاً بالمكـسرات مرددين:

قرقع قرقع قرقيعان أم قصير ورمضان
عُطونا الله يعطيكم بيت مكة يـوديكم
ويـلحفكم بالجَاعِد عن المطر والرعد

وفي قطر يغني الأطفال في الحارات:

قرنقعوه قرنقعوه
عطونا الله يعطيكم بيـت مـكـة يـوديـكـم
يا مكة يالمعمورة يام السلاسل والذهب يا نورة

المائدة الرمضانية الخليجية

تزخـر المائـدة الرمضانية الخليجيـة بالعديد مـن أصناف الأطعمة التي اشـتهر بها أهالي المنطقة عبر السـنين، فيتسـيَّد «الهريس» و«الثريد» و«التشريب» و«العصيدة» و«البلاليـط» و«السـاقو» و«اللقيـمات» وغيرها معظم الموائـد، وتقوم ربـات البيوت بتبادل هـذه الأطباق فيما بينهن .

ففي الإمارات يزخر الشـهر بأطباق «الهريس» و«الثريد» و«البثيـث» و«المتشـبوس» و«العصيـدة»، ووجبـة «الفوالـة» بعـد صلاة العشـاء، وهـي الوجبـة الأهم، إضافـة إلى الحلويـات مثـل: «اللقيـمات»، و«البلايط»، و«المحـلى»، و«الغميـلي»، و«الرقـاق» و«السـاقو» و«الهـرروت» و«الخنفـروش»، وغيرهـا مـن الحلويـات والفواكـه، مـع شرب الشـاي والقهـوة التـي يأكلون معهـا التمـر أو (السـح). أما السـحور فيقتـصر فيه على التمـر أو الرطب واللـبن والكامي والماء، وقـد يأكل بعضهـم «العيش».

وفي مملكـة البحريـن يبقـى «الهريـس» و«الثريـد»، مـن أشـهر الأكلات الخاصـة بالشـهر، ومـن الحلويـات «المحلبيـة» و«البلاليـط» و«الخبيـص»، و«اللقيـمات»، وحلـوى «السـاقو». وهناك حلـوى تصنـع في معامل خاصة مثـل «الزلابية» و«الرهش» و«العسـلية». كما تكثر في ليـالي الصيـام جلسـات «الغبقات».

وتمتـد المائـدة الرمضانيـة في الكويـت لتشـمل عدداً مـن الأطعمـة التـي يسـبقها تنـاول التمـر وشـوربة العـدس، ويظـل «الهريـس» الطبـق الرئيـس، وهناك أكلة «التشريبـة»، و«الجريـش» الذي يطبخ مـن القمح، و«كبـة الجمـبري» و«البريـاني»، وطبـق «المرجـوج». ومـن الحلويـات «اللقيـمات»، و«البثيـث»، و«الخبيص»، و«المحلبية»، و«الزلابيـا».

وتعدّ «الغبقـة الرمضانية» إحدى العـادات العريقة لأهل الكويـت، وهـي مـن الوجبـات الخفيفة ما بـين الفطور والسـحور، وفيهـا يحـرص الصائمون عـلى الوجود في منـزل الأسرة الكبـير، ويحـضر الأبنـاء والأحفـاد مأدبتي الإفطـار والغبقة.

وللعمانيين طقسـهم في الإفطار، حيـث يكتفون بتناول «السـح» واللبن، إلى جانـب القهوة، ليقومـوا بعد ذلك لأداء صـلاة المغـرب، ثم العـودة لتناول وجبـات خفيفة، ويكـون موعد الوجبة الأساسـية عند العشـاء بمجموعة زاخرة من الأطباق التقليدية، مثـل «الهريس»، و«الثريد»، و«العرسـية»، و«اللقيمات»، و«القريصـات»، و«الرخال»، والخبز العـماني، والخبز بالجين.

ومـن أطباق رمضـان كذلـك السـمنة بالحلبـاء أو الحبة الحمراء، والشـوربة باللحم. ومن أشـهر الحلويات حلوى السـخانة «السـمن»، و«السـاقو»، و«صب الجفشـة»، و«الخنـسروس»، وكلهـا أسـماء لنـوع واحـد من الحلويـات، ولكنهـا تختلف من ولايـة إلى أخرى في طريقـة إعدادهـا وصنعهـا وطعمها.

وفي المملكـة العربيـة السـعودية تشـكل «الكبسـة»، و«المنـدي»، و«المظبـي»، و«البريـاني»، و«المدفـون»، و«المضغوط»، و«المثلوثـة»، و«المطاطيـز»، و«الجريـش»، وخبـز التميـس المشـهور، والسمبوسـة، والشـوربة، والفـول أهـم أطبـاق المائـدة الرمضانيـة.

وثمـة أكلات بعينهـا تختص بهـا موائد بعـض المناطق، ففـي جدة ومكـة والمنطقـة الغربية تعـد «الصيادية» من أشـهر الأكلات، ويمثل «السـوبيا» المشروب المفضل،

أمـا «الدبيـازة»، وهـي خليـط مـن المكـسرات والفواكـه المجففة، فتعد أهم أنـواع الحلوى في عيـد الفطر.

وفي العاصمـة الريـاض والمنطقة الوسـطى تعتمد الأطبـاق الشـعبية عـلى القمـح واللحـم أو القمـح والتمـر، وهناك أطباق شـهيرة مثـل كبسـة اللحـم و«القرصـان» و«الجريـش»، و«الحنيني». ومـن أبرز الأكلات الشـعبية على المائدة التبوكية قرص «المجللة» أو «الخميعـا»، وخبز «الجمريـة» أو «الملة»، وكذلك طبـق «المنسـف»، و«عصيـدة» التمـر، و«الصيادية»، و«الجريش»، و«المرقـوق»، و«المعصوب»، و«اللقيمات». ومن أشـهر الأطعمة الخاصة برمضان في قطر «الهريس» و«الثريـد»، ومن أصناف الحلـوى الرمضانيـة «المحلبية»، بجانـب «المضروبـة» و«اللقيـمات» و«السـاقو»، ومـن الأكلات المفضلـة عـلى مائدة السـحور «البلايط».

ومن أسـماء رمضـان في قطر شـهر «الغبقات»، نسـبة إلى «الغبقـة»، وهـي الوجبـة التـي تؤكل بعـد صلاة التراويـح وقبـل وجبـة السـحور، إذ يتجمـع الأصدقاء أو الجيران كل يوم في منزل أحدهـم لتناولها، في تجمعات خاصة للنسـاء وأخرى للرجال. وكانـت تقتصر في الماضي عـلى صنفين أو ثلاثـة من الطعـام، أبرزهـا «العيش» أو الأرز المطبـوخ بخلاصة التمر، والسـمك الصافي المقلي، وعنـد إحيائها يُلْتَـزَم بارتـداء الملابس التقليديـة، وإبراز النواحـي التراثية.

المجالس

تجمع المجالس الرمضانية الرجال من كبار السـن والشـباب والصبيـة. ولنسـاء الحـي اجتماعات في مجالـس خاصة بعـد صـلاة التراويح، يتـم فيها تبـادل الأحاديـث الدينية والثقافيـة المتعلقة بالحيـاة العامة.

فالمجالـس في الإمارات ملتقى للتسـامر ولمناقشـة القضايا التي تهم المجتمع، وكذلك لتبـادل الروايـات والإنشـاد والشـعر، وللمجلس هيبتـه وقواعده، فإذا قيلـت فيه أمـام الحضور قصيدة من أحـد الشـعراء أصبحت مُجـازة ويمكـن حفظها، ومن الممكـن أن تنتقل إلى بقيـة الإمارات.

وتعقـد المجالـس في عُـمان، والمعروفـة باسـم «السـبلة»، تحـت ضيافة شـيوخ القبائل، يتناولـون فيها مجموعـة مختلفة من الأمـور الدينية التـي تتوافق مع روحانيـات الشـهر الكريـم. ويتميز رمضـان في الكويت بالديوانيـات التي لهـا طعمها الخـاص في رمضان، رغم أنهـا مسـتمرة طـوال العـام وفي أيـام مخصصة من الأسبوع .

وللقهـوة العربيـة حضورهـا المميز في رمضـان، فكما أنهـا تشـكل الحـاضر الدائـم في المجالـس الرمضانية، فإنها أيضاً تـلازم الأهالي منذ بدء الفطـور حتى الانتهاء من السـحور.

المصادر والمراجع:
1. أناشيد الطفولة في المجتمع الخليجي، كلثم علي الغانم، مجلة المأثورات الشعبية، الدوحة: مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، عدد21، يناير/ كانون الثاني، 1991م.
2. بعض المأكولات الشعبية في قطر، سبيكة محمد الخاطر، مجلة المأثورات الشعبية، الدوحة: مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، عدد22، إبريل/ نيسان، 1991م.
3. رمضان والعيد عادات وتقاليد، محمّد رجب السامرّائي: كتاب تراث، أبوظبي: نادي تراث الإمارات، 2011م.
4. رمضان والعيد في البحريـن عـادات وتقاليـد مُتوارثـة، محمـد رجـب السـامرائي، مجلـة الثقافـة الشـعبية، المنامـة: الثقافـة الشـعبية للدراسـات والبحـوث والنـشر، عـدد21، السـنة السادسـة، ربيـع 2013م.
5. عاداتنا في رمضان، جمعية نهضة المرأة الظبيانية، أبوظبي: مؤسسة الاتحاد للصحافة و النشر و التوزيع، (د.ت).
6. من تراث البحرين الشعبي، صلاح علي المدني وكرم علي العريّض، (د.ن)، البحرين، الطبعة الثانية، 1994م.

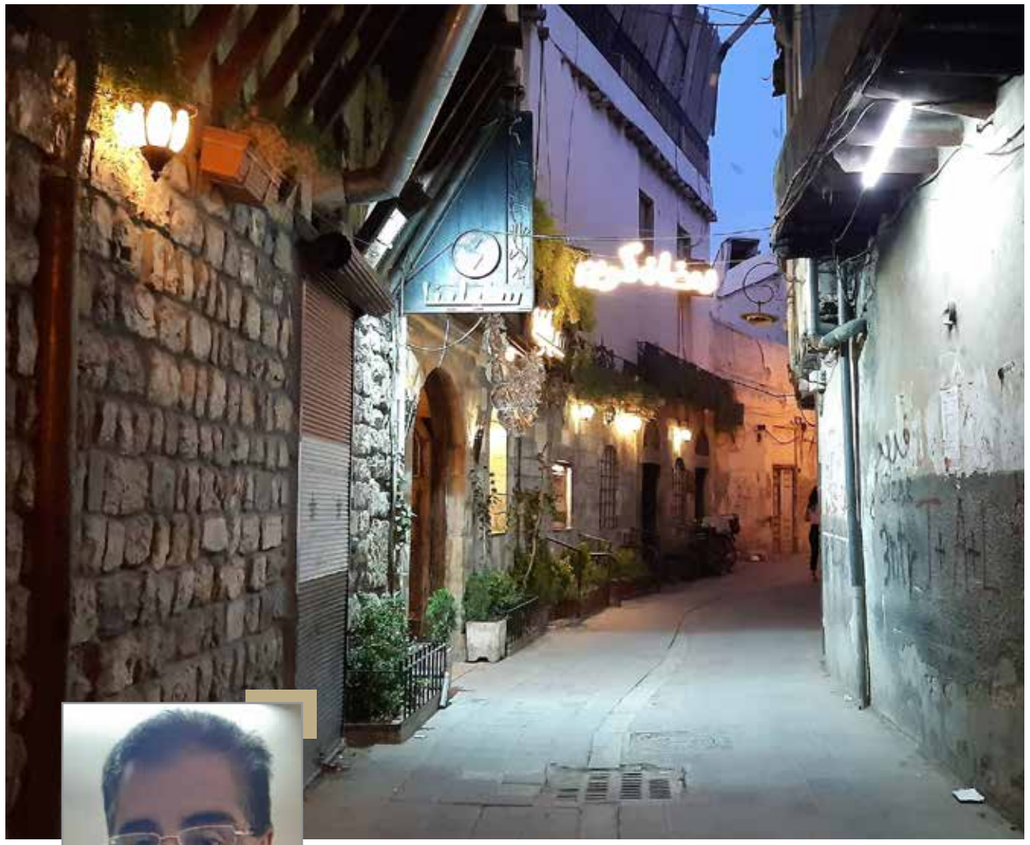

عادات وتقاليد رمضانية في سورية

هشام عدرة
كاتب وصحافي ـ سوريا

ينتظر المسلمون السوريون كغيرهم من الشعوب الإسلامية قدوم شهر الصيام، شهر رمضان المبارك؛ ليعيشوا أجواءه الروحانية، ولإحياء تقاليده المتوارثة من الآباء والأجداد، والتي تغيّر كثير منها مع تطورات العصر الحديث.. فما إن يُعْلن ثبوت رؤية الهلال، حتى يتبادل الناس التهاني، ويضرب مدفع رمضان طلقاته المعهودة، ويتراكض الأطفال في الشوارع مرددين الأهازيج المتنوعة، ومنها: «هَل هلالك شهر رمضان سَبّتُوها.. سبتوها، سبتوها ما حلوها...»، فقد كان لمدفع رمضان بهجته ومكانته في نفوس كثير من الناس، حيث كان لا يفطر أغلب الناس في دمشق والمدن السورية إلّا على صوت المدفع، والمدفع في السابق كان ينصب في الأماكن المرتفعة، وله شخص متخصص يعمل عليه، حيث كان الأطفال والمراهقون يتجمعون حوله لرؤية المدفع وسماعه وهو يضرب، ويأخذ هؤلاء معهم إفطارهم، وهو عبارة عن خبز وبعض الطعام الخفيف. وكان المسؤول عن المدفع لا يطلق طلقته إلا مع رؤية أنوار المآذن تضاء، وعند الإطلاق يتحول الأولاد المنتظرين إلى كتلة من البهجة والهرج والمرج والتصفيق، وكأنهم في عيد!

وفي مجال الأكلات والحلويات والمشاريب الرمضانية، يتفنن السوريون في تقديمها على مائدة الإفطار، وفي السحور، فمائدة رمضان تحوي المآكل والمشارب أشكالاً وأنواعاً، حيث كانت تتبارى ربات البيوت بطبخ وتحضير أفخر أنواع الطعام والحلويات السورية المعروفة في شهر رمضان، وتنتشر الحلويات والمشاريب الرمضانية في أسواق متخصصة في دمشق، كالميدان والجزماتية وباب سريجة وساروجة، وفي أسواق أخرى في بقية المدن السورية. وقبل البدء بتناول المقبلات، هناك التمر، فهو أساسي على المائدة، وكذلك المشارب المخففة للعطش، وأهمها العرقسوس والتمر الهندي الذي ينتشر باعته في أسواق وحارات دمشق بلباسهم التقليدي، ويقومون بتعبئته بأكياس خاصة للصائمين الذين يأخذونه إلى منازلهم، وبعد الشراب والمقبلات هناك الطعام. وبعده تأتي الحلويات، وهي أساسية في مائدة الإفطار، وتختلف أنواع الحلويات حسب المواسم، فللشتاء حلوياته الخاصة به، وللصيف حلوياته، وكانت أغلب أنواع

الترحيب بالشهر الفضيل في حارات دمشق القديمة

تحضير القطايف وهي حلويات رمضانية تراثية سورية

الحلويات تصنعها النساء في المنازل.

وإذا كان للكبار في سورية عاداتهم وتقاليدهم في شهر رمضان، فإن للأطفال أيضاً عاداتهم وتقاليدهم في الشهر الفضيل، وإذا غاب كثير من عادات الكبار مع تطورات العصر، فإن الأمر نفسه ينطبق على الصغار، ويأتي في طليعتها (صوم درجات المئذنة)، وهو من التقاليد الجميلة التي مازالت قائمة في شهر رمضان حتى الآن، وتتلخص بتدريب الأطفال على صوم رمضان، من خلال طريقة بسيطة، تسمى «درجات المئذنة»، حيث يبدأ تدريب الطفل عليه منذ سن السابعة، إذ يقوم الآباء والأمهات بتدريب أطفالهم على الصوم تدريجياً منذ اليوم الأول حتى اليوم العاشر، فيصوم الطفل حتى أذان الظهر، ثم يتطور إلى أذان العصر، وبعدها إلى أذان المغرب يوماً في الأسبوع، ويلاحظون مدى تحمله الصيام، وهكذا يتدرّب الأطفال وكأنهم يصعدون درجات المئذنة درجة درجة..

حلويات احتفاء بشهر رمضان

وفي مجال التسلية واللعب، فبعد الإفطار كان الأطفال يخرجون إلى الحارات، حيث كانت بأزقة ضيقة يلعبون فيها ويمرحون حتى الليل، ومن ألعابهم هناك الصومانية وعسكر وحرامية والدوش والنبل وغيرها من الألعاب البسيطة.

كما كان لهم أناشيدهم الخاصة برمضان ـ حسب الباحث السوري عبدالرزاق الأصفر ـ ينشدونها في الأزقة والحارات الشعبية، ومنها قبل غياب الشمس، حيث ينتظرون مدفع رمضان فينشدون: «يا شمسية رمضان عجلي بالأذان، بطني لزقت بظهري، ما تم غير العظام»، وفي العشر الأخير من رمضان يودعونه بأنشودة «يا شهرنا عليك السلام»، إذ يرددونها مع المؤذن قبل أذان العشاء.

ومع غياب هذه الأناشيد الخاصة بالأطفال، غابت أيضاً ألعابهم وتسلياتهم البسيطة، وتلك التي كانت تقدّم لهم من قبل أشخاص كبار متخصصين في هذه التسالي في الشهر الفضيل، ومنها: «كراكوز وعيواظ»، و«خيال الظل»، التي توازي تسلية الحكواتي للكبار في المقاهي الشعبية، حيث مازال الحكواتي موجوداً في بعض مقاهي دمشق، كذلك

المعروك معجنات رمضانية دمشقية تقدم طازجة وطرية

تحضير شراب العرقسوس في أحد مطاعم دمشق وهو مشروب رمضاني يخفف العطش

لايزال هناك عدد من المتخصصين في هذا الفن التقليدي العريق (خيال الظل)، حيث دخل قبل سنوات قليلة قائمة «اليونسكو» لحماية التراث غير المادي، الذي يعتمد على تحريك الدمى وتصوير مقالب بين شخصيتي العمل (كراكوز وعيواظ)، يؤديها شخص واحد يحرّك الدمى من خلف الستارة، كما يغير صوته ليؤدي صوتين مختلفين، كان هناك أيضاً «صندوق الفرجة أو العجائب أو صندوق الدنيا»، وهو «تلفزيون أيام زمان»، حيث كان يظهر في رمضان وفي الأعياد، ويتحدث عنه الباحث منير كيّال قائلاً: «تعا اتفرج يا سلام... على عجايب الزمان».. ولاتزال هذه المقولة التي يدلل بها حامل هذا الصندوق لدعوة الأطفال إلى مشاهدة عروضه، حيث كان ذلك الرجل يحمل صندوقه على ظهره، ينتقل بين الحارات والأزقة، يحثُّ الأطفال على فرجة ما بداخل صندوقه من عروض أو مشاهد، وما إن يحط الرجل صندوقه عن ظهره، ويضع كرسي الفرجة الذي يتسع لأطفال عدة، بمقابل عدسات الفرجة، حتى يتسارع الأطفال للفرجة، فيحتل كلٌّ مكانه على ذلك الكرسي مقابل عدسة من عدسات الفرجة المكبرة التي بمقدمة الصندوق.. كان أجر الفرجة لا يزيد على نصف القرش، وقد يكون بضع حبات من الجوز، أو رغيف خبز، أو حتى حفنة من الزبيب.

ويروي الفنان التشكيلي السوري نذير بارودي، الذي عاش في طفولته هذا النمط الفني التقليدي في حي العمارة الدمشقي القديم، ووثّقه في عمل تشكيلي جميل، يشرح بارودي: «إن صندوق العجائب، أو ما يطلق عليه صندوق الدنيا، يعتمد على قيام شخص بالعمل عليه، ويأتي به في أيام رمضان والعيد إلى حارتنا، فيجتمع الأطفال حوله،

حلويات رمضانية دمشقية

خبز الناعم معجنات دمشقية رمضانية تراثية

وندفع لقاء مشاهدة المناظر داخله فرنكاً سورياً، وكان يشكّل لنا كأطفال شيئاً غريباً وعجيباً، حيث لم تكن التلفزيونات موجودة في تلك الأيام».

ومن ألعاب الأطفال التي كانوا يتسلّون بها في شهر رمضان، لاسيما إذا جاء الشهر الكريم في فصل الصيف، حيث النهار طويلاً، والمدارس أغلقت أبوابها، والطقس لطيف بعد الإفطار في المساء.. كان أطفال الحارة الواحدة يجمعون بعضهم، ويلعبون ألعاباً بسيطة في الأزقة الضيّقة التي كانت ملكاً للأطفال، يلعبون فيها، ويمرحون حتى ساعات الليل، ومن هذه الألعاب الدش والنبل، وهي تعتمد على حفرة صغيرة في الزقاق مع عصاة ونبل (عصا صغيرة)، يضعون النبل في الحفرة، ويقذفونها بمباراة بسيطة، ومن يتمكن من قذف النبل لأبعد نقطة في الزقاق يكون هو الفائز على زملائه، وهناك لعبة «النقيفة» أو «البريمة» وتشبه النبل، وهي عبارة عن عصا صغيرة وأخرى كبيرة، توضع العصا الصغيرة على طرفي حجرتين، وترمى من قبل الولد بوساطة العصا الكبيرة، أما «الدش» فهو عبارة عن حجر صغير، يقذفونه بمشط قدمهم في ملعب بسيط يخططونه على الأرض فمن يوصله للأخير دون تلكؤ يكون هو الفائز، ولعبة الدش كانت خاصة تقريباً بالفتيات الصغيرات، فيما النبل للأولاد الذكور الذين يتسلون أيضاً بلعبة بسيطة هي «عسكر وحرامية» وأخرى تسمى «الطميمة أو المستخباية»، حيث كان يخبئ أحدهم نفسه خلف مكان ما في الحارة، ويبحث عنه الآخرون، فمن يجده يكون هو الفائز، ويكرّمه زملاؤه بأهزوجة بسيطة. ولكن حالياً لم تعد الحارات ضيّقة، فقد أصبحت الشوارع عريضة ومملوءة بالسيارات، ولم تعد ملكاً للأطفال، ولذلك غابت هذه الألعاب البسيطة والتقاليد العفوية عن حياة الأطفال، خاصة مع انتشار وسائل تسلية أخرى كألعاب الحدائق والآتاري وألعاب الكمبيوتر في مقاهي الإنترنت ووجود الأطفال مع الأهل في البيوت يتابعون مسلسلات رمضان التلفزيونية.

وكما للأطفال تقاليدهم وعاداتهم في الشهر الفضيل، فإن للنساء في الشام أيضاً تقاليدهم الخاصة بشهر الصيام، وقد غاب كثير منها، فكنّ يسهرن في منازلهنّ أو عند الجيران، أو عند قريباتهنّ، ولهنّ لعبة مسلية خاصة بهنّ تسمّى «البرجيس أو البرسيس»، وهي لعبة شعبية تتعلق بمدة انتهاء لعب الدورة الواحدة، فقد يكون من خمسة وأربعين دقيقة حتى ساعة، وقد يستمر اللعب دورات متتابعة عدة؛ أي تأخذ زمن سهرة من أدوات البرسيس (الودع)، ويدعى الزهر والصدف أيضاً، وهو مكون من ست ودعات، وهذا الودع مصنّع جميعه من الصدف الحجري، وهي قطع صدفية صغيرة بحجم بزرة حبة الزيتون أو أكبر قليلاً، والودع أو الصدف له لون أبيض.. كما كانت سهراتهنّ في السابق تشهد المرح والفكاهة والأحاديث الخاصة بهنّ، وأحياناً العزف الموسيقي والغناء إذا كانت إحدى الموجودات الساهرات تجيد العزف والغناء. وحالياً فإن التلفاز قضى على كل هذه السهرات النسائية الجميلة، حيث أصبحت أغلب النساء تفضّل متابعة المسلسلات في منازلهنّ أو لدى الجيران والأقارب.

وإذا كانت دمشق تعيش الشهر الفضيل بعادات وتقاليد جميلة غاب كثير منها، فإن ثاني المدن السورية (حلب)، كان لها عاداتها وتقاليدها في رمضان حدّثني عنها الفنان الحلبي محمد خير الجراح، متذكراً تلك التقاليد الحلبية التي عاشها قبل عقود عدة: في رمضان يشعر الإنسان بأن مدينة حلب صارت حارة واحدة، وتعيش الطقس الرمضاني السنوي، ويكون هناك انتظام بالأوقات، حيث يخرج الحلبيون من عملهم في الوقت نفسه تقريباً، وتشعر بأن المدينة فارغة تماماً في فترة الإفطار، بينما قبل الإفطار يكون هناك إقبال كثيف من الحلبيين على المحال التي تبيع المشاريب والمأكولات، لاسيما تلك المحال التي تبيع المشروبات المخصصة للشهر الفضيل، مثل العرقسوس والتمر هندي، وكذلك يكثر بائعو حلوى «غزل البنات»، الذي يحضره حلبيون مختصون بشكل يدوي، ويكون ساخناً، وهناك لقمة القاضي (العوامة)، والمعروك (معجنات رمضانية معروفة بدمشق أيضاً)، وفي حلب له خصوصية عن دمشق، حيث يحضره الحلبيون بشكل منوع، فيحشونه بشكل مختلف، ومنها حشوة بالقشطة والجبنة وجوز الهند والتمر، حيث يتفنن الحلبيون بطريقة تحضير المعروك، وبعد وجبة الإفطار لابد من وجود عادة اسمها «تكبيسة المعروك والجبنة»، مع كأس شاي، وهناك حلوى خاصة برمضان، ومنها «بقلاوة بالكرز». كذلك هناك عادة حلبية بعد الإفطار هي «الرمضنة»، حيث العائلات الحلبية تتناوب في زيارات بعضها، وهذا عرف حلبي خاص بالشهر الفضيل، له دلالات اجتماعية جميلة. ويتذكر الجراح الحكواتي والسهرات الرمضانية الحلبية التي تتم بعد صلاة التراويح التي كان يحضرها، وتتضمن مغنىً وطرباً (حيث حلب مشهورة بطربها الأصيل)، وللأسف هذه السهرات قلّت بسبب التلفاز والمسلسلات الرمضانية.

كراكوز وعيواظ تسلية الأطفال في رمضان حيث كان الكراكوزاتي يقدمها في مقاهي دمشق الشعبية

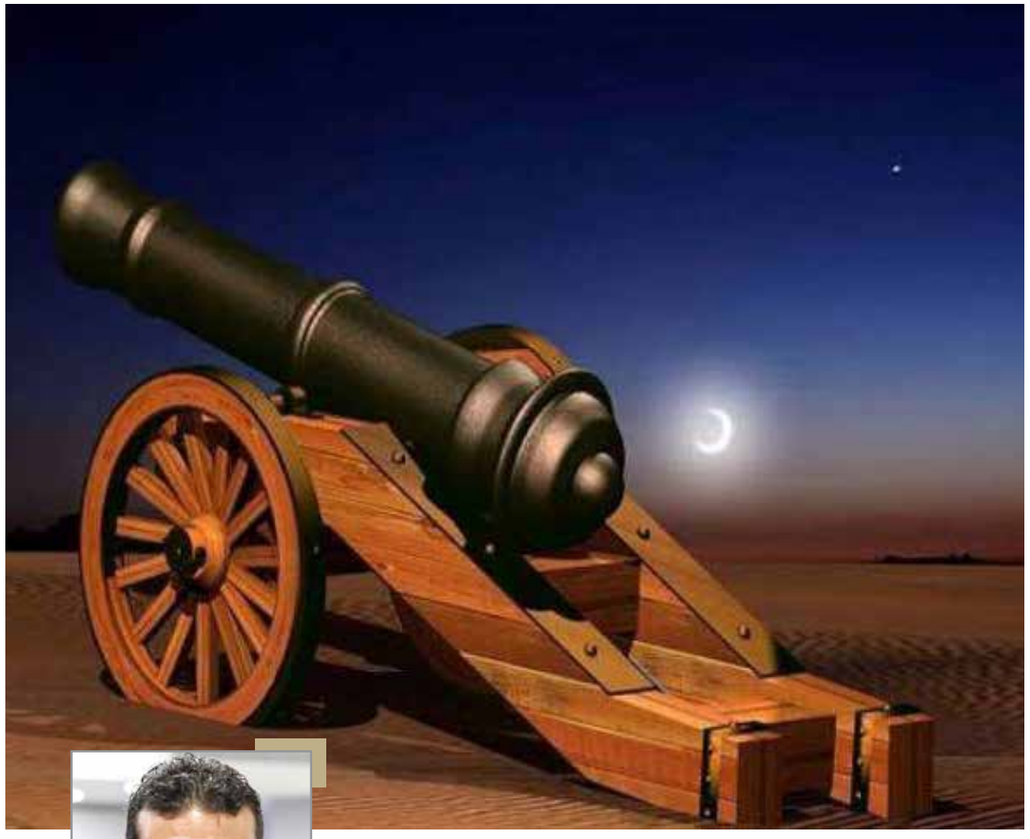

افطر يا صايم ع الكحك العايم

تراث شهر رمضان المندثر

د. أحمد إبراهيم الشريف
كاتب - مصر

يحمل شهر رمضان المبارك تراثاً كبيراً يمتد عبر الزمان، وفي التاريخ المصري حرص الفاطميون - عندما كانوا يحكمون - على تحويل شهر رمضان إلى «احتفالية» كبرى، فظهرت موائد الرحمن والاحتفالات المختلفة، وبعدما مضى الفاطميون ظل المصريون حريصين بشكل كبير على هذه الاحتفالات وتلك الطقوس، وعلى الرغم من انتشار الأفكار الاستهلاكية والحداثية، لكن التراث الاحتفائي بشهر رمضان لا يزال يُقاوم، وإن اتخذ شكلاً استهلاكياً مرتبطاً بالطعام والشراب.

لا ينكر أحد أن العديد من الأشكال التراثية المحببة في الحياة المصرية قد تغيرت كثيراً، ومنها ما كان مرتبطاً بشهر رمضان الكريم، ولذلك سنستعرض معاً، يوماً من إحدى القرى في صعيد مصر، كما كانت تعيشه في شهر رمضان في نهايات القرن العشرين، وقبل أن تصيب العولمة كل جنبات الحياة هناك.

أول الفرحة.. رؤية الهلال

يختلف الحال وتدب الفرحة في أرواحنا منذ ظهر يوم التاسع والعشرين من شهر شعبان، وتبدأ البيوت في الاستعداد لشهر رمضان، فيعاد ترتيب الحجرات، وتنظيف البيت، ثم يبدأ الأطفال في التوافد على المسجد مصحوبين بنية المحافظة على الصلاة والاستقامة في شهر رمضان، وبعدها نصلي المغرب، نبدأ في التطلع إلى السماء، ثم تتضارب الأقوال بين قائل إنه لمح الهلال، وآخر يصر على أنه لم ير شيئاً، لكن قرب الساعة الثامنة مساء، تقطع المذيعة الجميلة الإرسال على التلفزيون، الذي لا يحتوي إلا على قناتين يتيمتين، وتبدأ كلامها «كل سنة وحضراتكم طيبين، أعلنت دار الإفتاء المصرية أن غداً هو أول أيام شهر رمضان المبارك، أعاده الله عليكم بالخير واليمن والبركات».

نحن عادة لا نسمع منها إلا جملتها الأولى فقط، وننطلق في الدروب نهتف «بكرة صيام.. بكرة صيام»، ثم نقرر أن نسهر حتى السحور، ونقاوم النوم، لكنه يغلبنا، لكن قبل الفجر يحرص أهالينا على إيقاظنا.

السحور الأول.. طعم الفرحة

السحور الأول لا يُنسى أبداً، نقاوم النوم، فنغسل وجوهنا بالماء البارد، بينما من بعيد يأتي صوت أحد شباب القرية المتعلمين أخذ على نفسه «تسحير

الناس»، فيدخل المسجد ويروح يتغنى بما يحفظه من تواشيح، ثم نلتف حول «طبلية» عليها بيض وجبن وبعض الفول، ونأكل لقيمات قليلة، لكنها بطعم الفرح، وعندما نتوقف، يكون قرآن الفجر قد بدأ يتهادى مع الليل، يحمل خشوعاً وجمالاً، كأننا نسمع القرآن للمرة الأولى.

لا ننام لكننا نتوضأ ونذهب للصلاة، هذا الأمر لا نحافظ عليه إلا في الأيام الأولى فقط، ثم يبدأ عقدنا في الانفراط ولا يحافظ على صلاة الفجر إلا أولو العزم منا.

نهار رمضان.. مراقبة الوقت

ولأننا أبناء قرى زراعية، فإننا نستيقظ في الصباح الباكر، نستيقظ ونحن نشعر بالجوع والعطش، كما لم يحدث من قبل، لكننا نقاوم، نذهب للحقل، ونعمل في صبر، وعندما نعود قبل الظهر، نرى أمهاتنا وقد أخرجن البلح من جوال قديم، وبدأن في غسله بالماء الدافئ، ثم وضعه في اللبن الرائب وتركه حتى يلين، ويكون جاهزاً على الإفطار، فنمد أيدينا ونأخذ بعض البلح المغسول ثم نضعه في جيوبنا بجانب بعض حبات النبق التي حصلنا عليها من الحقل على أنها زادنا لوقت الإفطار، ثم نذهب لقراءة جزء عمّ من القرآن الكريم والاستعداد لصلاة الظهر.

أصعب وقت في نهار رمضان هو ما بين الظهر العصر، إنه لا يمر تقريباً، نحن لم نعتد نوم الظهر؛ لذا لا ننام، والتلفزيون ليس به شيء يذكر، وليس لدينا صبر على القراءة، فنخرج إلى النهر، لو كان الصيف، فإننا نلقي بأنفسنا في الماء الجاري، ونترك الماء البارد يرطب أجسادنا، لكن السباحة تجعلنا نشعر بالجوع أكثر، فنخرج من الماء مجهدين، ونعود من هناك حيارى لا نعرف ماذا نفعل.

يزورنا الشيطان مئات المرات، يغرينا بتناول بلحة أو حبة نبق أو حتى شرب القليل من الماء، ولن يرانا أحد، لكننا نقاوم، وما أن يؤذن العصر، حتى نأخذ كرة القدم، ونظل نلعب، لكنه لعب مجهد، ليس به قوة وحماسة ما كنا نفعله قبل رمضان، وإن ظهر على أحدنا أن به حزماً وقوة، فإننا نتهمه بأنه مفطر، وأنه «جحش رمضان»، وحين تبدأ الشمس في التواري خلف النهر نعود.

ندخل البيت فنشم رائحة الطعام المعد، فتصرخ بطوننا طالبة تذوقه؛ لذا لا نحتمل البقاء في البيت، فننطلق إلى الجسر ننتظر الجد أحمد شحاتة الذي سيؤذن معلناً انتهاء صيامنا.

صوماً مقبولاً وإفطاراً شهيّاً

كنا نصل تباعاً، فنقف صفاً واحداً وعندما يصعد الجد أحمد شحاتة عتبة الكوبري، يتلفت يميناً ويساراً وينظر في ساعة يده مرات عدة وعيوننا معلقة بوجهه، ثم يستوي ناحية القبلة، ويرفع كفيه كي تحيطان بوجهه، ويهتف «الله أكبر...»، فننطلق مسرعين متنافسين إلى بيوتنا، ونحن نهتف بملء حناجرنا «افطر يا صايم ع الكحك العايم.. افطر يا عسكر ع الكحك أبو سكر»، ثم نخرج ما اكتنزناه من تمر وحبات نبق فنأكلها.

ندخل البيت مندفعين نمد أيدينا متسابقين على بعض عصير الليمون، أو قليل من الكشك، وطبق البلح باللبن، ثم نضع الطبلية، ويوضع الطعام، الذي يأتي شهياً، كأننا لم نأكل من قبل.

التلفزيون يذيع بعض البرامج اللطيفة، مثل «بوجي وطمطم» أو «فوازير فطوطة» أو فوازير «نيلي» واستعراضات «شريهان»، ثم يبدأ المسلسل العربي، وقبل أن ينتهي نكون قد أسرعنا إلى المسجد لصلاة العشاء والتراويح، ولم يكن الشيوخ يطيلون بنا في الصلاة، نصف ساعة تقريباً ونعود إلى بيوتنا.

ومرة أخرى، نحاول السهر، ونعد أنفسنا بالبقاء مستيقظين حتى وقت السحور، لكننا فجأة نروح في النوم، ونستيقظ على يد رقيقة توقظنا قبل الفجر، بينما يأتي من بعيد صوت الشيخ نصر الدين طوبار «سال دمعي، ولولا غربتي ما كان دمعي يسيل؟».

إحياء التراث
في رمضان

صبحة بغورة
باحثة - الجزائر

تتجه معظم وسائل الإعلام في الدول العربية والإسلامية، خلال شهر رمضان الكريم، إلى تعظيمه بتقديم برامج التوعية الدينية والثقافية والأعمال الفنية التاريخية الأصيلة التي تناسب محتواها طبيعة الشهر الفضيل، وهي لا تكاد تنفصل عن الطابع الثقافي الشعبي المميز لكل بلد قولاً وعملاً وسلوكاً وفكراً.

تحفل شبكة البرامج الإذاعية والتلفزيونية في الفضائيات في أيام شهر رمضان المعظم بالبرامج الدينية التي تقتنص أحسن الفن، وأعذب الغناء الديني والشعبي الذي يريح النفوس، ويلين القلوب، فتهدأ أعصاب الصائمين، وقد لامس الفن شغاف قلوبهم بالشجن. في أيام رمضان يضيف الفن الشعبي مزيداً من الجمال للوجه الحضاري، ويكسب التراث هالة من البهاء، تنسجم مع قدسية الشهر الكريم، فمن خلال الالتزام بالطرب الأصيل والأغاني الدينية والتراثية والعربية الكلاسيكية المنوعة، يزيد تألق الشبكة البرامجية، كما أن الشهر المبارك فرصة طيبة لتقديم الأغاني التراثية بالأدوات الموسيقية القديمة، وبالفنانين الشعبيين أنفسهم، سواء من خلال إعداد مسبق لتسجيلات خاصة دينية - تاريخية في الاستديو، أو بتصوير الجلسات الحوارية الفنية والغنائية، وبثها على المباشر.

يرتبط الفن الشعبي بداهة بالأصالة، وللتراث الفني بُعد حضاري راسخ ومستغرق في ثقافة كل شعب، بمقدار ما أبصر في تاريخه من آثار مادية وغير مادية شاهدة على حجم ما أسهم به من علوم ومعارف وتجارب وخبرات من أجل تطوير الحضارة الإنسانية، فيبقى التراث هو الأصل، والمعاصرة هي الواقع، ولا شك في أن السمو الروحي الذي يغشى المؤمنين الصائمين، يجعلهم أكثر قابلية لتلقي رسائل البرامج الدينية بمزيد من الاهتمام، وإذ يقدم الدعاة والعلماء والباحثون الدروس الإيمانية التي ترصد ما روي عن الرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، من خلال أحاديثه النبوية وسيرته وخصاله وسننه خلال الشهر الكريم، فإنهم لا

يغفلون عن مآثر السلف الصالح وكرامات الأجداد وأشهر عاداتهم وتقاليدهم في رمضان.

إحياء أيام وليالي شهر رمضان يجري الاستعداد لها مبكراً، بتهيئة المساجد وتجديد فرشها وسجادها وإعادة دهنها وتزيينها بالمزيد من الأنوار، وتزويدها بما تكرم به أهل الإحسان والهيئات المعنية بالمئات من نسخ القرآن الكريم، وعمل التوسعات الخارجية لاستقبال الأعداد الغفيرة من المصلين، خاصة في صلاة التراويح، وكلها تدخل في إطار السعي المحمود في اتباع السنن النبوية، وإحياء التراث الشعبي، فتحيي العديد من الجمعيات الخيرية وجمعيات إحياء التراث الإسلامي موسماً رمضانياً ثقافياً مبكراً، بتقديم سلسلة مميزة من الدروس الشرعية اليومية والأسبوعية، تقدمها نخبة الأجلاء من مشايخ الأمة، متزامنة مع تنظيم دورات علمية وفكرية حول «فقه الصيام»، يحاضر فيها كبار العلماء، وتستمر على مدى الشهر الكريم، مع فتح الاتصال المباشر من المواطنين؛ لتعميق أثر التفاعل الجماهيري في إبراز فضل الصيام، وتبجيل أيام الشهر المبارك، وتعظيم لياليه، بالإضافة إلى توزيع نشرات ومطويات تثقيفية لإحياء التراث في رمضان. لا نقول إن الدين الإسلامي من تراثنا، بل إنه أكسب تراثنا كل معاني الجمال، وفتح أوسع أبواب الرحمة، وخلال شهر رمضان تنعش المقتنيات التراثية ذاكرة الجيل الحالي بجمال وأصالة الماضي، وتتجهز المحال لاستقبال الشهر الكريم بمختلف السلع والمقتنيات التراثية التي تقبل العائلات على اقتنائها، تعبيراً منهم عن عدم تقبلهم إهمال التقاليد التراثية، وترى المواطنين المغتربين يحرصون على نقل ما يصنع بمهارة حرفية وإتقان إلى بلاد الهجرة، رغبة منهم في استذكار زينة شهر رمضان في غربتهم، مثل الهلال والفانوس التقليدي، وبعض أواني الفخار والزجاج والملابس التقليدية، بالإضافة إلى قيام بعض الجمعيات الدينية بتوزيع نشرات ومطويات تثقيفية لإحياء التراث في رمضان وتوسيع دائرة الثقافة الدينية في أوساط أطفال المدارس وصغار الشباب المراهق حول معنى وحقيقة الصيام والتذكير بخصائصه ومضاعفة الأجر فيه، ومفهوم الاعتكاف، وفضل ليلة القدر، وأحكام زكاة الفطر، وكيفية أداء صلاة العيدين، وأذكار ما بعد الصلاة، ومتابعة قراءة القرآن، والمقصود بالعمل الصالح، والتعريف بأبرز الآثار الإسلامية في المنطقة والروايات المتناقلة حولها.

من أفضل مظاهر التضامن الإنساني الواسع خاصة في رمضان، ما يعرف بموائد الرحمن ومطبخ الخيرات، إذ ينفق كل ذي سعة من سعته ابتغاء مرضاة الله، بتقديم وجبات الإفطار لإطعام الصائمين كتقليد ثابت، يجسد عملياً المعاني الرمضانية في التبرع للمحتاجين والأسر المعسرة؛ لهذا يتسم شهر رمضان المبارك بنكهة إيمانية صادقة، وله قدسية كبيرة في نفوس المسلمين، لهذا يحرصون على إحياء عاداتهم التراثية، وهذا التقليد يعد من التراث الحقيقي الخالص الذي يعرف بأنه مجموعة كاملة من التقاليد الأصيلة والآثار والثقافة، وما ينبثق عنها من ماديات ومفاهيم وسلوك وأنشطة معاصرة؛ ولذلك فأهمية إحياء التراث ترجع إلى كونه عامل تعزيز الروابط ما بين عبرة الماضي ونهج الحاضر، لتهيئة الدروس للمستقبل، وبذلك يضمن استمرارية تماسك المجتمعات، ويوفر لها عوامل تطورها بشكل أكثر سمواً، فالمطالبة بحفظ التراث هي دعوة لحفظ التاريخ من مؤامرات تزييف طبيعة الوقائع، ومحاولات احتكار الحقيقة لتشويه الأحداث المجيدة في حياة الأمة، ثم إنها أيضاً للاستفادة من التجارب الماضية، وتراكم الخبرات، ولاشك في أن تراثنا زاخر في مجال أصناف الأطعمة التي تعود إلى زمن قديم، وأنها ستجد طريقها إلى موائدنا في الإفطار، وتتميز هذه الأصناف بالتنوع وبالقيمة الغذائية العالية التي تفيد الصائمين في تحمل مشقة الصيام، ولعل تناول تمرات عند الإفطار من أبرز ما حافظ عليه المسلمون تأسياً بالرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم.

يكثر شراء مختلف المقتنيات التراثية قبيل حلول شهر رمضان للاحتفاء بلياليه، كشراء الفوانيس الملونة للأطفال، يجوبون بها في الأنحاء بعد الفطور مع ترديد الأغاني التراثية المألوفة، وشراء المباخر والزيوت العطرية، ومن أبرز ما يميز ليالي رمضان الكريم، هو الحفاظ على تجسيد دور شخصية المسحراتي الذي كان في الماضي يوقظ الصائمين لتحضيرهم لتناول وجبة السحور، حيث لايزال المسحراتي حتى وقتنا الحالي يجوب الشوارع والأزقة في كبريات العواصم الإسلامية، ويردد العبارات نفسها التي أصبحت تراثا مهماً في أعماق نفوس ووجدان المسلمين، لقد أصبحت المقتنيات التراثية حاجات أساسية لتعميق الشعور لدى الجيل الحالي، بمدى جمال وأصالة التراث، بعد أن اتجه معظمهم إلى الإلكترونيات، وما يطلبه عصر التحديث.

ينظر للتراث في الحضارة كالجذور في الشجرة، كلما تعمقت في التربة غاصت في الأرض تفرعت أغصانها وامتدت لأعلى وأورقت وأثمرت، وكانت الشجرة أقوى وأثبت في مواجهة التغيرات المناخية، وكذلك الحضارات تكون أقدر على تجاوز تقلبات الزمان، فتراثها الحي المادي وغير المادي شاهد على الأصالة فينمي بذلك في نفوس الأفراد والجماعات الإحساس بوحدة الهوية، ويعمق مشاعر الانتماء، ويعزز إرادة الاستمرارية في بناء مجتمع على أسس صحيحة من المرونة والسلمية والشمولية التي تتسع للجميع، وتحترم التنوع الثقافي وحرية الديانات وتشجع الإبداع البشري، وفي مجتمعاتنا الإسلامية حالياً تبدو أن هناك ضرورة ملحة لتنقية موروثنا الشعبي مما علق به من نواقص يخشى أن تؤدي إلى إحداث شروخ في منظومة القيم الأخلاقية والقواعد العرفية التي دامت قروناً، بسبب إفرازات الظروف العالمية الراهنة، التي تسودها أزمات مرحلية متعاقبة، استهدفت تشويه وعي الأمة الإسلامية وعقيدتها، وتسويف أفكارها، والنيل من قيمها الثابتة، ولعل مناسبة حلول شهر رمضان المعظم فرصة طيبة لتجديد التأكيد على الاعتزاز بالتراث العربي الإسلامي، وأدعم كل جهود التمسك به كأساس متين لبناء مجتمع قوي البنيان وراسخ الأسس.

رمضان زمان أول

ميسون يوسف الأنصاري
كاتبة – الإمارات

تبدأ التحضيرات لاستقبال الشهر الكريم عند الإعلان عن رؤية هلال شهر شعبان، عندها تبدأ النساء بالتخطيط مع بعضهن في مجموعات، وفي الغالب تختار كل مجموعة السيدة التي لديها بيت واسع حتى تجتمع المجموعة هناك في كل يوم، ولإنجاز المهام المنوطة بهن، وحسب ما تستغرق من وقت، أما المواد فتأتي بها السيدات، كل حسب ميزانية بيتها، ثم تحملها معها بعد الانتهاء من إعدادها كالطحن أو الجرش أو التنقية أو أي خدمة أخرى.

أولى تلك المهام هي خياطة ملابس عيد الفطر التي تأخذ وقتاً أطول في إعداد التطريزات المناسبة لها، كل حسب ذوقه، مثل «رسم الطار (التطريز)، الخوص: وهي خيوط فضية أو ذهبية تستعمل لتخويص غطاء الرأس أو الملابس، التلّي، البراقع»، وبعد الانتهاء من كل تلك التحضيرات، يجمعن كل ما صنعن مع الأقمشة، ويأخذنها إلى الخياطة التي ستقوم بخياطتها، أما بالنسبة للرجال، فهناك خياط الفريج، ويتفق معه على خياطة الكنادير التي غالباً ما يوفر أقمشتها البسيطة الخياط نفسه.

هناك أيضاً مهمة تحضير البهارات التي ستستخدم في طبخ الطعام، والتي تشترى من السوق كبهارات صحيحة مثل الكزبرة الجافة، القرفة، الكمون أو السنّوت، الهيل.. إلخ، فتغسل وتنشر في صواني حتى تجف، ثم يقومون بدقها وطحنها بالرحى أو الهاون (المنحاز والرشاد)، وبعد البهارات يقومون بتنقية الأرز من (الشلوب)، ونسفه ثم يأخذون جزءاً منه لاستعماله مجروشاً أو مطحوناً حسب وصفة الطعام، ويفعلون الأمر ذاته مع حب الهريس، ويطحنون السكر والنخي (الحمص) أيضاً.

في الأسبوع الأخير تقوم السيدات بخبز الرقاق وتجفيفه وتكسيره إلى قطع صغيرة وذلك لاستعماله في عمل الثريد أو المرقوقة لإفطار رمضان، وعند تحري هلال رمضان في آخر ليلة من شعبان، وإن ثبتت رؤيته يضرب مدفع الحصن الذي هو عبارة عن تجسيد للحكم والحاكم، عندها يسمع أذان صلاة العشاء، فيتوجه الرجال إلى مسجد الفريج لإقامة صلاة العشاء والتراويح، وتقوم ربة البيت بتحضير وجبة السحور التي عادة ما تكون من الطعام المتبقي من اليوم المنصرم، ويبدأ الناس رمضان بصيامه وقيامه، ولكنهم مستمرون في أداء أعمالهم اليومية والاعتيادية في طلب الرزق، ويتم التركيز على حفظ القرآن الكريم، كما يركزون على الندوات الدينية التي عادة ما تقام في المساجد أو بيوت الشيوخ أو التجار المهتمين والقادرين على احتواء أعداد كبيرة من الحاضرين والراغبين في التعلم، وتسمى بالمجلس أو «ميلس فلان»، فحفظ القرآن يكون في «المطوع»؛ أي الكتاتيب صباحاً، حيث تتولى تلك المهمة المطوعة أو المطوع، ولكلا الجنسين، الإناث والذكور، أما الندوات الدينية فتعقد من بعد صلاة التراويح في المجالس، كما ذكرت سابقاً. عادة، وبعد صلاة العصر، تتنقل الفتيات الصغيرات أو الصبية أحياناً، حيث لا تخلو أيديهن من صحون أو أوانٍ يحملن فيها شيئاً مما صنعت الوالدة أو الجدة إلى الجيران أو الأهل في جميع أطراف الفريج، وعند اقتراب موعد أذان المغرب تخلو الطرقات من الناس، حيث يجلسون على مائدة الإفطار في بيوتهم بانتظار سماع مدفع الإفطار أولاً، وبعده مباشرة أذان المغرب، ليبدأ الرجال بتناول التمر والماء أو اللبن، ومن ثم التوجه للمسجد لأداء صلاة المغرب، أما النساء فيؤدين الصلاة في البيت، وعند عودة الرجال من المسجد تفرش سفرة الإفطار، ويتناولون الطعام، ويشربون الشاي والقهوة، ويتسامرون حتى يسمع صوت أذان العشاء، حينها يتوجه الرجال إلى المسجد من أجل أداء صلاتي العشاء والتراويح، وتكون أيامهم متشابهة ومتكررة حتى الأيام العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، حيث يكثر القيام والاعتكاف في المسجد خلال تلك الأيام العشرة تحسباً لليلة القدر المباركة.

رمضان في الإمارات..

طقوس وذكريات وعادات أصيلة

لينا فريح
كاتبة – مراود

يحتل رمضان مكانة خاصة في الذاكرة الشعبية الإماراتية، حيث يعدّ شهراً مميّزاً بالترابط الاجتماعي والروحاني، وبتقديم وجبات شهية خلال ساعة الإفطار والسحور، كما في تنظم الفعاليات الدينية والثقافية لتعزيز الروحانية والتراث.

في رمضان الإمارات قديماً، هناك عادات وتقاليد تميزت بالروحانية والترابط الاجتماعي، فقد كانت الأسر تتجمع لتناول وجبات الإفطار والسحور، فتسود أجواء الود والتراحم، كما هناك عادة تقديم الهدايا والتبرعات للفقراء والمحتاجين، التي تعكس قيم المساعدة والعطاء.

كما تشهد المساجد نشاطاً دينياً مكثفاً، إذ يحضر الناس الصلوات والمحاضرات الدينية، كما تأخذ الفعاليات الاجتماعية مكاناً مهماً في تجمع الأسر، حيث يتبادلون الزيارات، ويشاركون في الأنشطة الترفيهية.

تجلى في تلك الفترة أيضاً حرص الناس على الحفاظ على العادات والتقاليد الإسلامية، وكانت لديهم طقوس خاصة في تزيين المنازل وتجهيزها لاستقبال هذا الشهر المبارك.

يختلف كل شيء فيه، حتى الأكلات التي يتناولها الإماراتيون في هذا الشهر المبارك، ويتصدر قائمة هذه المأكولات:

الهريس

يتكوّن الهريس من اللحم والقمح غير المجروش أو المكسور، وله مِضراب خشبي كبير تُسحق وتضرب به حبات الهريس، وفي الماضي كان حب القمح يدق باليد، ويستخدم في دقه ما يسمى بالمنحاز (الياون أو الهاون).

ويتبعه في القائمة:

اللقيمات

وتتكوّن من الطحين الأبيض والسكر والبيض والخميرة والماء، إلى جانب بعض النكهات العطرية الطبيعية، كالزعفران وماء الورد.

وغيرها من الأكلات الأخرى مثل: ثريد اللحم، المضروبة، السمبوسك أو السمبوسة.

مدفع رمضان قديماً:

يشكّل مدفع رمضان جزءاً لا يتجزأ من عادات وتقاليد الإمارات منذ القرن التاسع عشر، وتحديداً خلال فترة حكم الوالد المؤسس المغفور له، بإذن الله، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، كما يستقطب السكان والسياح كباراً وأطفالاً لمشاهدته في أثناء إطلاق القذيفة التي تعلن حلول وقت الإفطار، ويمكن سماعه عن بعد 8 إلى 10 كيلومترات.

يقوم أحد أفراد الجيش أو الشرطة بتنفيذ هذا التقليد، مع توخّي كل احتياطات الأمن والسلامة، حيث يستمتع العديد من الأفراد بمشاهدته أو سماع صوت المدفع الذي يعد من أجمل عادات الإمارات في رمضان.

شهر رمضان المبارك في دولة الإمارات له عاداته وتقاليده وطقوسه وذكرياته في كثير من جوانب الحياة التي يعيشها الجميع، وتلك العادات والتقاليد والطقوس الرمضانية تختلف في الإمارات عن سائر أشهر السنة، إذ إنه شهر صلة الرحم واللقاءات الأسرية وجلسات السمر حتى السحور، ولرمضان في الماضي نكهته المختلفة، فمع قدومه كل عام تعود ذاكرة الآباء والأجداد إلى الوراء عشرات السنين، لتسترجع بعض الذكريات الجميلة والأحداث الأجمل المرتبطة بهذا الشهر الفضيل، التي كانت تُضفي عليه سعادة وتميزاً. الفرحة بقدوم شهر رمضان لا تساويها فرحة، هذا الشهر العظيم الذي يحتل مكانة خاصة في قلوب المسلمين، على اختلاف ثقافاتهم وعاداتهم، حيث يختلط فيها التراث الديني بالشعبي.

رمضان في الذاكرة العربية ..

عادات.. فنون.. انطباعات

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

كثيرة هي الكتب التي تبحث وتتبع تاريخياً شهر رمضان في الذاكرة المحلية والعربية، ولكن الكتاب الذين بين أيدينا اليوم، لكاتبه فؤاد مرسي، يستفيض بحثاً في الموضوع، ويعنى تفصيلاً بالمرتكزات والمشتركات الثقافية بين الشعوب العربية، والاحتفاء بالشهر الكريم بطرق وأساليب مختلفة في الدول العربية.

رمضان في الذاكرة العربية: عادات.. فنون.. انطباعات، هو كتاب من إصدارات معهد الشارقة للتراث في طبعته الأولى 2024م، ويقع ضمن 584 صفحة، ويتطرق في محاوره إلى وصف شهر رمضان ووحدة الوجدان، والاستعداد لاستقبال الشهر والعبادات والمظاهر الدينية خلاله، والعادات والتقاليد، والمعتقدات الشعبية، والعادات الغذائية، والمظاهر الاحتفالية خلال الشهر، كما يبرز الكاتب مظاهر الأسواق والمقاهي في شهر رمضان، والآداب والفنون والألعاب الشعبية المرتبطة بالشهر، والحرف الشعبية خلاله، وأخيراً انطباعات الرحالة والمستشرقين عن شهر رمضان في البلدان العربية.

مشتركات دينية وثقافية

تعيش الشعوب في الدول العربية خلال الشهر حالة احتفالية خاصة على المستويين الروحي والاجتماعي، كما يشير فؤاد مرسي في كتابه، ففيه تقام الاحتفالات الدينية، ومناسبة للترويح عن النفس واللقاءات الاجتماعية والمهرجانات الفنية والثقافية. وطبيعة الجسد تتغير حالتها في شهر رمضان على المستوى البيولوجي أو الروحي، فاختلاف عادات الطعام والنوم وينصرف الناس إلى العبادة، وتسود قيم التسامح والزهد، وبحسب الكاتب فإن مظاهر رمضانية كثيرة انحسرت وباتت في خانة الذكريات وجرفت عادات كانت تؤسس للبهجة والانشراح، بسبب سطوة الحياة الحديثة والتكنولوجيا، ما أجبر الأجيال الحالية على المضي في مسارات جديدة، فأصيبت المظاهر بالتشوش والتخلي أحياناً.

بشائر الشهر

الإشعار بحلول الشهر الكريم كان يتم عن طريق إطلاق المدافع والبنادق، وإشعال النيران بأعالي قمم الجبال، حتى يصل الخبر لجميع القرى، وعن بعض العبادات المشتركة يشير الكاتب إلى ختم القرآن خلال شهر رمضان، والاعتكاف في المساجد تطهيراً للنفس والذكر، وصلاة التراويح، وصلاة التهجد، وإحياء ليلة القدر، وموائد الخير وغيرها، بينما كانت بعض الأماكن ذات خصوصية تاريخياً في الشهر الكريم كالجامع الأزهر في القاهرة، والجامع الأموي في دمشق، وجامع الزيتونة في تونس، والحرمين الشريفين؛ المسجد الحرام والمسجد النبوي في السعودية، والمسجد الأقصى في فلسطين.

عادات وتقاليد

تتسم نهارات رمضان في الدول العربية بالهدوء، باستثناء الأسواق التي لا تهدأ على مدار الساعة، في حين يضج الليل بالأنوار واللقاءات حتى وقت الفجر، وتجتمع أغلب الدول العربية على تخفيض ساعات العمل تخفيفاً عن الصائمين، وهناك كثير من المشتركات، كما أسلف الكاتب بين الشعوب العربية، لكن تظل هنالك خصوصية لكل منها في قضاء الوقت في الشهر الكريم، ففي جزر القمر تنظم حفلات الزواج في شعبان ليعيش الزوجان معاً في شهر رمضان، وفي الجزائر فإن الشهر الوحيد الذي تدب فيه الحياة ليلاً هو شهر رمضان، وفي جيبوتي تفتح المساجد أبوابها وتنار طوال الأيام وتغلق المدارس 15 يوماً، وحين العودة للدراسة، فإن التركيز يتم على حفظ القرآن.

وتاريخياً ففي القرن الثالث من الهجرة أهل الباحة (مدر ووبر) في السعودية حالياً نهارهم عمل وليلهم لباس وراحة، ويحلو السمر للصبية والنساء، بينما يتجمع الرجال في دار شيخ القبيلة أو فقيهها لسماع حكايات عنترة بن شداد (العنترية) أو السيرة الهلالية أو ممارسة بعض الألعاب، ومن عادات دمشق انتظار «أبوطبيلة» لينادي بالناس لوجبة السحور والسهرات الاجتماعية، والالتفات للفقراء والفطور الجماعي. وفي المغرب، فإن الابتهالات الدينية تؤدى طوال الليل، وتكاد تنعدم البطالة، حيث يجد كل منهم مهنة رمضانية توفر له دخلاً، وهو ما تشهده كثير من الدول العربية، على حد قول الكاتب فؤاد مرسي.

في اليمن تمتلئ المساجد عند الظهيرة لأداء الصلاة، ويظل الناس في المساجد للذكر، ولطول الجلسة يصطحب بعضهم ما يسمى «الحبوة»، وهي حزام عريض يضم به جسده لقدميه، ما يساعده على البقاء لفترة أطول، وهو سائد في الجنوب، أما الشمال فيتكئون على المخدات، وتسمى «المتكى» بوضعية مريحة حتى صلاة العصر.

وفي لبنان، كما في دول عربية أخرى، يعوّد الأهالي أبنائهم من صغار السن على الصوم بضعة أيام من الشهر ليعتادوا الصيام، فيما يقوم الأطفال خلسة بتناول بعض الشراب والطعام، ويثبتون صمودهم أمام أهلهم، ومن العادات التي تساعد الأطفال على الصبر على الصيام، هي شك ليمونة أو برتقالة بكبش قرنفل واستنشاق رائحتها المنعشة.

وفي موريتانيا، عادة حلق شعر الرأس هي تقليد هدفه التبرك بما ينبت من شعر في الشهر، وتسمى «زغبة رمضان»، وتنظم حلقات العلوم الشرعية في البيوت والمساجد. وفي الإمارات، فإن موائد الإفطار الجماعي سمة من سمات الشهر، وتكون الموائد من الهريس والثريد والسمك والخبز واللحم والرطب، بالإضافة إلى الحلويات، وهي عادة من المشتركات في الدول العربية.

مائدة رمضانية

ولشهر رمضان عادات غذائية مشتركة، وأخرى تتبع البيئة المحلية بين الدول العربية، فيتفق على تناول وجبتي الفطور والسحور، ومنهم من يجزئ الفطور على مرحلتين تهيئة للمعدة، فيبدأ الجيبوتيون بحبات تمر مع لبن أو حليب أو عصير، ثم يهرعون لصلاة المغرب، وبعدها يتناولون الوجبة الرئيسة، وتتميز المائدة بالأرز واللحم والمعكرونة، ومرق الخضار، بينما يمتنعون عن السمك لاعتقادهم بأنه يسبب العطش. وفي جزر القمر، فإن من أهم وجباتهم الثريد والموز الأخضر المطبوخ مع سمك أو لحم والفواكه الحمضية. وفي المغرب، فإن المجتمع الفاسي ينقسم إلى فئتين، فئة تحرص على وجبة إفطار غنية ودسمة من اللحوم، وتؤخر وجبة العشاء حتى السحور، وفئة أخرى تفضل إفطاراً خفيفاً، وتقبل على عشاء دسم بعد العشاء، ويكون السحور خفيفاً، وبالطبع لابد من شوربة «الحريرة».

ويعدّ الأرز أساسياً في المائدة الرمضانية، وهو أكثر شهرة في مصر والخليج العربي وبعض دول المغرب العربي، والبريك يعد من الأكلات التونسية الأساسية في المائدة الرمضانية، والثريد هو طعام يكثر في الخليج والعراق وبلاد الشام وبعض دول المغرب على اختلاف مسمياته، وكذلك السمبوسة أو السمبوسك، فهي رقائق القمح المحشوة باللحم أو الخضار أو الجبن، والشوربة على اختلاف أنواعها.

وتعد الكبسة من أهم الوجبات الرمضانية في السعودية، بينما الكسكسي له مكانته في المغرب العربي، والمضروبة، وتتم باللحم أو الدجاج مع الجريش في الإمارات والبحرين وعُمان، كما تشتهر فلسطين بالمفتول والمسخن والمقلوبة، ومن أبرز المشروبات الرمضانية في عموم الدول العربية: الأبريه، أزريك، البصام، التمر الهندي، الخروب، الخشاف، الدفين، السوبيا، الشاي أو الأتاي، العرقسوس، وغيرها.

فن العدساني

علي العشر
خبير تراث فني
معهد الشارقة للتراث

فـن العدسـاني مشـتق مـن فـن الفجـري، وهـو فـن ترفيهـي، وليـس بعمـليّ؛ أي أنـه يـؤدى في أثنـاء السـمر والترويـح عـن النفـس، مـن قِبـل البحّـارة وأصحـاب أهـل البحـر والغـوص، حيـث إن هـذه الفنـون الترفيهيـة عـادة مـا تـؤدى بعـد رجـوع الغواصـين مـن الغـوص، وغالبـاً مـا يؤدونهـا في المجالـس أو في دور الفـن.

يـؤدى فـن العدسـاني بطريقتـين وبنوعـين مـن الآلات، إمـا مـع طـيران؛ بمعنـى طبـل لاعـوب وعـدد خمـس أو سـت طـارات، ومـرواس وزوج طـوس.

أو يـؤدى مـع إيحـال، والإيحـال مفـرده إيحلـة؛ أي جـرة المـاء التـي تصنـع مـن الطـين المحـروق، وتسـتخدم للعـزف الإيقاعـي في الفنـون البحريـة، فتكـون الإيقاعـات المسـتخدمة طبـل لاعـوب وعـدد خمسـة إيحـالات ومرواس وزوج طـوس.

في بدايـة هـذا الفـن وقبـل الإيقـاع، يبـدأ النهـام بمواويـل ملحنـة مـن الأزهريـات عـلى حطـات تناسـب هـذا الفـن، وتسـمى هـذه الطريقـة بالأجريحـان؛ أي بمعنى أن النهـام يجـرح، وبعـد الأجريحـان يدخـل في الغنـاء مباشرة مـع العـزف الإيقاعـي، حيـث يسـمى هـذا أحـداي؛ أي يحـدي النهـام بالغنـاء، ثـم تغنـي المجموعـة معـه، حيث يتـم ترديـد أبيـات الزهريـة التـي يغنونهـا حتـى تنتهـي، وبعدهـا يدخـل النهـام عليهـم بالنهمـة داخـل الغنـاء، ويسـتمر ينهـم حتـى ينهـي مـا عنـده مـن الـكلام، وعليـه يعتـبر هـذا نهايـة الفصـل.

ومن الزهريات التي تغنى في فن العدساني ما يأتي:

أ- «أزهرية ارحم»:

ارحم يا الله
ارحم يا الله يا الله
آه والمراد والمراد
الله وشيل الله يالعيدروس
يا رب يا محيي النفوس
الله وشيل الله يا شمس الشموس
يا الوداع يالعيدروس

ب- «أزهرية يا حيف»:

يا حيف ظبي سطابي
راعي الحجل والمعنة
وشحيلتي واحتيالي
من طال هجره محني
هساع هساع
يا داخل القلب هساع
اشحيلتي والخبر شاع
سبعة مراكب وبالتيل
دار الحبيب خدوها
وغصون قلبي رعوها
ياليت من كان معاهم
اجفو بروحي وخدوها
وشحيلتي وعذابي
هذا المقدر عليها

«فتاة العرب».. القمر حين اكتمل

محمد عبدالله نور الدين
كاتب وناقد ـ الإمارات

هنـاك أسـماء نسـائية معـدودة في تاريـخ الشـعر الشـعبي في الإمـارات، بـدءاً مـن ابنـة الماجـدي بـن ظاهر، وقصيدتهـا اليتيمـة، وبـرزت مـن هذه الأسـماء الشـاعرة عوشـة بنت شملان، وهداية السـاكوب، وموزة بنـت جمعة، وغيرهن، لكـن تبقى عوشـة بنت خليفة (فتاة العـرب)، والتي سـنتناول قصيدة لهـا في هذا المقال، علامـة فارقة في تاريـخ الشـعر الشـعبي في الإمارات.

ولكن وجبت قبل ذلك الإشـارة إلى ظاهرة وجـود شـاعرة في المجتمـع المحافظ، كـون ذلـك يعـد أحـد أهـم التحديـات الكبيرة التي واجهتهـا وتواجهها المرأة في مجتمعاتنـا. كان الرجـل في عـصر ما قبـل البـترول، يحمـل المسـؤوليات المجتمعية، والمرأة تسـاعده في شؤون المنزل، بالإضافة إلى مسـاندته في بعض الشـؤون الاقتصاديـة، ولكنهـا لم تكـن تمثّل صوت عائلتها أو صوتها الشـخصي، كون المجتمـع المحافظ يضـع ذلك ضمن مسـؤوليات الرجـل، فهو المتحـدث عن نفسـه وعن عائلتـه وعن زوجتـه وبناته؛ لذا فإن الصوت الشـعري للمـرأة لم يكن ليصدح في آذان المجتمع بسـهولة صوت الرجل.

وعليـه، فإن المـرأة التي كانـت تحظى بمسـتمعين لشـعرها كانت تفرض على المجتمع جزالة شـعرها، ويؤكد الشعراء الرجـال ذلك بمجـاراة قصائدهـا أو الرد عليها .

ولكن يعد اسـتخدام صيغـة المذكر في الخطاب أحد أهم ملامح الشـعر الشعبي التقليـدي في الإمـارات، ولم يكن الرجل يتجـاوز بسـهولة مخاطبة المـرأة في شـعره بصيغـة المؤنث، فماذا سـتكون الحال مـع المرأة نفسـها، حينـما تكون شـاعرة؟ والمفارقة أن المـرأة، تفقد تاء تأنيـث الشـاعرة لتصبح «فلانة الشـاعر» كـ«عوشة الشـاعر»، وهي دلالة على أن الخطابة نثراً أو شـعراً تحتـاج إلى حنجرة الرجـال القويـة، بعكـس أنوثـة المرأة بحيائهـا وبخدرها المقـدّس، فتميل إلى الهدوء والسـكينة والصـوت المنخفض، وقـد يكـون ذلـك أيضـاً مـن أصعـب المهـام التي واجهـت وتواجـه المرأة في خطابها الشـعري؛ لذا كانت مقارعة الرجال في البدء الوسـيلة المثلى لإثبات وجود فن وفكر نسـائي يسـتطيع فرض وجـوده في المجتمع.

في هـذه القصيـدة لفتـاة العـرب لا تجد مـا يشـير إلى جنـس الشـاعر، ولا أقـول إنهـا تسـتخدم صيغـة الرجـل كونهـا اسـتخدمت صيغـة المتكلـم، وهـذه الصيغة بيضـاء تعبّر عـن المذكر والمؤنـث، وكذلـك الشـعر التقليدي له صيغة بيضاء، وهي صيغـة المذكر ولكن لا يعني ذلك أن الشـعر التقليدي شـعر رجـولي، وإنما قلـة الأصوات النسـائية هـي التـي ربطـت الصيغـة البيضـاء بالرجـال بدليـل أن الرجـل في الشـعر الشـعبي يتذلل ويسـتعطف المحبوب، ومـن الأولى عـدم فعـل ذلـك إن كان الشـعر يعبّر عن الرجولـة والقوامة، ولا يرتـضي بالخضوع والاستسـلام.

حد مثلي بات مشجنّه
حلم طيفٍ مرّ خطّافي
واغتنم من وجدي الونّه
يوم كلٌ بالكرى غافي
جرح في جاشي مخفنه
والخوافي ضربهن خافي

تنتهج «فتاة العـرب» في هذه القصيدة المدرسـة الشـعورية/ الرومانسية، من خـلال تعبير خـاص وداخلي عـما تعانيه مـن سـهاد وأرق مـن مـرور حلـم أو طيف المحبـوب، وهذا مـا جعلها تغتنم الفرصـة في كتابـة القصيـدة بتحويـل الأنـين والآلام إلى كلـمات وأبيـات، هذا أيضـاً نـوع مبتكر مـن الاسـتهلال الذي كان الشـعراء في المدرسـة التقليديـة ينتهجونه في البدء بذكر الأشـجان، وكأن الشـاعرة ضربـت عصفورين بحجـرٍ واحد، حينـما طوّرت مـن الاسـتهلال التقليدي لتقدمه بأسلوب المدرسـة الرومانسية.

لي محبٌّ مني و منه
حب مثل الجوهر الصافي
ليت باينقل لي المنه
كان قدره عنديه وافي
والوفا من فني وفنه
بينا ما يمشي خلافي
حيث لانه في العرب سنه
خص عند الناس الاشرافي

في هذه الأبيـات تعرّف «فتاة العرب» عن المحب الذي تسـبب في هذه الأزمة، ولا تلتف إليـه بصيغة الخطاب، كما سـتفعل في الأبيـات التي تـلي، ولكنهـا تهيئ لمخاطبته بعـد الأبيات السـبعة الأولى، حيـث في الأبيـات الثلاثة تتسـاءل عمن هو أسـوأ حالاً مـن حالهـا، وفي الأبيات الأربعـة التي تلي تمتـدح المحبّ إلى أن تصـل إلى الأبيات التاليـة، التي تلتفت من صيغـة المتكلّـم إلى صيغـة المخاطب، والالتفـات من صيغة إلى أخـرى هنا كان مـع تغيير عدد المسـتمعين، حيـث إنها في صيغـة المتكلم عـبرّت للجمع وفي الصيغـة التالية تخاطـب المفرد:

يا نديمي وصلكم جـنه
والبخت لي هوب مسعافي
حاليه يا زين مدعـنه
من ودادك م انقل الحـافي
لا تخيب فيك من ظنـه
خير و انتو حق و انصـافي
انت فرضي لي مصلنه
وانت وردي وانت اتـلافي

وعـلى الرغم مـن أنها تخاطـب المفرد، إلا أن هنـاك إشـارات إلى الجمـع في «وصلكـم» وفي «أنتـو»، ولكـن دلالـة على الاحـترام والتقدير، وهناك إشـارات أخـرى كثـيرة إلى المفـرد بدءاً مـن «يا نديمـي» إلى «يـا زيـن» و«ودادك» و«فيـك» و«أنـت».. وهـذا ما يكشـف لنـا أول سر مـن أسرار القصيـدة، وهـو صراع في داخـل الشـاعرة لتقديـر منزلة المحب الـذي اختلف معهـا، على الرغم مـن أنها حاولـت إخفـاء ذلك، وأشـارت أنهـا في وفـاق تـام مـع المحب في عبارات مثل «لي محـبٌّ منـي ومنه.. حب مثـل الجوهر الصـافي» و«والوفـا من فنـي وفنه.. بينـا ما يمشي خـلافي»، لكنها عللت هـذا الإخفاء بحجـة العادات والتقاليـد في «حيـث لانـه في العـرب سـنه... خص عند النـاس الاشرافي» التي تمنعها مـن التجريح، بـل بالعكس نجدها بعـد المـدح تسـتمر بالدعـاء والابتهال بأسـلوب المدرسـة التقليدية:

يعل يود السحب المدنه
لي برقها بات رفافي
والرعود مسويه حنه
هل وسقى ذيك الاطرافي
لين ينبت وين واطنـه
بالزهور معزل الجـافي

هنـا تسـتعرض الشـاعرة مقدرتهـا الشـعرية وأسـلوبها الفنـي، حيث تجد آلاف الشـعراء الذيـن ابتهلـوا لديـار المحبـوب بالغيـث والمطـر بأسـاليب وعبـارات وصيـغ مختلفـة، ويسـتطيع الجميـع التـذوق والمقارنـة بينهـا لا شـعورياً وتلاحظ البصمـة الجديدة التي تضعهـا «فتاة العـرب» من خـلال جمال الصياغـة واختيـار المفـردات، وهي ما عـرف عنها:

بو خدودٍ فوعته سمنـه
يسفرن من شيل الارهافي
كان جتلي مستحلنـه
لو على جتلي انا شـافي

وأما آخـر بيتـين في القصيـدة فإنهما يضفيان عـلى معنى القصيـدة غموضاً كبـيراً، بعدمـا كانـت المعاني تنكشـف للمتلقـين، والسـبب هـو أن الشـاعرة تدعـو للمحـب بلقـاء من تلمـع خدوده من وراء الشـيلة الرهيفـة التي تضعها المـرأة عـلى وجهها، وهـذا الوصف يبعد احتمال كـون القصيـدة قيلت في نصفهـا الآخـر، ويفتـح بـاب التأويـلات أمامنـا لاكتشـاف «المحـب» الـذي قد يكـون مـن أقاربهـا، وقـد أثـرت حالته بعيـداً عـن المحبـوب في الشـاعرة، وسـببت لهـا الأرق، وأنشـدت القصيدة محاولـة منها للخروج مـن هذا الموقف، كون أغلـب القصائـد الشـعورية وليدة موقفٍ مهـم، يهيّض النفس الشـاعرة، ويجعلهـا تشـارك الآخـر الهمـوم والمعانـاة.

وحظيـت هـذه القصيـدة بمجـاراة المغفور لـه، الشـيخ زايد، مقلـداً إياها وسـام الشـاعرية، حيـث اسـتهل في البيت الأول مشـبهاً إياه بـ«ركن» و«فن» في «عـود الهـوى»:

يَا رِكِنْ عُودِ الْهَوَى وْ فَنّهْ
شَاقِنِي جِيلِكْ بِالاَوْصَافِ

والركـن والفن هـما من أجـزاء الأغصان؛ أي أنهـا شـاعرة تعـزف عـلى أدق التفاصيـل في شرح أحـوال المحبـة والقصيـدة تحتـاج إلى شرح مطـول، ونكتفـي بإكمالهـا فقـط في هـذا المقـال:

طِيْفْ رُوْيَا بِـيْ مِشَقّنّهْ
شَطّ بِكْ وَ الْحَقْكْ الاَتْلاَف
يَعْلْ وِدّكْ مِنّكْ وْ مِنّهْ
بِالنَّجَاوِبْ بِيْنْكُمْ وَافِـي
مَا يِنَالِ الْحَاسِدْ وْ ظَنّهْ
وَاشِـي يِسْعَى بِالِـخْلاَفِ
كِيْفْ حِيلَةْ لِيْ مِوَزّنّهْ
ودّ كَامِنْ عِنْدَهْ وْ خَافِـي
طَالْ صَبْرَه وْ تَمّ فِـي هَنّهْ
فِـي خِيَالَه وْ كِيْفْ بَيْوَافِـي
عُودْ مُوْزٍ رَابِـي بْجَنّهْ
بَازِغٍ زَاخِرْ وِ غِرْيَافِ
غِصْنْ وِ الْخَالِقْ مِسَوّنّهْ
خَالِقِنّه بْحُسْنِ الاَوْصَافِ
جِيدْ وِ الْمِنْحَرْ مِحَلّنّهْ
لِيْ نِـهَوْدَهْ فَاعَنْ وْقَافِ
الذَّوَايِبْ سُمُرْ يَضْفِنّهْ
مِعَثْكِلاتٍ فُوْقِ الاَرْدَافِ
كَمّ صَبَرْنِي يَا الْغِضِـي عَنّهْ
يَا نِدِيمِـي نَسْلِ الاَشْرَافِ
يَعْلْ لِيْ بَهْ وِدّ مِقَصّنّهْ
يِـهَتْنِـي بِالْوَصْلْ وِ يْوَافِـي
فَرْحِتّهْ بِـ الْلِـي مِلاَقِنّهْ
تِتْقَسِمْ مَا بِيْنْ الاَولاَفِ

الطرفة في المجتمع الكويتي القديم

طلال سعد الرميضي
كاتب - الكويت

كانت الطرفة والفكاهة في المجتمع الكويتي متأصلة منذ القدم، وهي تعكس واقع المجتمع، وتسلط الضوء على السلبيات والإيجابيات فيه من نواحٍ عدة مهمة، كالمسكن والمأكل والأعمال ووسائل النقل والحيوانات وغيرها من شؤون حياة الكويتي آنذاك، والطرفة مرتبطة بحياة الشعوب منذ القدم، ولا يخلو مجتمع منها.

ونرى أن هذه الطرافة مستمدة من النقد الاجتماعي للواقع الذي عايشه الأجداد في البيئة الخليجية البسيطة، وما يواجهونه من صعوبات ومشاق في الحياة، وكان الشعر الشعبي هو إحدى الوسائل المتداولة آنذاك، لإبراز هذه السلبيات في حياتهم اليومية، حيث لا توجد وسائل إعلامية لنشر آرائهم ووجهات نظرهم كالصحف والتلفاز والمذياع، إلا في أحيان قليلة، ونجد عدداً من القصائد الشعرية القديمة التي نظمها شعراء كويتيون تتضمن بعض الفكاهة، كالتي أوردها مؤرخ الكويت الأول الشيخ عبدالعزيز الرشيد، يرحمه الله، في كتابه «تاريخ الكويت» الصادر عام 1926.

ومنها رديات شعرية مع الشيخ عبدالله خلف، أثناء زيارتهم جزيرة أم النمل، وما تعرضوا له من هجوم من الحشرات عليهم، وبأسلوب ظريف فكاهي، وسجل

الشيخ يوسف بن عيسى القناعي

الشيخ عبدالعزيز الرشيد

كذلك ابن رشيد في تاريخه حوادث متعددة جرت في القرون المنصرمة لأهالي الكويت، تتسم بالطرافة والمزحة، ومنها حادثة الجنية التي تعرضت لغاصة سفينة كويتية أثناء موسم الغوص على اللؤلؤ داخل الهير بعمق البحر، وأصابتهم بالذعر والرعب والخوف، ثم تبين أنها عباءة سوداء سقطت على صخور البحر، وتحركها تيارات مياه البحر.

كما سجل قاضي الكويت الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في كتابه «صفحات من تاريخ الكويت»، الصادر سنة 1946م، حوادث قديمة مضحكة عدة، سواء جرت له شخصياً أو سمعها من الأولين، حيث يذكر الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في كتابه القيّم قصة طريفة عن بدايات استخدام الصابون في تاريخ الكويت، بقوله:

«وكانوا لا يستعملون الصابون بعد الأكل، ولم يستعمل الصابون إلا من مدة قليلة، وأذكر في هذه المناسبة النادرة التالية، وهي أنه دخل رجل على المرحوم الأخ أحمد فوجده يغسل يديه بالصابون بعد العشاء، فقال له متأسفاً: آفا عليك! تغسل يدك بالصابون؟! فأجابه أحمد: إن الأخ يوسف يغسل يديه بالصابون مثلي، فرد عليه بشدة: حاشا على ذلك الوجه أن يغسل يديه بالصابون».

فالسؤال الذي يتبادر للأذهان بعد مرور ما يقارب 80 سنة على حديث القناعي، لو تكرر أمامك الموقف ذاته في إحدى الولائم، ولم يستخدم الضيف الصابون في غسل يديه، فماذا ستقول؟

وحوى كتاب «من هنا بدأت الكويت»، الصادر عام 1962م للأستاذ عبدالله الحاتم، الكثير من المواقف المضحكة، والحاتم من أدباء الكويت المميزين، وتولى أمانة رابطة الأدباء في الستينيات من القرن الماضي، وقد ذكر في كتابه القيّم الكثير من القصص المضحكة والمواقف الطريفة والقصائد الفكاهية، ومنها ما أورده للشاعر إبراهيم خالد الديحاني، قصيدة يرد على من يتهم كل شخص اسمه إبراهيم بالجنون والعتة، وكانت حادثة مشهورة بالمجتمع الكويتي فيها الطرافة والحكمة.

والجدير بالذكر أن عبدالله الحاتم أسس مجلة أطلق عليها اسم «الفكاهة» صدر عددها الأول في أكتوبر 1950، واستمرت حتى العدد التاسع، ثم توقفت عن الصدور في فبراير 1952، وكانت هذه المجلة المثيرة تحتوي على كثير من النكت والطرائف والقصائد المضحكة، ولاقت قبولاً واسعاً في المجتمع الخليجي، وكانت تضم على غلافها الخارجي بعض الرسومات البسيطة كبدايات فن الكريكاتير بمنطقة الخليج العربي.

ونجد روح الفكاهة متوافرة لدى العديد من الكتّاب المميزين الذين اتسمت أقلامهم بالنقد الساخر، بتناولهم قضايا المجتمع عبر مقالاتهم الصحفية خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي.

وكذلك نجد أن الشعر الشعبي قد تناول موضوعات اجتماعية متنوعة تهم الشأن المحلي، بنصوص تتسم بالطرافة والمزح بأسلوب شائق ماتع، وذاع صيتها بين الناس، وانتشرت وحفظوها لنا من الضياع والشتات، ومنها ردیات الشعراء فهاد بن جافور وسعيد الغربة وحمد المهنا، يرحمهم الله.

وفي الختام، نشدد على أن الطرفة متأصلة في المجتمع الخليجي منذ تأسيسه، وهي في حدود الاحترام، وعدم تجريح الآخرين، وفق الخلق الإسلامي الرفيع، وهذا ما سمعناه وسجلته كتب التاريخ عبر صفحاتها، نسأل الله أن يستمر النقد الاجتماعي لبعض القضايا الاجتماعية وفق هذه الضوابط التي عمل بها الأجداد الأوائل.

أبو دلامة والجاريتان

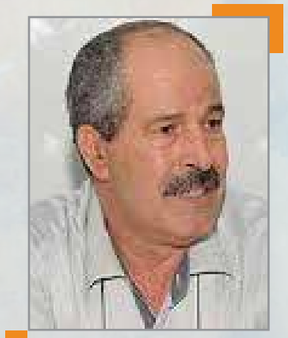

سعيد يقطين
كاتب - المغرب

تنبيه أول: فن الإضحاك:

يتميز بعض الأشخاص بحس الفكاهة، ولهم قدرة فائقة على ممارسة الإضحاك، إنهم ينشرون المرح في المجالس بأقوالهم وأفعالهم الاستثنائية التي تعكس ثقافة خاصة، وبذلك تكون لهم حظوة حتى لدى الأمراء والملوك الذين يتخذون لهم مؤنسين ومجالسين، وهم بهذه المكانة يستغلون وجودهم لقضاء مآربهم باعتماد الضحك وسيلة لذلك. ويزخر التراث العربي بأخبار كثير من هؤلاء.

1. الوعد المؤجل:

خرجت الخيزران للحج، فاعترض أبو دلامة ركبها، مستغلاً زمن الاستعداد للانطلاق، ليطلب منها أن تهب له جارية من جواريها تؤنسه وترفق به، وتريحه من عجوز صارت بلا فائدة ترجى منها. ضحكت الخيزران من شكواه وطلبه، ووعدته بأنها ستأمر له بما سأل.

رجعت من الحج، فتلقاها، وذكَّرها بوعدها. انشغلت عنه، ولم تلبِّ طلبه. دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون، وقد طال العهد، ودفع إليها رقعة تتضمن قصيدة مذكراً بحاجته إلى الجارية. مما جاء فيها:

ليس في بيتي لتمهيدِ فراشي من قعيدهْ
غيرُ عجفاءَ عجوزٍ ساقُها مثل القَديده
وجهها أقبح من حوتِ طَريٍّ في عصيده
ما حياةٌ مع أنثى مثل عِرسي بسَعيده.

ضحكت الخيزران من الأبيات، واستعادت منها: «حوتٌ طريٌّ في عصيدة». دعت بجارية، وطلبت منها إعداد نفسها، وتجهيزها بأخذ ما لها في القصر، ومن خادم أن يسلمها إلى أبي دلامة.

2. الحظ العاثر:

لم يصادف الخادم أبا دلامة، فقال لامرأته: إذا رجع فادفعيها إليه. وقولي له: «تقول لك السيدة أحسن صحبة هذه الجارية، فقد آثرتك بها». دخل دلامة، وجد أمه تبكي: قالت له: «إن أردت أن تبرَّني يوماً من الدهر فاليوم». قال: «قولي ما شئت فإني أفعله». إنها الأم المتضررة، وهذا الولد مطيع.

قالت: «تدخل على الجارية، وتُعلِمها أنك مالكُها، وتباشِرُها، فتحرَم عليه، وإلا ذهبت بعقله وجفاني وجفاك». نفذ الشاب طلب العجوز، وخلا بالجارية،

وأعلمها بأنه هو من سأل الخيزران عنها، وأنها الآن في ملكيته. فما كان من الجارية إلا أن طيبت خاطره، وأسلمت له نفسها. دخل بها، وكان التوافق بينهما قوياً وشديداً.

تنبيه ثانٍ: كل لما كتب له، أو عليه. قسمة ونصيب. وللحيلة دور في وقائع لا حصر بها.

3. إدراك الحية التي نهشته:

لا شك في أن أبا دلامة مسرور بتحقق وعد الخيزران، واستجابتها لطلبه. مزهواً، بعد دخوله الدار، سأل زوجته عن الجارية؟ فقالت غير آبهة، ولا مراعية: «في ذلك البيت!». يدخل شيخ على جارية عاشت في بيت الثراء والعز، وقد صارت مملوكة لشاب أحبته وبادلها الحب، وبينما هو يحاول مد يده إليها، ومداعبتها، وتقبيلها. فقالت له: «مالك؟ ويلك! تنحَّ، وإلا لطمتك لطمة دققت منها أنفَك».

فقال لها: «أبهذا أوصتك السيدة؟».

فقالت: «إنها قد بعثت بي إلى فتى»، وقامت بوصفه له، «وقد نال مني حاجته».

علم أبو دلامة أنه دهي من أم دلامة وابنها، وأن مرماه الذي قصد إليه اعترضته إرادة غادرة.

4. المحاكمة المضحكة:

جن جنون أبي دلامة، لقد انقلب السحر على الساحر. وعرف من أين جاءت المكيدة، والأهم من قام بتنفيذها بأن تصبح الجارية حراماً عليه. هاجم ابنه، وانهال عليه بالضرب، وهو يلعن الابن العاق، وتصرفه غير اللائق بأبيه. لما كان له موقع في ديوان الخليفة، ومكانة خاصة عنده، انتهى بأن جرَّه أخيراً إلى المهدي، مقدماً شكواه، وتظلمه من ابنه ليأخذ حقه منه؛ لأنه لم يراع حرمته ولا أبوته. سأله المهدي عن الجريرة التي اقترفها. فقال أبو دلامة: «عمل بي هذا الخبيث ما لم يعمله ولد بأبيه». وحكى له قصته منذ خروج الخيزران إلى الحج، ورجوعها منه، وطول انتظاره، ومعاناته من أجل الحصول على الجارية، ولما تحقق الوعد، تآمر مع أمه واتخذها لنفسه، ضحك المهدي حتى استلقى على قفاه.

5. حجاج، ومقارنة مجحفة:

تعجب أبو دلامة من رد فعل المهدي، وكيف أنه يضحك عليه، بدل أن ينصفه، ويأخذ له حقه من ابنه. لكن ضحك المهدي جعله يؤكد أنه لا يقضي إلا بعد سماع الوقائع كاملة، وكيف جرت القصة، وطلب من دلامة أن يدلي بحقيقة ما جرى ليتأتى له إصدار الحكم الملائم. وجاء جواب دلامة دفاعاً عن نفسه، معتمداً الحجاج الذي لا يقبل معه لجاج: «هذا الشيخ أصفق الناس وجهاً! باشر أمي منذ أربعين سنة، ما غضبت منه. وباشرت جاريته مرة واحدة، فغضب، وصنع بي ما ترى». ضحك المهدي أكثر من ضحكه الأول، وقال له: «دعها له يا أبا دلامة، وأنا أعطيك خيراً منها». رد عليه أبو دلامة: «على أن تخبئها لي بين السماء والأرض، وإلا فعل بها ما فعل بالأولى». فتقدم إلى دلامة، ألا يعاود مثل فعلته، وحلف أنه إن عاود قتله؟

تنبيه أخير: الضحك والإضحاك:

ضحكت الخيزران على وصف أبي دلامة لزوجته بقصيدة استوقفها فيه، وأثارها، بصورة خاصة، عجز بيت شعري. وضحك المهدي على أبي دلامة بعد سماع شكواه، وقصته التي انقلبت عليه. وكان ضحكه أكثر على حجاج دلامة، ومقارنته بين ما جرى له مع جارية أبيه، ومقارنة ذلك مع أمه.

نجد في ضحك الخيزران والخليفة معرفة بالشعر والخبر، وتقديراً للخطاب وأثره في النفوس. وعلاوة على ذلك نجد كرماً زائداً. فقدم كل منهما جارية لمن أضحك (أبو دلامة) في شعره، ولمن أضحك (دلامة) بحجاجه ومقارنته بالعفو عنه، بسبب الاحتيال وعقوق الأب، ولمن أضحِك عليه (أبو دلامة)، بتحريمه من جاريته الأولى.

ثقافة الضحك مشتركة بين دلامة وأبيه، والاستمتاع بالضحك واحد لدى كل من المهدي والخيزران.

خالد عمر بن ققة
إعلامي - الجزائر

«فضالة الخوان في طيّبات الطعام والألوان»..

كتاب عن تراث الطبخ في الأندلس

تشّدنا كتب التراث إليها، وتقتحمُ حياتنا المعاصرة، فُتَسائِلُها وُتَسائِلنا، وأحياناً تشكّل لدينا مرجعيَّة للأفكار والأطروحات والدراسات، وفي كل ذلك تأسيس للمعرفة عبر المطالعة، إذا ما تفادينا الاستغراق في قضاياها، أو اتّخاذ موقف الخصومة أو العداوة منها، وبحثنا عن سبل استحضار ما جاء فيها، بما تمثله من امتداد زمني وتراكم ثقافي، وتفاعل بشري، من خلال قراءة واعية تمكننا من توسيع مجالات المعرفة ومتعتها، بما تحمله من اتفاق أو اختلاف مع قضايانا المعاصرة، على النحو الذي نقّدمه هنا في قراءة كتاب «فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان».

يحضر التراث بشموليته ومجالاته المتعددة في حياتنا المعاصرة، فنرث، بعلم أو من دونه، ما تركه الأقدمون، نؤسس عليه، ثم نعليّ من البناء المعرفي لمعظم ما يستجد في حياتنا، مع الإضافة والتعديل، حتى إذا ما استوت الأفكار، وتحولت إلى التطبيق تداخلت لدينا الأزمنة، وكسرت حدود الفصل الجغرافي التي تفرضه الأوطان والدول في الوقت الحالي، وحلت الثقافة ـ ببعدها الإنساني ــ باعتبارها جامعة وحاضنة.

بهذا المعنى تغدو قضايا التراث حياة متواصلة على مستوى صناعة الأفعال وإنتاج الأنساق، وهذا ما نراه بشكل جلي في الطعام، كونه يحتوي المعاني وينقلها؛ لأنَّها جزء من أنساق مركبة تتغلغل عميقاً في الثقافة، ولكنه ـ الطعام ـ قبل ذلك وبعده، يمثل حاجة وجودية، بحيث لا يكمن للحياة أن تستمر من دونه.

تبعاً لما سبق ذكره، يعدّ الإطعام من جوع ـ سواء أكان بالفرد أم الجماعة ـ هو حالة متواصلة، ما دام البشر على قيد الحياة، بغض النظر على درجة الإشباع التي يصل إليها كثيرون، أو التخمة التي هي ذات صلة بالطبقة الاجتماعية، أو السعادة التي تأتي للبعض من متعة التذوق.

إذن، يؤدي الطعام وظيفته بوصفه نسقاً من أنساق التواصل البشريّ؛ بل قد يعدّ النسق الأهم، وهو الأساس في حروب البشر وسلمهم، وفي ظعنهم وإقامتهم، وفي فوضى حياتهم واستقرارها، وجميع هذه الحالات تعبر عن التدافع والتعارف فيما بينهم على النحو الذي سجلته كتب التراث، كما يكشف الطعام على مستوى ثانٍ من التناول لحالة أخرى من تشكل الوجود الإنساني واستمراريته، وإن اختلفت من بيئة إلى أخرى، وحتى داخل المجتمع الواحد.

والحديث عن موضوع الطعام في التراث هو من ناحية القراءة إحالة تاريخية وثقافية وأنثروبولوجية إلى معرفة كيفية تنظيم البشر في مراحل سابقة من حضارتنا أو حضارات الأمم الأخرى ـ ماضياً وحاضراً ـ لطرق تعاملهم مع الطعام في نسق يخضع لنظام موازٍ للأنساق الثقافيّة الأخرى، بما يحمله من معانٍ ودلالات. يأتي ذلك انطلاقاً من أن مطبخ أيّ شعب يرتبط بفهمه منجزه على المستوى الغذائي أولاً، وبتفاعله ـ رفضاً أو قبولاً أو تقليداً ـ مع مطابخ الآخرين ثانياً، وفي الحالتين يحاول يكشف عن سعي لمعرفة ثقافة الشعوب من خلال مطابخها؛ الأمر الذي ينتهي بنا إلى القول: إن الطعام ـ تحضيراً وإعداداً واستهلاكاً ــ يعدّ هوية وثقافة.

التجيبي.. وقراءة ابن شقرون

اعتبار الطعام هوية وثقافة، تُهدينا إليه بعض المراجع التاريخية، ومنها كتاب «فضالة الخوان من طيّبات الطعام والألوان» لابن رزين التجيبي، والذي حققه وقدم له محمد بن شقرون، وراجعه الدكتور إحسان عباس، ويعود تاريخ تأليفه إلى 636هـ/ 1238م.

محمد بن شقرون
محقق كتاب فضالة الخوان

من خلاله نعود إلى تأمل تراثنا العربي الخاص بالطعام في الأندلس منذ ثمانية قرون تقريباً، وهو زمن بعيد، ومع ذلك، فإنه لايزال حيّاً، ليس فقط على المستوى الأرشفة والتاريخ، وإنما من الناحية التطبيقية في الأطباق المختلفة التي لاتزال قائمة في المغرب خاصة، وربما لهذا السبب، إضافة للبعد الجواري، اعتبره محققه «كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس».

ولا يكتفي المحقق بذلك، بل يرى فيه وصفاً لثقافة المغرب على حساب الأندلس، مع أن العكس هو الصحيح، ويظهر هذا في قوله: «كتاب أثار انتباهنا منذ مدة طويلة، لكونه يشكل جزءاً من اهتماماتنا البحثية، ويرتبط بحقبة من حقب تاريخ البيئة المغربية، التي حاولنا التعريف ببعض مظاهرها الثقافية، لاسيما في عهد الدولة المرينيَّة..»، (ص 6)، كما أنه أعطى مسبقاً ـ من خلال عنوان الكتاب ـ جمعاً بين بيئتين، حين قدم على غلاف الكتاب، شرح كتب تحت العنوان الرئيس:

«صور من فن الطبخ في الأندلس والمغرب في بداية عصر بني مرين»، وبالطبع هذا لم يرد في عنوان المخطوطة الأصلية للكتاب.

تلك ملاحظة أساسية، كان علينا لزاماً ذكرها حتى لا تلتبس الأمور في ذهن القارئ، وإن كنا لا ننكر التداخل بين البيئتين الأندلسية والمغربية في ذلك الزمان، كما لا ننسى أن المغرب كانت الحاضن الأول للأندلسيين قبل وبعد احتلال بلادهم من طرف الإسبان، وقد تكون قراءتنا هذه معاصرة للموضوع، في حين نظر المحقق للكتاب من زاوية تراثية استندت إلى الماضي المشترك. وبعيداً عن نظرة المحقق لهذا الكتاب، وكذلك عن الملاحظة السابقة، فإن المؤلف ابن رزين التجيبي، قدم لنا قولاً فصلاً، عندما بيّن لنا الهدف من كتابه، وعن أي بيئة يعبر، وكشف عن مدى تأثره بكتابات الآخرين في فن الطبخ، موضحاً أسلوبه في طرح أفكاره، وهذا يسر لنا فهم هذا الكتاب.

يَسِير المَشْرَقيّات

يقول التجيبي واصفاً كتابه، ومقارناً بينه وبين من سبقوه من المؤلفين: «.. لكن الاختصار أردت، والاقتصار على المستحسن من أنواع الطيخ قصدت، وقد رأيتُ كثيراً من الناس ألّفوا في الطبخ كتباً اقتصروا فيها على المشهور، وأغفلوا التنبيه على كثير من الأمور، وللمشارقة في ذلك الكثير مما تمجه الآذان، إذ يأنفه أو يكاد يستقذره الإنسان، وهي عندهم من أرفع المطاعم، ولعل هذا بحسب مائهم وهوائهم، وطبائع أغراضهم وأهوائهم». (ص 30)

ويحدد بشكل واضح وعلني، موضوعه وهو فن الطبخ في الأندلس، ليس فقط على مستوى إنتاجه ونوعه فحسب، وإنما من منطلق الجانب الفكري ـ التنظيري، وعلاقة ذلك بالبيئة الأندلسية.

هنا يُعيدنا إلى ما ذكرناه سابقاً من أن الطعام هويّة وثقافة، بدليل أن التجيبي ينقلنا في مقدمة كتابه من الحديث عن الطعام إلى أهله وحيزهم الوجودي، الجغرافي ـ الثقافي، وهذا ما فهمته من قوله: «وإن تعصبتُ للصنف الأندلسي، فأقول لهم: إنهم في هذا الباب وأشباهه أهل الحميّات، وذوو التقدم، وإن تأخرت أعصارهم في اختراع الطيبات، وهذا على اقتصارهم، ومجاراتهم في أماكنهم وديارهم، لأعداء الإسلام على تداني نارهم». (ص 31)

كل ذلك كان الغرض منه وصول المؤلف إلى توضيح الهدف من كتابه، وأسلوبه، ومنهجه، وقد جاء واضحاً موقفه من تراث الطعام وفنونه وأطباقه في بيئات أخرى احتواها الفضاء العربي، وخاصة مشرقه، وهذا يكشف عن اطلاعه، وتخليه المقصود على تجارب الطعام العربية الأخرى، إلا اليسير منها، كون أن الأندلس بالنسبة له هي المنبع والمصب في هذا المجال، وما جاء على ذكره طوّعه لما يخدم فكرته في سياق معرفته وتجاربه، وبما يتفق مع المعلوم المشهور منها بخصوص الطعام.

وفي توضيحه لموضوع كتابه، بدَا التجيبي منّظراً ومجرّباً، وواضحاً في طرح موضوعاته، وقد بين ذلك في مقدمة كتابه، حين قال: «قد ألفتُ كتابي هذا من أنواع الطبخ.. واستوفيت فيه ما استحسنت من كثير من الألوان، أتيت فيه من الأندلسيات بكثير، واقتصرت من المشرقيات على المنتخب اليسير، وأضفت إليها من المعلوم المشهور كل ما يدخل في أصناف الطبخ أو يتعلق به على الخصوص والعموم: كالكوامخ والخلول، وغير ذلك مما أودعته في كثير من الفصول». (31)

أواني النحاس

الكتاب، كما يرى محققه محمد بن شقرون، تميز بدقة وتماسك في أجزائه، وترتيب عناصره، وتسلسل فقراته داخل إطار معين، وهو واضح المعالم محكمِ البنية، ما يضفي عليه صبغة خاصة تشكل وحدته، وتؤكد أصالته، كما تظهر براعة المؤلف في الكتابة الأدبية، وقدرته على معالجة الموضوعات المختلفة بأسلوب فني، والسبب في هذا يعود إلى كونه أديباً بالأساس.

لقد تناول التجيبي مسألة الطعام لجهة إعداده وأنواعه، وما يتصل به، مطنباً تارة ومختصراً تارة أخرى، حسب مقتضيات الموضوع والكتابة، ومتحدثاً بلغة واقعية عن الطبخ والطباخين، ومستعرضاً مساوئ الأواني المستعملة في الطبخ ومحاسنها وظروف صلاحيتها، من مثل: الأواني الفخارية، والقصديرية، والزجاجية، والنحاسية، والذهبية، والفضية.. إلخ، ومن بين يذكره بخصوصها نذكر الآتي:

ـ تجنّب الطبخ في المواضع الوخيمة.

ـ ألّا يطبخ في قدر الفخار مرتين، كما حض بعض الأطباء على ذلك.

ـ الطبخ في أواني الذهب والفضة لو أمكن وأباحه الشرع أفضل.

ـ النهي عن الطبخ في أواني النحاس لرداءة جوهرها.

ـ المستحب الطبخ في آنية الحديد، إذا تعوهدت بالغسل والتنظيف، والتحفظ من صدئها.

ـ الأكل والشرب في أواني الزجاج، والطبخ لو أمكن، موافق حسن.

كل هذا جاء في مقدمة ـ مشوقة وممتعة ـ أوجزت المحاور الأساسية التي انصب عليها اهتمام المؤلف، وأتبعها باثني عشر قسماً، وكل منها يتضمن عدداً من الفصول، حسب أهمية الموضوع.

وقد تناول الكاتب في القسم الأول: «في الأخباز والثرايد والأحساء وطعام الخبز وغير ذلك»، فصول هي: في الأخباز، وفي الثرايد، وفي الأحساء والجشائش، وفي طعام الخبز وأنواع المجبنات والإسفنج وأشباه ذلك، وفي سائر ذلك مما يسقي الثرائد أو يطبخ طبخ الأحساء.

وحمل القسم الثاني عنوان: «في أصناف لحوم ذوات الأربع»، ويتكوّن من ستة فصول هي: في ألوان اللحوم البقريَّة، في ألوان اللحوم الغنميَّة، في ألوان لحوم الخرفان، في ألوان لحوم الجداء، في ألوان اللحوم الوحشية، في المصنوع من لحوم ذوات الأربع من البنادق والمرقاس والأجرش والهريسة وغير ذلك.

وتضمن القسم الثالث «في لحوم الطير» سبعة فصول، هي: في ألوان لحوم الإوز، وفي ألوان لحوم الدجاج، وفي ألوان لحوم الحجل، وفي ألوان لحوم فراخ الحمام، وفي ألوان لحوم اليمام، وفي ألوان لحوم الزرازير، وفي ألوان لحوم العصافير.

القاهريّة والجوزيتق واللوزيتق

وفي القسم الرابع، عبر ثلاثة فصول، في اللون المسمى بالصنهاجي، وفي طبخ اللسان والكرش، وأتبعه بالقسم بالخامس حول «في الحيتان والبيض»، وذلك في فصلين، وفي القسم السادس «في الألبان وكل ما يكون منها»، ركز في ثلاثة فصول عن اللبن الحليب وما يصنع منه، وفي عمل الرايب واستخراج الزبد، وفي عمل الجبن واليابس وما يصنع منه، وفي إصلاح الزبد واللبن.

وخصّص القسم السابع للبقول وما ينسب إليها، وذلك في عشرة فصول، تناولت: في القرع، وفي ألوان بالباذنجان، والجزر، والكمأة، والإسفاراج، والحرشف والقنارية وأفزان، وفي طبخ الفطر، وفي ألوان الإسفناخ، واليربون والخس وشبه ذلك، والجنانية، والقلقاس.

وركز القسم الثامن «في أنواع الحبوب من الفول والحمص وغيرها»، وهذا في ثلاثة فصول تنولت الفول الأخضر واليابس، والحمص، والعدس.

وفي القسم التاسع تناول «المُعَسَّلات وأنوع الحلوى»، في سبعة فصول شملت: في عمل المعسّل والغساني، وفي أنواع الحلوى، وفي القاهرية والسنبوسك، وفي عمل القصب الحلو، وفي عمل الفانيذ والأشفافول، وفي الجوزيتق واللوزيتق، وفي أنواع شرقية.

وخصص القسم العاشر للكوامخ، وما ينضاف إليها من عمل الخلول وأنواع المري واستخراج الأدهان، وإصلاح الزيت عند فساده، وإصلاح الأطعمة، وذلك في 12 فصلاً، وتحدث في الفصل الحادي عشر عن طبخ الجراد والقمرون.

وفي الثاني عشر تحدث عن الغسولات، وتشمل تنظيف اليد وتطييب الرائحة، وإصلاح الفم واللثة، وتطييب البدن.. إلخ.

لقد قدّم لنا ابن رزين التجيبي صوراً من فن الطبخ في الأندلس، وأرفقه بشرح مفصل للطعام وأنواعه وأدوات الطبخ، وظهر في ذلك مُتمكناً من معارف مختلفة، نؤسس عليها اليوم في بحثنا لقضايا التراث في مجال الطيبات من الطعام، بما قد يساعدنا اليوم في تمييز ما ينفعنا، وما يضرنا.

رمضان...
روح القرآن وشمائله

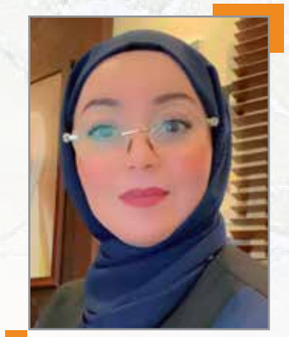

عائشة مصبح العاجل
كاتبة وإعلامية - الإمارات

رائحة العود والطيب تمتزج بأجواء الشهر الفضيل، وكأن نسائم وروحانيات القرآن والخير والفضل الفضيل تتزاوج مع ذرات الكون، وتشيع الراحة والسكون والهدأة في نفوس الصغار والكبار.
يأتينا الشهر محملاً بالخيرات على أجنحة الملائكة والنور، يملأ القلوب بالرفق والتحنان، والعطف والتسامح والتقارب، هو شهر فيه من الفضائل ما يجعل الإنسان إنساناً، ويعيده لفطرته الصحيحة، ويوجه بوصلته نحو الأمان والسلام، قبيل قدومه تنشرح النفوس، وتستعد بتأثيث الروح، وتجديد العهود من أجل الصلاح والفلاح، يأتينا قبله النصف من شهر شعبان نتلاقى فيه إخواناً، تتصافح القلوب قبل الجيران، ونتبادل الكلمة الطيبة والدعاء وصحون مملوءة بالخبز والزلابيا (نوع من أنواع الحلوى المشبعة بالزعفران والسكر)، وأطباق الهريس والثريد واللقيمات، ورائحة القهوة بالهيل، وفرحة الأطفال التي تصدح في الفرجان (عطونا الله يعطيكم، بيت مكة يوديكم، عطونا من حق الله، يخلي ولدكم ياالله، جدام بيتكم وادي، والخير كله ينادي...).
وما تغيب فيه رائحة الأمهات المعطرات بدهن العود والمتطيبات بالريحان وعرق الزعفران، مرتديات أثوابهن الزاهية (بوتيلة، بوطيرة، صالحني...)، وبراقعهن التي تطل من خلالها عيونهن المكتحلة بالأثمد، تباركن بالدعاء وتهللن بالتسبيح والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، مربيات على جميل الاستقبال، ومهيئات الروح والمكان للشهر الفضيل وتلاوة القرآن.
يسبق رمضان حنين مُتقد لصوت المساجد، وعذوبة أصوات المقرئين في التهجد (صلاة التراويح)، وانشغال الناس بالقرآن والصلاة والعبادة، وقلة اللهو، ومتابعة الذكر والالتفاف حول الصالحين والناصحين، من خلال البرامج الجادة في وسائل التواصل، وأكد صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، أن رعاية القرآن الكريم وأهله وتوقيرهم تقدير للمكانة العظيمة لكتاب الله، والقيمة التي يحملها حفاظ وقراء القرآن، مشيراً إلى أن العناية بالقرآن تكمن في حفظه في الصدور، والعمل بتعاليمه السمحة والمعتدلة، التي تؤكد الخلق الحسن، والالتزام بما يرضي الله، عزّ وجلّ، حيث جاء ذلك أثناء تكريم سموه أصحاب الختمات القرآنية المسجلة في إذاعة الشارقة خلال هذا الشهر تحديداً، للتأكيد على مكانتهم وأهمية وفضل هذه الأيام القريبة من قدوم الشهر الفضيل الذي تنزل فيه القرآن الكريم على خير خلق الله الصادق الأمين.
يبزغ هلاله فتهفو الروح والأفئدة للوئام والسلام والخير، فلا خداع ولا فسوق ولا جدال، وإنما صدق، وتراحم وامتثال.

المرأة أُمّ الحكاية

د.محمد الجويلي
أكاديمي - تونس

ليست الحكاية حكراً صرفاً على النساء، فالرجال قد أبدعوا بدورهم أجناساً محدّدة من الحكايات، يتداولونها فيما بينهم، مثل الحكايات التي تجري على لسان الحيوان، والتي لها بدورها غاية تعليميّة متعلّقة بإدماج الأطفال في مجتمعاتهم، ولكن لا يمكن إلّا أن نسلّم بما لاحظته الباحثة المغربيّة مالكة العاصمي، لاسيما عندما يتعلّق الأمر بالحكاية الخرافية، حكاية العجائب والغرائب، بكون النصيب الأكبر من الحكي هو من إبداع النسوة. تقول العاصمي: «الحكاية الشعبية أنثى تعيش في البيت، وتحتضنها المرأة، وإنّ المرأة أمّ الحكاية الشعبيّة الشفويّة غير المنقولة أو المستندة للتراث المكتوب، وأفترض أنّ المرأة تبدع الجزء الأكبر من المنتوج الشفوي الحكائي الشعبي... والمرأة تتعرّض أكثر من غيرها لظروف الاضطراب ولعامل الأمّيّة والحجب عن التعليم، فتنتج بحصافتها وكفاءتها الإبداعيّة الإنسانيّة مادّة شفويّة غزيرة».
لا يمكّننا المدوّن دائماً من معرفة الحقيقة التاريخيّة، لاسيما عندما يتعلّق الأمر بتاريخ الأفكار والذهنيات وطرائق السلوك والمشاعر التي ليس من السهل إخراجها للعلن. فعندما يتعلق الأمر بالمشاعر المحجّبة خاصة الأنثويّة منها، لا نجد أفضل من النصوص الشفويّة. هكذا يتشكّل النصّ الشفوي في الهامش منافساً للمدوّن ليعبّر أفضل عن انشغالات المرأة وقلقها. النصّ الشفوي على عكس المدوّن أقلّ عرضة للرقابة والاحتواء من المكتوب، وهو أفضل ما يعبّر عن أحاسيس جماعيّة باستعمال أساليب تمكّنه من تفادي المراقبة وقول ما يُسكت عنه في المدوّن.
في دراسته لـ«ألف ليلة وليلة» ينطلق مالك شبيل من فرضيّة يراها أساسية: «حتى يصبح الوجود جديراً بأن يُعاش، كان لا بدّ للمرأة من تأنيثه، وذلك بروايته». ما يقوله شبيل عن حكايات ألف ليلة وليلة ينطبق تماماً على الحكايات النسويّة العربيّة الشعبيّة عموماً، فليس الجزء الأهمّ من ألف ليلة وليلة فقط، وإنّما الجزء الأهمّ من التراث السردي النسوي الشعبي برمّته يُعدّ بمثابة اعتراف بالجميل للمرأة، وإعلاء من قيمتها ونتاجاً لسعيها الحثيث هذا لتأنيث الوجود حتّى يصبح أليفاً لها.. ليست ألف ليلة وليلة فقط، وإنّما كلّ حكايات الأمّهات والجدّات قديماً في عصر ما قبل الحداثة ينبثق من طموحهنّ المتمثل في قلب المعطيات الاجتماعيّة واستبدالها بمعطيات جماليّة لا توفّرها إلّا المشافهة. أمّهات وجدّات مصونات استطعن أن يبدعن حكايات مفعمة بالحياة، مغرقة في الأحلام منفتحة على كلّ التهويمات، ومثرية للخيال، ترسم العالم في صورة أجمل وأكثر إنسانيّة ممّا هو عليه.

حصن الشارقة

الشارقة.. نموذج لجهود الشيخ الدكتور سلطان القاسمي لإحياء ذاكرة الماضي (1-2)

د. خالد بن محمد مبارك القاسمي
كاتب – الإمارات

يوجه صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، دائماً بإعادة تأهيل واستخدام المباني التراثية، وتشجيع وإقامة المتاحف، وسنّ التشريعات للحفاظ عليه، فالتراث العمراني يبرز الملامح المعمارية الناتجة كانعكاس للمؤثرات الجغرافية والمناخية والتاريخية، حيث تم ترميم عدد كبير من البيوت والمساجد والأسواق والأبراج والحصون، وكل ذلك بهدف إبراز أهم مظاهر الشارقة القديمة، لربط الحاضر بالماضي، من أجل ترسيخ الهوية الثقافية لسائر أبناء الإمارات.

أولاً - حصون الشارقة

أولى صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، اهتماماً كبيراً بترميم حصون وقلاع إمارة الشارقة، لما تحمله من تاريخ مشرّف يسرد مقاومة الأجداد للغزاة وللاحتلال على مر العصور، ومن الحصون التي وجَّه سموه بترميمها:

1 - حصن الشارقة: تم بناء حصن الشارقة، ذلك الصرح التاريخي العريق، في عام 1823م في منطقة قلب الشارقة، وكان يعد أكبر وأهم مبنى في الإمارة، إذ كان مقراً لحكومة الشارقة وسكناً لعائلة القواسم الحاكمة منذ نحو قرنين من الزمان. وبني الحصن لحماية المدينة وسكانها[1]. والحصن كبير وضخم وذو برجين، أحدهما كبير والآخر صغير، وهو الواقع في الضلع الخلفي من اليمين، وفي الوجه من اليسار توجد قبة كانت تستخدم للحراسة ومراقبة المدينة قديماً[2].

ويتجلى اهتمام صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، في الحفاظ على التراث حتى من قبل توليه مقاليد الحكم في إمارة الشارقة، فنراه يترك الدراسة بكلية الزراعة جامعة القاهرة، في شهر يناير 1970، ولم يكن قد تبقى على موعد امتحانات الفصل الدراسي الأول إلا يومان، ليعود إلى الشارقة على إثر اتصال هاتفي يخبره بأن حصن الشارقة قد بدأ الهدم فيه، فأسرع بالسفر، وأوقف عملية الهدم[3].

وبالفعل أعاد سموه بناء الحصن، حيث أمر سموه في شهر إبريل 1996 بإعادة بناء الحصن، بعد أن أبرز الرسومات والنقوش والصور الضخمة التي أعدها للحصن[4]، حيث تم افتتاحه في العاشر من شهر نيسان/إبريل 1997، بعدما تم تزويده بالصور الفوتوغرافية، التي تُظهر عائلة القواسم في الشارقة، ورجالات الشارقة، وبعض مظاهر الحياة في المدينة قديماً[5].

2 - حصن الذيد: بُني هذا الحصن نحو منتصف القرن الثامن عشر (1750م بالتقريب)، لحماية واحة النخيل وفلج الشريعة، المصدر الرئيس للمياه. وفي تموز/يوليو 2015، وبتوجيهات من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، تم البدء في إزالة مركز شرطة الذيد، لإعطاء فرصة لترميم الحصن. وفي عام 2016 بدأ معهد الشارقة للتراث خطة تطوير واحة التراث في مدينة الذيد، وكان الحصن من ضمن المشروع. وفي عام 2020 تم إسناد مشروع ترميم حصن الذيد وواحة النخيل إلى دائرة التخطيط والمساحة[6]. وبتاريخ 23 فبراير 2022 افتتح صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، حصن الذيد بعد ترميمه[7].

3 - قلعة كلباء: من معالم كلباء حصنها المسمى بـ«القلعة» الذي يقع على ساحل الخليج وسط مدينة كلباء حالياً، وهذا المكان مميز، حيث لا وجود لحواجز طبيعية تحيطه كالجبال والتلال. وحسب توجيهات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، لحماية وتجديد المباني التراثية في مدينة كلباء، تمت المباشرة في ترميمها وصيانتها، وكانت مباشرة الحصن في 15 أيار/مايو 1992، وجاءت فترة انقطاع عن العمل لأسباب أهمها دراسة الموقع وجمع المعلومات. وبتاريخ 20 كانون الأول/ديسمبر 1996 تم افتتاح الحصن، وأصبح الحصن متحفاً لنماذج من الأسلحة التراثية، والصور المعبرة عن مراحل الترميم والصيانة، وصور أخرى للمقارنة بمواقع تراثية تم ترميمها وصيانتها في الشارقة[8].

4 - حصن خورفكان: بُني هذا الحصن في أربعينيات القرن الماضي بالحجارة، نظراً للطبيعة الجبلية في خورفكان، ويعد واحداً من شبكة الأبراج الدفاعية المرتبطة بخورفكان؛ حيث يطل من جهة على برج العدواني، ومن الجهة الأخرى على برج الرابي[9]. وقد أصدر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، توجيهاته بإعادة بناء حصن خورفكان، لكي يتيح للجميع التعرف إلى التاريخ الثري للساحل الشرقي لإمارة الشارقة. وقد تمت إعادة بناء الحصن بالقرب من الموقع الأصلي للحصن القديم، وعلى غرار تصميمه

في خمسينيات وستينيات القرن العشرين؛ ليضفي المزيد من الجلال والبهاء على هذه المدينة الساحلية الجميلة، وتم افتتاحه يوم السبت 13 إبريل 2019[10].

ثانياً - البيوت والمجالس التراثية

يقدر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، قيمة البيوت التراثية، إذ حظيت بعنايته، وقرر وضع خطة لترميمها، وإعادة توظيفها، انطلاقاً من اقتناعه بأن فكرة ترميم الأثر لا تقتصر على ترميم الحوائط والمباني، بل تتسع لتشمل تطوير العقول وتغذيتها عن طريق الأنشطة والفعاليات التي تحيي ذاكرة الوطن[11]. ومن بين البيوت التي تم ترميمها:

1 - بيت النابودة: كان عبيد بن عيسى علي بن نابودة من كبار التجار والمصلحين الذين تأثروا بحركات الإصلاح التي انتشرت في مطلع القرن العشرين[12]. وقام النابودة بتأسيس المدرسة النابودية في عام 1923، بمدينة الشارقة، فقدم لها الدعم، وعاون في دفع أجرة المكان الذي كان يدرس فيه الطلاب[13].

وبناء على توجيهات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، تم البدء في ترميم البيت في صيف 1990 بقيادة فريق متخصص، وبعد الانتهاء من ترميم البيت تم افتتاحه كمتحف للحياة التراثية في الشارقة[14]. والبيت مبني على الشكل التقليدي للمباني الخليجية، ويمتاز إضافة إلى ذلك بمعالمه الإسلامية[15]. وافتتح بيت النابودة كمتحف في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1995م. وقد أُعيد افتتاح المتحف بعد أعمال الترميم وتجديد العرض يوم الأحد الموافق 8 نيسان/ إبريل 2018م[16].

2 - بيت الشيخ سعيد بن حمد القاسمي: تم افتتاح بيت الشيخ سعيد بن حمد القاسمي في مدينة كلباء، في الخامس من ديسمبر عام 1999. وهو أحد أجمل البيوت التراثية العريقة في الإمارات، يقع على الساحل الشرقي للخليج العربي في كلباء، وقد بني في الفترة ما بين 1898 و1901م، وعاش فيه الشيخ سعيد وأسرته، وأدار منه شؤون الحكم، ووقع اتفاقيات عدة، ويعكس هذا البيت النمط المعماري الإماراتي الأصيل، وتعرض حالياً فيه الكثير من المقتنيات الإسلامية التي تتمتع بقيمة وأهمية قصوى[17]. وبتاريخ 17 آذار/ مارس 2022، افتتح صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، بيت الشيخ سعيد بن حمد القاسمي، الذي أعيد ترميمه وتأهيله، حيث يعد أحد أهم المعالم التراثية في إمارة الشارقة[18].

3 - بيت السركال: شيد بيت السركال في القرن التاسع عشر، ويتمتع بتاريخ يمتد نحو الـ150 عاماً، ويحمل بين جدرانه الكثير والكثير من الحكايات عبر سنوات نشاطه، التي رسمت تاريخ إمارة الشارقة الحديث، فقد ظل بيت السركال لفترة طويلة مقراً للمعتمد البريطاني في منطقة الخليج، ثم تحول في ستينيات القرن الماضي إلى أول مستشفى يؤسس في إمارة الشارقة، شهدت ولادة أجيال من الشخصيات البارزة في تاريخ الإمارة. وقد خضع بيت السركال، بناء على توجيهات صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، لأعمال الترميم ما بين الأعوام 1993 و1995 إلى جانب عدد آخر من البيوت التراثية في منطقة الشويهين، ويحتضن حالياً أنشطة مركز الشارقة للفنون، وبينالي الشارقة، والعديد من المعارض والفعاليات وورش العمل[19].

4 - البيت الغربي: البيت الغربي هو بيت الشيخ سلطان بن صقر بن خالد القاسمي، الذي تولى حكم الشارقة

في 1924م، وكان شاعراً، وله اطلاع حسن على الأدب العربي. وأحسن من هذا أنه كان يعنى بالقضايا العربية، ويلم بها إلماماً جيداً. وكان له اتصال ببعض العاملين في حقل القضايا العربية[20]. وفي يوم 23 آذار/ مارس سنة 1951م، توفي الشيخ سلطان بن صقر، إثر عملية أجريت له في مستشفى لندن كلينك، في لندن، وتقرر أن يدفن في الشارقة[21]. ويتألف البيت الغربي من طابقين، ويتكون من مدخل رئيس، ومدخل للحرس، ومدخل ثانوي خلف البيت[22].

ولأهمية البيت الغربي التاريخية والتراثية، وجّه صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، بترميمه، وبناء على توجيهات سموه خضع البيت الغربي لعمليات ترميم[23]، ويقوم البيت منذ العام 1997 بوظائف ثقافية، بعد إعادة بنائه على يد مهندسين وخبراء إدارة الحفاظ العمراني والترميم بمعهد الشارقة للتراث، وأصبح البيت مقراً لإدارة التراث، وفي العام 2014، تمت إعادة صيانته وتأهيله لاستقبال الفعاليات التراثية والثقافية[24].

5 - مجلس المدفع: يعدّ مجلس إبراهيم المدفع من المجالس المشهورة في الشارقة، منتدى ثقافياً ومركز إشعاع يأتي إليه الأدباء والمثقفون. فلم يكن ممن يكنزون الذهب والفضة، بل كان هدفه بناء الإنسان بأي ثمن، وكان يدعو زملاءه وأقرانه وجلساءه، ويحثهم على القراءة من الكتب والمجلات التي أحضرها لهم من مختلف البلدان العربية[25]. تم افتتاح مجلس المدفع في السادس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1996م. ويمثل متحف مجلس المدفع نموذجاً حياً للدور المنوط بالمجلس آنذاك، ويضم المتحف العديد من القطع التي تبرعت بها عائلة المدفع[26]. ويمتاز مجلس المدفع ببرج التهوية أو «البارجيل» الدائري، وهو النموذج الوحيد للبارجيل الدائري في دولة الإمارات العربية المتحدة. وهو مبني من الجص والطين والحجر[27].

1. حصن الشارقة، موقع هيئة الشارقة للمتاحف، على الرابط التالي: (https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Sharjah-Fort-Al-Hisn)
2. ناصر حسين العبودي: آثار الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط2، د.ن، 1418هـ/1997م. ص 35 – 36.
3. الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: سرد الذات، منشورات القاسمي، ط1، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2009. ص 296 – 297.
4. سمير الشيخ حسين: عقود الخير (ثلاثون عاماً من البناء والعطاء)، جامعة الشارقة، إدارة العلاقات العامة، 2001. ص 124.
5. الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: حصاد السنين.. ثلاثون عاماً من العمل الثقافي في الشارقة. منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2011. ص 163.
6. خليفة سيف حامد الطنيجي: حصن الذيد في تراث الشارقة الثقافي، ط1، معهد الشارقة للتراث، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2021. ص 88 - 102.
7. سلطان يفتتح حصن الذيد ومسجد أم سلمة والسوق الغربي: موقع جريدة الخليج، بتاريخ 23 فبراير 2022، على الرابط التالي: https://cutt.us/nNBov
8. عبدالستار العزاوي: المباني الأثرية في كلباء، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2001. ص 51 – 56.
9. معهد الشارقة للتراث، خورفكان.. التاريخ العريق والتراث العميق، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، 2020، ص 16.
10. حصن خورفكان ، موقع هيئة الشارقة للمتاحف، على الرابط التالي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Hisn-Khor-Fakkan
11. علي عفيفي علي غازي: جهود صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمي في الحفاظ على التراث. مجلة "شؤون اجتماعية، الصادرة عن جمعية الاجتماعيين في الشارقة، مج 32، ع 125، خريف 2015. ص 161.
12. عبد الله علي الطابور: التعليم التقليدي (المطوع في دولة الإمارات العربية المتحدة). مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2004. ص 259.
13. محمد مطر العاصي: مسيرة التعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة. د.ن – ط1 ،1993. ص 42 – 43.
14. خالد المنصور: الشارقة التي نعيشها، منشورات القاسمي، الشارقة، 2017. ص 108.
15. دائرة الثقافة والإعلام: الشارقة المشروع الثقافي العربي المستقبلي، حكومة الشارقة، ط1، 1418هـ/1997م. ص 19.
16. بيت النابودة، موقع هيئة الشارقة للمتاحف، على الرابط التالي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Bait-Al-Naboodah
17. بيت الشيخ سعيد بن حمد القاسمي، موقع هيئة الشارقة للمتاحف، على الرابط التالي: https://www.sharjahmuseums.ae/ar-AE/Museums/Bait-Sheikh-Saeed-Bin-Hamad-Al-Qasimi
18. حاكم الشارقة يفتتح المرحلة الأولى من حي الحصن التراثي في كلباء: موقع الإمارات اليوم، بتاريخ 18 مارس 2022، على الرابط التالي: https://www.emaratalyoum.com/life/culture/2022-03-18-1.1611777
19. معهد الشارقة للتراث، مشروعات الحفاظ وإعادة الإحياء للمباني التاريخية في إمارة الشارقة، د.ت، ص 16.
20. أحمد قاسم البوريني: الإمارات السبع على الساحل الأخضر. دار الحكمة، 1957. ص 176.
21. الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي: سرد الذات، ، مصدر سابق، ص 81.
22. عبد الستار العزاوي: البيت الغربي.. تحليل عناصره المعمارية وصيانتها، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2004. ص 12 – 16.
23. لمزيد من التفاصيل حول عملية الترميم للبيت الغربي، انظر المرجع السابق، ص 79 – 108.
24. فدوى إبراهيم: البيت الغربي.. حاضن الثقافة في الماضي والحاضر، موقع جريدة الشارقة، بتاريخ 12 مايو 2016، على الرابط التالي: https://cutt.us/zhrel
25. عبد الله علي الطابور: رجال في تاريخ الإمارات، ج2، مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، 2003. ص 26 – 27.
26. متحف مجلس المدفع، موقع قلب الشارقة، على الرابط التالي: https://www.heartofsharjah.ae/ar/majlis-al-midfa-museum.html
27. ناصر حسين العبودي، مصدر سابق، ص 28 – 29.

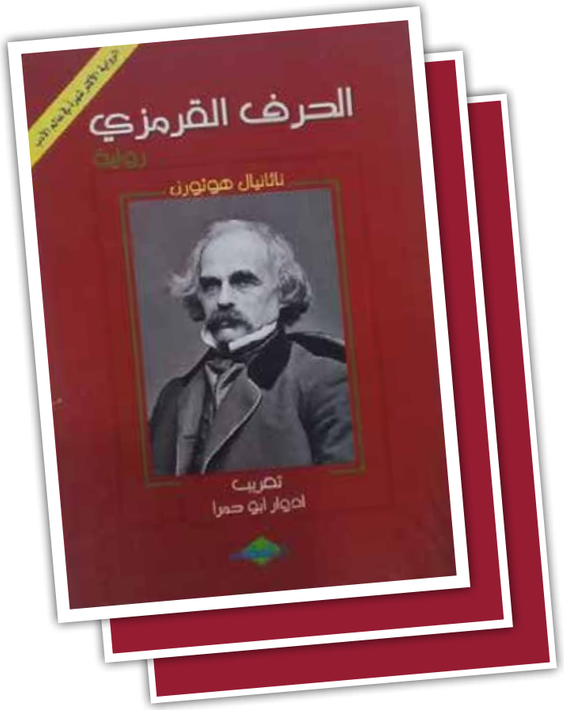

قراءة في رواية «الحرف القرمزي»

د. خليل السعداني
جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب

وُلِدَ مُؤلِّفُ الرواية ناثانيال هاوثورن بساليم (Nathaniel Hawthorne)، بماساتشوستس في 4 يوليو 1818. ولم يكن فخوراً بنسبه؛ لأن جون هاثورن (John Hathorne)، أحد أجداده البيوريتانيين (Puritans) كان ضمن القضاة الذين حاكموا «الساحرات» في ساليم سنة 1692، وأقروا الاضطهاد الديني لكثير من المستوطنين، ولذلك غير رسم كنيته بإضافة حرف إليها. التحق هاوثورن بكلية بودوين (Bowdoin) سنة 1821، وتخرج فيها سنة 1825. كان مولعاً بالقراءة، ويريد أن يصبح كاتباً. وقد عمل في البداية ببوسطن محرراً للمجلة الأمريكية للمعرفة المفيدة والترفيهية، وتم تعيينه بعد ذلك بدار الجمارك ببوسطن. وفي سنة 1842، تزوج من صوفي بيبوي (Sophie Peaboy)، وكانت من أنصار الفلسفة المتعالية (Transcendentalism). وكان هو نفسه قد التحق بهذه الطائفة الطوباوية قبل ذلك بسنة، وأصبح صديقاً مقرباً من كبار المفكرين الممثلين لهذا التيار على غرار رالف والدو إيمرسون (Ralph Waldo Emesron)، وهنري ديفيد ثورو (Henry David Thoreau)، وأموس برونسون ألكوت (Amos Bronson Alcott)، وابنته لويزا ماري ألكوت (Louisa Mary Alcott)).

وقد شكل التيار المتعالي حركة فلسفية، انتشرت في شرق الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر، ومثلت ردة فعل ضد الفكر العقلاني والرأسمالية والتقنية والصناعة والمادية، ودعت إلى احترام الطبيعة، وإلى عيش حياة تتميز بالبساطة، وإلى التركيز على أهمية الفردانية، كما طالبت بإحداث إصلاحات اجتماعية وسياسية، وآمن المرتبطون بهذه الفلسفة بطيبة الطبيعة والناس. ولما

بلـغ هاوثورن مرحلة النضج، نأى بنفسـه عـن هذه الحركة الفكرية.

يعـترف نقاد الأدب بـأن كتابات هاوثـورن مثلت في مرحلة النضـج جـزءاً مـن الرومانسـية المظلمـة، مـا يعني أن الخطايـا والتجـاوزات مرتبطـة بالطبيعـة البشريـة. وقد جمع هـذا الأديب بـين الرمزية مـن جهة، والرومانسـية التاريخيـة والسريالية مـن جهـة أخـرى. وقـد مثلـت إنجلـترا الجديـدة ذات الجذور البيوريتانيـة خلفية لمعظم أعمالـه، وانتقـدت رواياته وقصصـه القصيرة الفلسـفة المتعاليـة انتقـاداً لاذعـاً. ويمكـن اعتبـار روايـة الحرف القرمـزي (The Scarlet Letter)، وبيت الجلمونات السـبعة ((The House of Seven Gables، ورومانسـية تاريخ الميلاد ((The Birthdate Romance، وذو المابـل فـاون ((The Mable Faun أهـم رواياته الرومانسـية. وأوضـح هاوثـورن أن الرومانسـية (Romance) تختلـف عـن الرواية؛ لأنهـا لا تهتم بمسـار التجربة العاديـة. ويوظف النقـاد وجهات نظر نسـوية، ومقاربات تاريخيـة بخصوص وصـف أديبنا للمـرأة. وقد ركـز الكتاب النسويون على هيسـتر برين (Hester Prynne) في الحـرف القرمزي، فيما دافـع هاوثـورن عـن هـذه المرأة الخطاءة، وحط من قـدر البيوريتانية. أمـا بالنسـبة للتاريخانيـين، فقـد شـكلت هيسـتر الصـورة الرمزيـة التـي أفضـت إلى ما يُعـرف بالتحرر الإنجـابي (Reproductive emancipation)، وإلى منـح المرأة حـق التصويـت بأمريكا.

تم نشر روايـة الحرف القرمـزي، ذروة أعـمال هاوثورن، سـنة 1850، وتناول في مقدمتهـا عمله في دار الجمارك، وانتقـد فيها بعـض السياسـيين المحليين. وقـد أصبحت الروايـة مـن أكـثر الأعـمال مبيعـاً بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وبيع منها أكثر من 2500 نسـخة خـلال الأيام العـشرة الأولى لصدورهـا. وفي ديباجـة الروايـة، ذكر المؤلـف أنـه عـثر في دار الجـمارك عـلى مخطوطـة لجوناثـان بيـو (Jonathan Pue)، وهـو مسـاح سـابق، سرد فيهـا أحداثـاً وقعـت قبل زمنـه بنحو مائتي سـنة. وبناء عـلى تلـك الوثيقة، قـرر هاوثورن أن يكتـب رواية واقعيـة، لكنهـا مملـوءة ببعض الخيـال، وذلـك أنه ملأ البياضـات والفجوات بأحـداث من وحي خيالـه. وتقدم لنا هذه الروايـة لمحة عامة عـن الحياة اليوميـة الحقيقية للمجتمع البيوريتاني المتواضع في مسـتوطنة بوسـطن البريطانية.

تدور أحداث الرواية في بوسـطن خلال القرن السـابع عشر. وتتمثل الشـخصيات الرئيسة في هيسـتر برين، وابنتها بيرل (Pearl)، وزوجها روجر تشيليجووورث (Roger Chillingworth)، وعشـيقها آرثـر ديميسـدل ((Arthur Dimmesdale. في البدايـة وقـف الـراوي عند وصـف مؤسسـتين مهمتين في المسـتعمرة: المقبرة والسـجن. ويُعدّ السـجن بمثابة اسـتعارة لسـلطة المجتمع البيوريتاني الـذي كان يفرض على السـكان قيماً وقوانين صارمـة. وكان يقف بالقرب من السـجن حشـد من البيوريتانيين والبيوريتانيـات في انتظار خروج هيسـتر، الجانيـة، من أجـل تنفيذ مراسـيم العقاب.

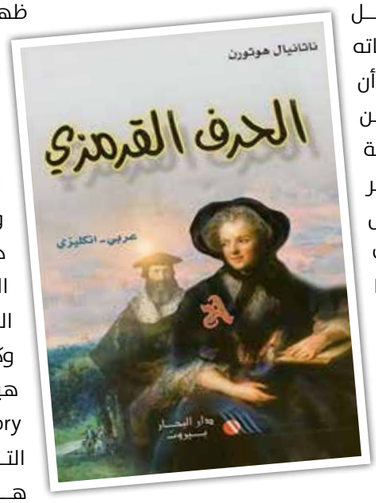

ظهـرت السـجينة، وكانـت امـرأة جميلة، وهـي تحمـل بـين يديهـا ابنتهـا الرضيعـة. وكان الجرم الـذي ارتكبته هو فاحشـة الزنا. كانت هيسـتر تحمل الحـرف القرمـزي (A) عـلى صدرهـا، الـذي كان يرمز إلى العـار؛ لكنها كانت وهي الأنيقة، تمـشي بكرامة، وتعرض دون خجـل الحرف القرمزي. أما النسـاء المحتشـدات، فكن سـاخطات على هذه الخطاءة، ومتعطشـات للانتقـام منها. وكانت العقوبـة تتمثل أيضـاً في اقتياد هيسـتر إلى سـقالة المشـيعة (The scaffold of pillory). وللتغلـب على العار التـي يكتويها أمـام هذا الحشـد، بدأت هـذه المـرأة في التفكـير في حياتهـا الماضيـة التي قضتها بإنجلـترا، كما تذكرت طفولتهـا، وكـذا الفترة التـي أخذهـا فيهـا زوجها إلى أمسـتردام، وأرسـلها من هناك إلى أمريكا. لم يكن أي أحد يعلم اسـم والد الرضيعـة. وفيما هي تنظر إلى الحشـد، رأت هيسـتر زوجها الذميـم ذا الخلقة القبيحـة الذي علم بذنبهـا من أحد الحضـور. وأمام هـذا الجمع، سـأل القس ديميسـدل الجانيـة عن اسـم الأب، لكنها رفضـت أن تجيب. عـادت هيسـتر أدراجها إلى السـجن، وكانـت مضطربة؛ لأن ابنتهـا لم تتوقـف عـن البـكاء، مـما اضطر السـجان إلى طلـب مسـاعدة طبيـب ما مـن بين الحشـد. تظاهـر روجر تشـيليجووورث بأنه طبيـب، وأمـد الرضيعة بالـدواء. ودخل الزوجـان في محادثـة، ورفضت هيسـتر الإفصاح عن اسـم أب الرضيعـة، وفي المقابـل، طلـب منهـا هـذا الأخير ألا تخبر أحـداً بهُوَيَّتِهِ الحقيقية. غادرت هيسـتر السـجن، لكن كان عليهـا أن تحمـل الحـرف القرمزي عـلى صدرها لبقية حياتهـا. وبعـد عزلها عـن المجتمـع البيوريتـاني، اختارت أن تقطـن في مسـكن نـاء بعيـداً عـن وسـط المدينـة. وبفضل اشـتغالها في التطريـز، أمكنها إنتـاج تحف فنية، وتحقيـق دخل ثابـت، والحصول عـلى حياة مسـتقرة. وبدأ البيوريتانيـون يرتـدون الملابس التي كانت تنسـجها. وفي إطـار هـذا الوضع الصعب، شـكلت بـيرل مصدر السـعادة الوحيـد لأمهـا، عـلى الرغم من أنهـا ثمرة خطيئـة. وكان الأطفـال يرفضون اللعـب معها، ويرى عمـوم الناس أنها مرتبطـة بالشر وبالشـيطان، ويجب، من أجـل تخليصها منه، أن تنشـأ في منزل مسـيحي، فيما اعتبرها الـراوي ملاكاً. ومـن أجـل الاحتفـاظ عـلى ابنتها، ذهبـت هيسـتر للقاء الحاكم بيلينغهـام (Billingham) في قصره، وبفضل تدخل القس آرثر ديميسـدل، تمكنت هيسـتر من تحقيـق رغبتها.

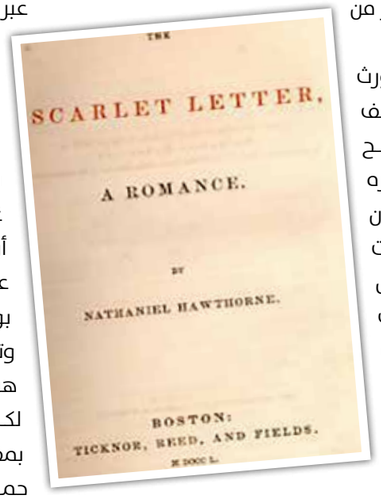

أشـار الراوي إلى أن روجر تشيليجووورث مخلـوق شـيطاني، فهو لم يكشـف عـن هُوَيَّتِـهِ الحقيقيـة. وقـد أصبـح مشـهوراً في بوسـطن باعتبـاره طبيبـاً، واختـار آرثر ديميسـدل ليكون مرشـده الروحـي. وبعـد أن بـدأت صحة هـذا الأخـير في التدهور، حاول تشـيليجووورث، الـذي تعلـم الطـب على يد الهنود، مسـاعدته للتعافي مـن مرضـه. ومـع مـرور الوقـت، توطـدت العلاقـة بـين الرجلـين، وأصبحا يتقاسـمان السـكن نفسه. وخـلال مقامهـما بالمنزل نفسـه، أحس تشـيليجووورث بأن ديميسـدل يكتـم سراً خطراً، وأن ثمة أسـباباً نفسـية هي التي تفسر مشـكلاته الصحية. وعـلى الرغم من أنـه طلب من القـس أن يخبره عن سره الدفـين، إلا أن هذا الأخـير رفض الكلام. راودت الشـكوك تشـيليجووورث أن ديميسـديل هو والد بيرل، وأن عليه أن ينتقم منـه. أما القس، الـذي كان يحس بالعار، ويشـعر بالخجـل؛ لأنـه كان يمثـل الكنيسـة، ويحظـى باحـترام النـاس، فأصبح يكثر مـن الصيام، ويضرب نفسـه، ويحرم نفسـه مـن النـوم. وفي إحدى الليـالي، غـادر منزله، وتوجه نحـو السـقالة، حيث تمـت معاقبة هيسـتر من قبـل، وبـدأ يصرخ بصـوت عال، وأمكن لسـكان بوسـطن سـماعه ورؤيتـه. وعقـب ذلـك، انضمـت إليـه كل من هيسـتر وبيرل، وكشـف عن صدره الـذي كان يوجد عليه وشـم حـرف (A)، واعترف بذنبـه. وفي هـذا الوقت، أنار نيزك السـماء، ورأى ديميسـديل حرف (A) بشكل عظيم، وقدم بعد ذلك تشـيليجووورث، وأخذ القـس إلى المنزل. مرت السـنوات تباعاً، وتغيرت سمعة هيسـتر نحو الأفضل، فكانـت تعين المريـض والفقير، كـما كانت تحـاول حماية ديميسـديل مـن زوجها. وأخـيراً أدرك سـكان بوسـطن فضائلهـا، وأصبـح حـرف (A) الـذي كان يـدل عـلى الزنا (Adultery)، علامة على القدرة (Able). وطلبت هيسـتر من تشـيليجووورث أن يصفح عن عشـيقها، لكنه رفض، واعترف بولائه للـشر. واتصلت هي بعـد ذلك بالقـس، وأخبرته أن تشـيليجووورث هو زوجهـا، ونصحته أن يترك مسـكنه، وأن يرحل إلى أوروبا، ويغير اسـمه. قبل القـس الاقتراح، وقرر العشـيقان الانتقـال سراً إلى القـارة العجوز. لكن لسـوء حظهما اكتشـف الزوج الخطـة، وقرر مرافقة العشـيقين عبر السـفينة نفسـها. وفي النهاية، لم يحـدث شيء من هـذا كلـه. وفي أحد الأيام، ألقى ديميسـديل خطبته الانتخابيـة، ثم توجه تلقاء السـقالة، وطلب مـن هيسـتر وبـيرل الالتحاق بـه، وهنـاك اعـترف بأنه آثـم على غرار عشـيقته، وأنه والد بـيرل. وبعد أن أظهـر الحرف القرمزي الموشـوم على صـدره، سـقط ميتاً. وبعـد ذلك بوقت قصـير، تـوفي تشـيليجووورث، وتـرك ممتلكاتـه لبيرل. وعـادت كل من هيسـتر وابنتها أدراجهـما إلى إنجلترا. لكـن عـادت هيسـتر إلى المسـتعمرة بمفردهـا من جديد، واسـتأنفت طواعية حمـل الحـرف القرمـزي عـلى صدرها. ولمـا تُوفيت، دُفنـت بجوار ديميسـديل، وتقاسـم العشـيقان شـاهد قبر واحد يحمل حـرف ((A.

ذكـر المـؤرخ بـروس دانيالـس (Bruce C. Daniels) في إحـدى مقالاته: «إن كل من يبحث عـن روح إنجلترا الجديدة، عليه أن يأخـذ في عين الاعتبار معنى وتأثـير رواية الحرف القرمـزي لناثانيال هاوثـورن. فأكثر من خطـب كوتن ماتر ((Cotton Matter أو مقـالات رالف والدو إيمرسـون(Ralph Waldo Emerson) ، وأكثر من شـعر روبرت فوست (Robert Fost) أو تواريـخ صمويـل إليـوت موريسـون (Samuel Eliot Morsison)، تحمـل قصـة هاوثـورن القصـيرة عـن الزنـا والعقـاب والوعد بكشـف حقائق عميقة عن شـعب المعاهديـن لله، وعـن الأمة التي أسـهموا في خلقها». انطلاقـاً مـما ذكـره دانيالس، نفهـم القيمـة التوثيقية لروايـة للحـرف القرمـزي، لمعرفـة المسـار التاريخـي لإنجلـترا الجديدة.

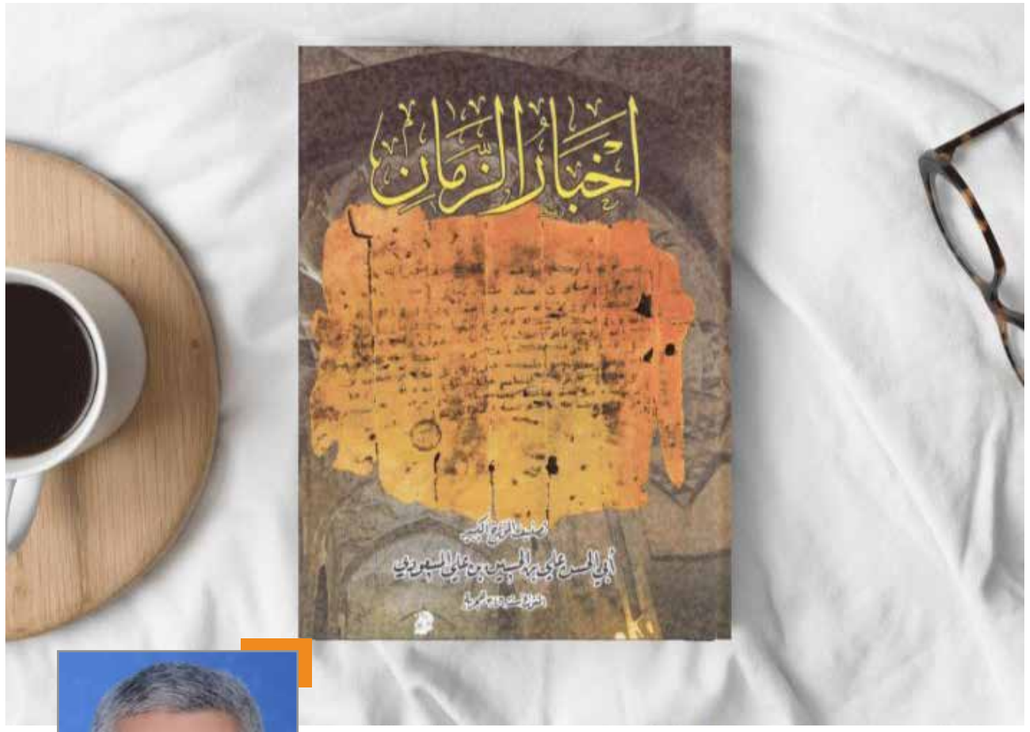

صورة أهل الصين
في الثقافة العربية الإسلامية

د. أحمد الشكري
أستاذ التعليم العالي
بجامعة محمد الخامس بالرباط

إن انتقال مقر الخلافة الإسلامية من دمشق على عهد الأمويين، إلى بغداد أيام دولة بني العباس، قبيل منتصف القرن 2هـ/8م، يقوم شاهداً بليغاً على مدى رغبة العرب المسلمين في الاستفادة من عائدات التجارة المرتبطة بطريق الحرير البرية الصينية. والواقع أن كلا الجانبين (الصيني والعربي الإسلامي)، كان يتشوّف للآخر، فعرفت العلاقات بينهما تطوراً ملحوظاً خلال القرون اللاحقة، ما حمل أهل القلم من العرب المسلمين على استحضار بعض جوانب الحضارة الصينية، مع التّشديد على كيفية تفاعل القطاي (= أهل الصين) مع المسلمين الوافدين عليهم. والمقام يضيق برصد مجمل الكتابات المتاحة بهذا الشأن؛ وسنكتفي منها باستعراض بعض النماذج الدّالة والمعبّرة.

وليس أحسن من أن تكون البداية، مع تلك المذكرات الخاصة برحلة سليمان التاجر منتصف القرن 9م، التي دوّنها لاحقاً أبو زيد الحسن السيرافي. وتشهد هذه المذكرات على أن سليمان التاجر سافر مرات عديدة ـ بغرض التجارة ـ إلى الهند والصين، ومما قاله عن هاته الأخيرة: «وليس بعد بلاد الصين مما يلي البحر ممالك تعرف، ولا بلاد توصف إلا بلاد السيلي وجزائرها، ولم يصل إليها من الغرباء أحد من العراق ولا غيرها». وحينما انتقل لوصف أحوال أهل الصين، أشاد بإنصافهم في المعاملات التجارية، لدرجة أنهم يقتلون قاطع الطريق؛ ثم استمر سليمان التاجر في التقاط بعض الصور، فتحدث عن عناية أهل الصين بالخط والكتابة، كما لم تفته هاته الفرصة السانحة للحديث عن عادة شربهم للشاي.

وخلال القرن الموالي (10م)، استحضر الرحالة والمؤرخ المسعودي (ت. 957م) جلّ ما سجلته المصادر السابقة، وأبعد من ذلك، خصّ أخبار الصين بفصل منفرد في موسوعته مروج الذهب، وأكد أن «الجور بها معدوم». وفي كتابه أخبار الزمان حدثنا عن كيفية تصدّي التجار الصينيين لقراصنة البحر، ومما ذكره في هذا الجانب: «فالمراكب الصينية يُعدّ فيها التجار السلاح والنفط، وربما كان في المراكب أربعمئة نفس من التجار، وخمسمئة مقاتل، فلا يطمع فيهم، ويطمع في سواهم، وتغتال سفينتهم».

وكلما تقدمنا في الزمن اتسعت قاعدة معلوماتنا، وتعاظم حضور الصين في الثقافة العربية الإسلامية، إلى درجة أن الطبيب شرف الزمان طاهر المروزي، في مؤلفه طبائع الحيوان، الذي كتبه نحو سنة 514هـ/1120م، تبحّر في استنطاق أحوال الصين، وكتب في ذلك بابا بأكمله. ومما جاء عنده: «وأهل الصين أمة عظيمة، [... وهم] أحذق الناس بالصنائع المهنية، لا يدانيهم فيها أحد من الأمم، ولأهل الروم يد عالية فيها، إلا أنهم لا يبلغون فيها مبلغ أهل الصين. وأهل الصين يقولون إن الناس كلهم عميان في الصناعة إلا أهل الروم، فإنهم يبصرون بعين واحدة، يعني أنهم عرفوا نصف العمل». ومن الإفادات التاريخية المهمة، التي احتفظ بها الطبيب المروزي:

- بداية انتقال جاليات إسلامية للصين واستقرارها هنالك خلال القرن 7م (نتيجة صراع الأمويين مع العلويين الطالبيين).

- انتقال صناعة الكاغد أو الورق من الصين إلى المشرق الإسلامي عبر سمرقند، علماً أن صناعة الورق بالصين، بدأت منذ ما قبل بداية التاريخ الميلادي. وفي سياق الحديث عن انتقال التقنيات بين الحضارات والأمم المطلة على المحيط الهندي، نشير إلى أن الإسطرلاب كان من الاكتشافات الآسيوية، وبعد أن طوره المسلمون حملوه من المحيط الهندي وتفرعاته (الخليج العربي والبحر الأحمر) إلى البحر الأبيض المتوسط؛ ولم يقتصر استعماله في المسالك البحرية، وإنما أيضاً في المسالك البرية الصحراوية، خاصة في صحراء سيناء المصرية.
- استعمال أهل الصين جواز السفر في تنقلاتهم منذ مطلع الألفية الثانية من التاريخ الميلادي، وربما قبل ذلك، بمعنى أنهم أول من استعمله.
- وملك الصين: «لا يكاد يبرز ولا يصل إليه أحد إلا وزيره أو حاجبه ورؤوس عسكره يرونه في كل سبعة أيام مرة واحدة (...) وإذا ورد عليه رسول يسجد ولا يرفع رأسه».

ومثلما كان للمشرق الإسلامي اهتمام بأحوال أهل الصين، فقد كانت لأهل الغرب الإسلامي عناية خاصة بهم، على الرغم من بعدهم عنهم. وقد كان طبيعياً أن تكون بداية الاهتمام من جانب الجغرافيين على غرار أبي عبيد الله البكري (ت. 1094م) في مؤلفه المسالك والممالك، أو الشريف الإدريسي (ت. 1166م) في مؤلفيه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ثم في أُنس المُهج وروض الفُرج. وغني عن البيان، أن هذا النوع من التصانيف حرص على استحضار صورة الصين كمعطى جغرافي وفق النظرية البطلمية: الأقاليم السبعة للأرض المعمورة؛ بيد أن ذلك لم يمنع الجغرافيين المغاربة من تسجيل بعض الإفادات التاريخية عن الصين وأهلها مما كان متداولاً في الثقافة العربية الإسلامية، وأيضاً تلك التي كان يتداولها البحارة وتجار المحيط الهندي وقت إنجاز مؤلفاتهم (الرواية الشفوية).

على أن أبرز الشهادات المصدرية التي يملكها الجانب المغربي عن نهاية الدنيا أو نهاية المعمور (الصين) شرقاً خلال العصر الوسيط، تتمثل في مذكرات الرحالة ابن بطوطة، الذي زار الصين وخالط أهلها مدة غير يسيرة قُبيل منتصف القرن 14م، ثم خلّف لنا وثيقة تاريخية غاية في الأهمية عنها.

وقد انبهر رحالتنا بأحوال المجتمع الصيني، وحكمة نخبه المثقفة، وشدّته الكثير من المظاهر التنظيمية الاجتماعية والسياسية والصناعية، بل حتى المعمارية. وكان أول ما لفت نظره، تلك الطاقة الإيجابية للصينيين في التسامح الديني، مما كان ينعكس بوضوح في طريقة تعاملهم مع المسلمين، ومن أجلّ ما قاله بهذا الشأن: «وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين، ينفردون بسكناها، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظمون محترمون». وهنالك كثير من المظاهر في حياة أهل الصين، مما لفت انتباه ابن بطوطة إبان إقامته بين ظهرانهم، فأقدم على توثيقها، ومنها:

* أهل الصين يعظمون الشيوخ من كبار السن، ويولونهم عناية معتبرة.
* الحرير عندهم كثير جداً.
* وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات، وأشدهم إتقاناً فيها. وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا سواهم، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً.
* وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافر، فإن الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة، فلا يخاف عليها.
* اعتمادهم في التجارة على الأوراق النقدية (قطع الكاغد).
* وصناعة الفخار عند أهل الصين مشهورة، ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب.

ومن الوقائع اللافتة في كلام رحالتنا عن بلاد الصين، مما يندرج في علاقاتها ببلاد المغرب، إشارته لحضور ووجود التجار المغاربة في تلك البقاع من المعمور. يشهد على ذلك، لقاء ابن بطوطة بمدينة قنجنفو الصينية «مولانا قوام الدين السبتي (نسبة لمدينة سبتة المغربية)، المعروف بالبُشري». والغريب في الأمر هنا، أن رحالتنا بعد عودته للمغرب، أخذ يتهيأ لزيارة بلاد التكرور (= بلاد السودان) على عهد إمبراطورية مالي، وفي طريقه إليها انطلاقاً من مدينة فاس عام 1352م، نزل بمدينة سجلماسة المغربية عند الفقيه أبي محمد البشري، وهو الذي سبق لابن بطوطة، أن لقي «أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين، فيا شد ما تباعدا، فأكرمني غاية الإكرام». وبالموازاة مع ذلك، نقع في متن الرحلة البطوطية على إشارة تاريخية فريدة، مفادها أن أبا البركات المغربي، كان أول من أدخل الإسلام في منتصف القرن 6هـ/ 12م للجزر الواقعة جنوب غرب الهند، المسماة جزر المالديف، علماً أن المسافة بينهما تبعد بمئات الكيلومترات.

وما من شك، أن العلاقات فيما بين الصين وبلدان شرق وشمال إفريقيا، تواصلت من الجانبين خلال القرون اللاحقة، يتضح ذلك بصورة جلية عبر محاولة ملوك الصين استكشاف القارة الإفريقية خلال الثلث الأول من القرن 15م، حيث أرسلوا للسواحل الشرقية الإفريقية، مجموعة من الأساطيل في سنوات مختلفة من الفترة المشار إليها تواً.

وعلى الرغم من قلة وندرة الشهادات المصدرية المتاحة لنا، فإن الإشارات الواضحة والتلميحات الضمنية، تفيدنا أن رحلات المغاربة نحو الهند والصين، استمرت ولم تنقطع قط. ويظهر من خلال الوثائق التي توفرها رسائل الجنيزا، سواء منها الخاصة بالقاهرة أو تلك المتعلقة بالهند، أنها حافلة بالمعلومات التاريخية المهمة عن هذه العلاقات، والمتاح منها حالياً، يلحّ على الدور المتميز والفعال للتجار المغاربة المسلمين واليهود في موانئ المحيط الهندي من أقصاه إلى أقصاه. وفي هذا الباب، ننتظر من الزملاء الباحثين الصينيين، أن يمدونا بما يمكن اكتشافه مستقبلاً من وثائق تاريخية صينية، شاهدة على كثافة وزخم العلاقات بين الجانبين.

صحيح أن دخول البرتغاليين للمحيط الهندي نهاية القرن 15م، قلب الكثير من المعطيات بالمنطقة إبان القرن الموالي وما بعده، حيث فَقَدَ تجار الصين والهند والفرس والعرب المسلمين أو اليهود امتيازاتهم وتفوقهم. على أن ذلك لم يمنع استمرار التواصل ما بين المغرب والصين، إذ تشير المصادر لأحد المغاربة ممن استقروا باليمن نهاية القرن 16م، اسمه يوسف بن عابد الفاسي (ت. 1638م)، وهو صاحب رحلة قادته إلى حضرموت. ومما ورد في رحلته، أن له ولداً يمتهن التجارة، سافر غير ما مرة للهند خلال الثلث الأول من القرن 17م؛ وبحكم كثافة العلاقات التجارية البحرية بين الهند والصين، ناهيك عن قوة الشباب ومتطلبات المهنة في طلب الرزق، نكاد نجزم أنه زار الصين أيضاً، أو على أقل تقدير، لا يبعد أنه دخل أحد موانئها.

الهيمنة الذكورية ودونية النساء

قراءة سوسيو - ثقافية لدينامية العلاقة بين الجنسين

سارة اسخيفة
باحثة في علم الاجتماع
والانثروبولوجيا -المغرب

نروم في هذا المقال تفسير أسباب الوضع الدوني الذي تعيشه النساء منذ القدم، دون أن نغفل رصد عوامل قيام النظام الذكوري كإرث كوني مشترك، وما الآليات التي تدعم استمراره، وكيف يتبنى الأفراد ومن بينهم النساء هذه التصورات التقليدية حول المرأة في واقع التحولات اليوم؟ وإلى أي حدّ تتواطأ النساء مع النظام الذكوري، عندما تكون فاعلاً في تداول أمثال تشرعن للعنف وللتمييز الجنسي؛ لنخلص إلى ملامسة أثر هذا التنميط الشعبي لصورة المرأة على تمكينها مجتمعياً.

على سبيل التقديم

شكلت الثقافة الشعبية أحد المحددات التاريخية المفسّرة للعقليات الذكورية في تمثلها للنساء، حيث عمل المأثور الشعبي عبر متنه إلى تنميط صور المرأة، ليستبطن بذلك خضوعها كمهيمن عليه، كما أسهمت التراتبية الجنسية بشكل كبير في تحول التمييز الجنسي إلى بناء ثقافي يحكم العلاقات بين الجنسين، ويحدد الهويات والأدوار داخل المجتمع، إنه تمايز ترسخ عن طريق التصورات والمعتقدات التي وسمت المتخيل الشعبي عبر النماذج الثقافية والاجتماعية المدعمة لقيام النظام الذكوري، والمتواطئة مع إعادة إنتاجه لتغدو المرأة تعبيراً للخضوع، والرجل للسيطرة والسيادة، سننطلق في هذا المقال من بعض التساؤلات التي شكلت ركيزة أساسية لفهم أسباب الدونية التي تعيشها النساء، وكيف يمكن تفسير خضوع النساء للوضع الدوني، والعمل على ترسيخه واستمراره كأمر طبيعي ومشرعن؟ وهل بإمكاننا اعتبار دونية النساء إحدى الآليات لتبرير خضوعهن وتبعيتهن للنظام الذكوري لضمان استمراريته؟

أولاً- دونية النساء من الطبيعي إلى الثقافي:

عكست الثقافة الشعبية على مر التاريخ وضعاً دونياً للنساء، جسّد لنا نظرة المجتمع البشري لنسائه، حيث ترجع أسباب هذه الدونية إلى الإقرار بالفوارق البيولوجية كمحدد أساسي للهوية الجنسية والدور الاجتماعي، إلى جانب تأثيرها في دينامية العلاقة بين الرجل والمرأة، هي فوارق انطلقت مما هو طبيعي لتبني للمرأة صوراً ذهنية حددتها الثقافة في صور نمطية، يعدّ الإخلال بها أو الخروج عن قوالبها من بين الاختلالات التي من شأنها أن تخل بأسس استمرار النظام الذكوري، هذه النماذج الثقافية التي كان لها أثر في طبيعة الصور المنتجة حول الجنسين، نجدها في مقام آخر أنها وسمت العلاقة بينهما بنوع من الثنائية كمهيمن ومهيمن عليه. وبتعبير آخر يفسر عز الدين الخطابي هذه العلاقة بين الرجل والمرأة في كونها: «وضعية لا متكافئة تسم كل مجتمع أبوي، وتسهم في إقرار نماذج ومعايير خاصة بكل جنس، حيث تصبح الأنوثة مرادفة للطاعة والوداعة والصمت، في حين تعدّ الرجولة مرادفة للسلطة والقوة والإرادة، ويتم تثمين هذا «التمايز» عن طريق المواقف والممارسات

الاجتماعية، مثل: الزيجات التي تعقد ضد رغبة المعنية بالأمر، ورفض تمدرس الفتيات، ومعارضة عمل المرأة خارج البيت...»[1]. وعلى المنوال نفسه تفسر إليزابيث كريميو هذا الوضع الدوني للنساء كإرث مشترك: «تشترك فيه جميع المجتمعات التقليدية في تبني فكرة أن الرجال متفوقون على النساء، وبالتالي فسيطرتهم عليهن تبدو أمراً مشروعاً»[2].

ثانياً- الهيمنة الذكورية كممارسة مشروعة

احتفلت الثقافة الشعبية في جل متونها وأجناسها بالذكر كأصل للوجود، وبشارة خير منذ ولادته إلى مماته، وقد أبرزت عائشة بلعربي هذا الميز في طقوس استقبال المولود الذكر التي تحمل في طياتها كل صور الحيف والتمييز الجنسي، حيث ترى أنه: «على مستوى استقبال المولود الجديد، يلاحظ في أغلب الحالات، أن الطفل الذكر يحظى بمكانة ممتازة، وأن الأم والأسرة التي تنجب الولد ترتفع قيمتها؛ لأن هذا الأخير يخلد الاسم العائلي، ميراث وسلالة الفئة الاجتماعية»[3].

فقد كرس التاريخ البشري منذ القدم علاقة لا متكافئة بين الجنسين، وقد ترتب عن هذا البناء الشعبي لكل من صورة الرجل والمرأة ميزاً قائماً على الجنس، حيث احتل فيها الرجل الدرجة الأولى في مقابل احتلال المرأة للدرجة الثانية، وعلى إثر هذا التقسيم توزعت الأدوار وتحددت المكانات والهويات لكل من الذكر والأنثى، هكذا احتكر الرجل قديماً وسائل الإنتاج وأداء الأعمال

الأساسية، بينما نسب للمرأة كل الأدوار الهامشية، بالإضافة إلى الأعمال المنزلية، واختزال كيانها في الإمتاع واستمرار النسل والإنجاب. فإذا كانت الأمثال قد كرست صوراً نمطية حول المرأة، فإن الثقافة الشعبية ذاتها قد جعلت من الرجل رأسمالاً اجتماعياً أساسه العقل والقدرات الذهنية والمؤهلات الجسدية، بينما على المرأة أن تخضع كذات تابعة ليتم الاعتراف بها في صور مشرقة: «امرأة بألف راجل»، «مرا ونص»، «وراء كل رجل عظيم امرأة»، كلها أقوال مأثورة تحضر فيها الصور الإيجابية عندما تغيب فاعلية المرأة لتقرن بصفات الرجل كصفات إيجابية، وفي المقابل، فإن تشبيه الرجل بالنساء لا يغدو إلا أن يكون تشكيكاً في رجولته وفحولته، وتبخيساً من قيمته: «كتبكي بحال المرا»، «أولاد الهجالة قليل اللي يجي منهم راجل»، «امرا بن امرا، اللي يشعل الفنار فالقمرة»، كناية عم أن الخوف وصفات الضعف مقتصرة فقط على النساء،

وعلى الرجل أن يتسم بالشجاعة والفحولة، حتى لا يتم انتسابه لجنس الإناث ويضمن إمكانية إخضاع النساء، وفي هذا الصدد تفسر إليزابيث كريميو أسباب الهيمنة الذكورية كأمر طبيعي على ضوء ما أكدته فرانسواز هيريتيي Françoise Héritier أنه «يجب احتقارهن بما فيه الكفاية حتى يصل بهن الأمر إلى اعتبار خضوعهن وضعية طبيعية»، حيث يرتكز النظام البطريركي كله على «استبطان النساء لدونيتهن». ويندرج هذا ضمن نظام فكري كوني يعلي من قيمة الذكر، ويحط من شأن الأنثى»[4].

وتأكيداً على ما سبق يخلص فوزي بوخريص إلى أن «ما يجعل الهيمنة الذكورية راسخة في لا شعورنا لدرجة أننا لم نعد ندركها أو نضعها موضع تساؤل، هو أنها تتأسس على مثل هذا النوع من العنف الرمزي الذي يمارسه الرجال على النساء، والذي يتم تشغيله، وكأنه عنف طبيعي»[5].

---

1. عز الدين الخطابي، دينامية العلاقة بين التقليد والحداثة وانعكاسها على علاقة الرجل بالمرأة، الملتقى، العدد الرابع، السنة الثالثة، 1999، ص25.
2. إليزابيث كريميو، وضعية المرأة في العالم، ترجمة حنان قصبي ومحمد الهلالي، دار توبقال للنشر الطبعة الأولى، المغرب، 2015، ص 14.
3. عائشة بلعربي، تحرك النساء والتغيرات الاجتماعية، مجلة المشروع، العدد الثاني، الرباط، 1980، ص 217.
4. إليزابيث كريميو، المرجع نفسه، ص15.
5. فوزي بوخريص، المرأة في خطاب العلوم الاجتماعية، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2016 ص 62، ص 63.

لائحة المراجع:

1. عز الدين الخطابي، دينامية العلاقة بين التقليد والحداثة وانعكاسها على علاقة الرجل بالمرأة، الملتقى، العدد الرابع، السنة الثالثة، 1999.
2. إليزابيث كريميو، وضعية المرأة في العالم، ترجمة حنان قصبي ومحمد الهلالي، دار توبقال للنشر الطبعة الأولى، المغرب، 2015.
3. خضر زكريا، ملاحظات حول واقع المرأة العربية ودورها في التنمية، دراسات عربية العدد الخامس، السنة التاسعة عشرة. مارس، 1983.
4. عائشة بلعربي، تحرك النساء والتغيرات الاجتماعية، مجلة المشروع، العدد الثاني، الرباط، 1980.
5. بيير بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة د. سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.
6. فوزي بوخريص، المرأة في خطاب العلوم الاجتماعية، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2016.

من تراث «ماسبيرو زمان».. ومباهج هذا الزمان!

(من كنوز الأرشيف التلفزيوني والإذاعي المصري)

إيهاب الملاح
كاتب وناقد - مصر

- 1 -

في أوقاتٍ كثيرة تنتابني نوبات نوستالجيا غامرة لا أجد منها مهرباً ولا مفراً! غالباً ما يكون السبب واحدة من تلك المواد النادرة (بل شديدة الندرة) التي يُعاد بثها على قناة ماسبيرو زمان التي تعيدنا إلى «زمان» و«مباهج زمان»!

نعم، «ماسبيرو زمان» أحد مباهجنا القليلة في هذا الزمان.. وقناة «ماسبيرو زمان» لمن لا يعرفها أو لم يسمع بها، هي قناة أطلقها التلفزيون المصري الرسمي منذ سنوات طويلة، لبث مواد من كنوز أرشيفه العامر (افتتح التلفزيون المصري رسمياً في عهد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر سنة 1960، وظل متربعاً على عرش صدارة الإعلام المصري والعربي لما يقرب من أربعة عقود كاملة، إلى أن حدث التحول الكبير فيما سمي بـ«عصر السماوات المفتوحة» والفضائيات، وكانت سنة 1995 هي السنة التي شهدت فيما أظن بداية التراجع عن هذا الدور في ظل صعود تلفزيونات عربية أخرى، وإمكانات أحدث وأكثر عصرية، فضلاً على استقطاب الكفاءات وأصحاب المواهب الممتازة التي كان يزخر بها التلفزيون فهاجرت جميعاً، والتحقت بهذه الفضائيات الصاعدة.

المهم أن التلفزيون المصري وعلى مدى الأربعين سنة (1960-2000) قدم للمشاهد المصري والعربي على السواء، أرشيفاً حياً ليس له مثيل، من مواد وأفلام ومسلسلات وبرامج، بل إعلانات، وللأسف الشديد غاب حس التوثيق والأرشفة منذ البداية، ففقدنا كنوزاً لا تقدر بمال، فضلاً عما تعرض له هذا الأرشيف الزاخر (إذا أضفنا إليه كنوز الإذاعة المصرية منذ 1934) من نهب وسرقة وإهمال وتلف.. إلخ.

عموماً، الحديث ذو شجون، وأنا هنا أستعرض فقط بعض ما يدل على أصالة هذا الأرشيف الحي وعلى قيمته وما يمثله من ضرورة وحاجة للباحثين، وحتى المشاهدين والمتابعين، ولعل ذلك يفسر سر الإقبال الكبير والمذهل على قناة (ماسبيرو زمان) والذي تضاعف مرات ومرات في السنوات الأخيرة، وهذا أمر «عجب عجاب» كما يقولون في ظل التنافس الرهيب من السوشيال ميديا والتيك توك وما شابه!

- 2 -

أتحدث عن ميراثٍ سمعي وبصري، يمتد لما يقرب من تسعين سنة (افتتحت الإذاعة المصرية رسمياً عام 1934، وانطلق البث الأول للتلفزيون المصري عام 1960)؛ أي أننا نتحدث عن إنتاج ما يقرب من ستين سنة كاملة منذ بدأ التلفزيون بثَّ مواده المصورة (تسجيلات نادرة/ تلاوات قرآنية مصورة/ حفلات وصور غنائية/ أوبريتات/ مسرحيات/ اسكتشات مصورة/ برامج/ منوعات.. إلخ)، وذلك قبل الدخول إلى مرحلة إنتاج الدراما الناضجة والمسلسلات الرائجة التي ستظهر تباعاً منذ السبعينيات، وتزدهر وتتألق طوال حقبتي الثمانينيات والتسعينيات، وهما اللذان نطلق عليهما حقبة ازدهار الدراما التلفزيونية، وفيهما ظهرت معظم الأعمال والمسلسلات التي ما زلنا نستمتع بمشاهدتها حتى الآن تحت وصف «كلاسيكيات الدراما التلفزيونية»، أو تراث الدراما والمسلسلات التلفزيونية والإذاعية.

وإذا ركزت بحثك على المواد ذات الطبيعة «الوثائقية» أو الأرشيفية أو التسجيلية، والبرامج التي استضافت في وقتها كبار المبدعين والمفكرين والمثقفين، من كل التيارات والاتجاهات والمذاهب، لوجدنا وفرة غير مسبوقة من هذه المواد.. وسنجد بين أيدينا حلقات نادرة وقيمة يظهر فيها نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وعبد الرحمن الشرقاوي، وفؤاد زكريا، ولويس عوض، وعلي الراعي، وشكري عياد، وعبد القادر القط، والأبنودي، وأمل دنقل، وأحمد عبد المعطي حجازي.. وعشرات وعشرات من ألمع نجوم الفن والأدب والإبداع والفكر والإنسانيات والعلوم الطبيعية الذين تكحلت بهم الحياة الثقافية، ليس في مصر وحدها، بل في جميع أنحاء العالم العربي، في القرن العشرين.

- 3 -

هذه الوفرة كانت تتسم بالقيمة العالية، بل المتناهية؛ لقيمة هذه الشخصيات التي ظهرت على الشاشة وقتها، أولاً، وقيمة محاوريها وقدرتهم على إنطاق ضيوفهم الأجلاء بالثمين والذهبي والغالي، ثانياً، قيمة اللحظة التاريخية ذاتها التي توقف الزمن عندها، وجرى تسجيل تلك الحلقة أو تلك فيها.. ولدينا نماذج عدة يمكن أن يكون كل نموذج منها محوراً لمقال كامل. لكن سأكتفي بالتوقف قليلاً أمام نموذجٍ واحد من هذه النماذج ذات القيمة العالية؛ وهي حلقة رائعة من برنامج «شريط الذكريات»، من إعداد وتقديم الإذاعي والشاعر الراحل الكبير فاروق شوشة، أعيد بثها مؤخراً على قناة «ماسبيرو زمان»، وقد استضاف فيها علمين من أكابر الأسماء في تخصصهما العلمي والإنساني والفكري والثقافي.. هذه الحلقة أعدها واحدة من «مباهج» ماسبيرو زمان، التي لا تزول ولا تدول دولتها مهما مرَّ عليها من سنوات وسنوات. نعم، إن «ماسبيرو زمان» أحد مباهجنا القليلة في هذا الزمان!

في هذه الحلقة النادرة الرائعة الممتعة التي أُعيد بثها على (ماسبيرو زمان)، سيستضيف الإذاعي الكبير فاروق شوشة العلَّامة المؤرخ والأديب والمحقق والمترجم المرحوم الدكتور محمود علي مكي، دائرة معارف عصره وشيخ شيوخ الدراسات الأندلسية في الجامعات المصرية والعربية والعالمية، ومعه الراحل الدكتور حسين مؤنس، المؤرخ الموسوعي صاحب المؤلفات الشهيرة، وبينهما يدور واحد من أمتع وأجمل وأزهى الحوارات الثقافية التي يمكن أن تستمع إليها في حياتك. وكلاهما فضلاً على ذلك كله من كبار أساتذة التراث العربي، وقدما للمكتبة العربية ذخائر وكنوزاً لا تقدر بمال من روائع تراثنا العربي وخاصة الأندلسي.

حديث رائع ورائق عن الأندلس؛ تاريخاً وحضارة وثقافة وعلماً وفناً.. وسياحات مدهشة في جنبات التاريخ الإسلامي، والحضارة الإسلامي، والثقافة العربية الأصيلة، وعمليات المثاقفة الرائعة بين الحضارتين العربية والإسلامية والمسيحية الغربية على أرض الأندلس.

- 4 -

في الحلقة النادرة ذاتها، ستتحدث زوجة الدكتور مؤنس «السويسرية» بعربيةٍ مدهشة، وستتحدث ابنته الدكتورة منى مؤنس، أستاذة الأدب الإنجليزي بكلية الآداب، عن حرص والديها على تعليمها اللغات، وكيف أدركت أهمية وقيمة أن تتحدث لغة أجنبية أو أكثر جنباً إلى جنب اللغة الأم في بيت علم ومعرفة وثقافة (لا غنى عنها).. اللغات وما أدراك ما اللغات وأهميتها وضرورتها جنباً إلى جنب إجادة وتعلم اللغة الأم!

كان الدكتور مؤنس يجيد أربع لغات أجنبية بطلاقة مدهشة غير العربية طبعاً. كان غزير الإنتاج جداً، تأليفاً وتحقيقاً وترجمة، وكانت له فرادة في اختيار موضوعات كتبه وعناوينها معاً؛ وتحقيقاته لبعض أهم كتب ومخطوطات تراث الأندلس في الطبقة الأولى الممتازة من أعمال التراث المحققة تحقيقاً علمياً محترماً (راجع تحقيقه المدهش للمصدر الأندلسي المهم «الحلّة السّيراء» لابن الأبَّار في مجلدين).

وسيظل كثيرٌ من كتبه مرجعاً أصيلاً في بابه؛ مثل «فجر الأندلس»، و«تاريخ قريش»، وترجمته لكتاب المستعرب الإسباني الشهير بالنثيا «تاريخ الفكر الأندلسي»، وكتابه الشهير عن «الحضارة».. وغيرها الكثير.

- 5 -

أما أستاذنا العلامة الجليل الراحل محمود علي مكي، فكان حُجة في العربية والإسبانية على السواء، وكان مضرب الأمثال في كل ما تصدى له من درس وبحث؛ إجادةً ودقةً وعمقاً واستيفاءً وحسنَ عرضٍ.. في الأدب وتاريخه ونقده، والأدب المقارن، وتحقيق التراث ودرسه، والترجمة، التاريخ والحضارة، الدراسات الإسلامية، تراثاً ومعاصرة، شيء معجز ومذهل.

يا ربي على الجمال والرقي والعلم الوافر واحترام قيمة المعرفة، والعمل على نشرها.. رحم الله الكبار!

وأقول: لولا هذه الحلقة الرائعة التي فكَّر فيها من فكَّر، وأعدَّها وقدَّمها وحفظها لنا، وللأجيال، من حفظها، لكان فاتنا علم كثير وفوائد جمة، وتسجيل دقيق وتاريخ موثق لاسمين من أكابر الأسماء في حقلهما المعرفي والثقافي. (وللحديث بقية)

الفخار والنحاس..
فنون تمتع النظر في «اليونسكو»

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

عشرات الفنون والحرف اليدوية تلك التي أدرجتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) ضمن قوائمها التمثيلية، من بينها الفخار والنحاس، ولعل ذلك يعيدنا لأهمية تلك المنتجات التي تستمد قيمة كل قطعة منها بالجهد والدقة في صناعتها، فالمنتج اليدوي يظل متميزاً عن الصناعي بقيمته المعنوية والمادية.

اشتهرت فنون صناعة الفخار منذ القدم، حيث اعتمدها الإنسان لأغراض معيشته في مدن العالم، واستطاعت قرية زلاكوسا الصربية أن تدرج «صناعة الفخار ذي العجلة اليدوية» في عام 2020م في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، وصناعة الفخار في زلاكوسا تتعلق بالمعرفة والمهارات المستخدمة في صنع الأواني غير المزججة المقاومة للحرارة، وتتميز قرية زلاكوسا وضواحيها بتوافر المادة الخام من البيئة الطبيعية لصناعة الفخار. يستخدم فخار زلاكوسا في المنازل والمطاعم في جميع أنحاء صربيا، وهو مصنوع من الطين ومعدن الكالسيت عن طريق العجلة اليدوية، وهي الطريقة التقليدية لصناعة الفخار. تستغرق العملية من سبعة إلى عشرة أيام، وتتضمن تحضير عجينة الطين، والتشكيل، والزخرفة، والتشطيب، والتجفيف بالحرارة. وتزين الأواني الجاهزة بزخارف هندسية، وتضاف مقابض لبعض الأواني. في الوقت الحاضر، تم تعديل الأشكال التقليدية والأواني وأواني صنع الخبز ومقالي اللحوم والمقالي الصغيرة لفرن المطبخ مع الطريقة الحديثة لإعداد وتقديم الطعام. يتم نقل المعرفة والمهارات ذات الصلة بشكل أساسي من خلال المشاركة المباشرة والعمل جنباً إلى جنب مع الحرفيين ذوي الخبرة داخل المجتمع. وعن طريق التجمعات في مهرجان زلاكوسا والفصول الدراسية التي أقيمت في مدرسة الفنون في مدينة أويتسي يتسنى كذلك نقل المعرفة لهذه الصناعة. غالباً ما يتم تقديم فخار زلاكوسا في المعارض والمهرجانات في جميع أنحاء صربيا، وتُستخدم الأواني على نطاق واسع خلال المناسبات العائلية والمجتمعية المهمة. ويشار إلى أن بعض الأطباق المحضرة في فخار زلاكوسا على نار مفتوحة، لها مذاق فريد ومميز عن طهيها بالطرق العادية بالأواني غير الفخارية.

وفي عام 2023م، أدرجت فنون الخزف في أوزبكستان في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية، حيث يعد فن السيراميك أو الخزف أحد أقدم أشكال الفنون الحرفية في أوزبكستان، يمكن العثور على الطين الخام المناسب لصناعة الفخار في البيئة المحيطة، تصنع الأواني والأباريق وأدوات الطهي والأطباق الفخارية وغيرها، ثم تطلى بطبقة مزججة، ويتم الرسم عليها بألوان جذابة لأشكال نباتية وحيوانية وهندسية.

تقليدياً، كانت المعرفة المتعلقة بإبداع فن الخزف تنتقل بشكل غير رسمي داخل العائلات، من الأجداد للآباء والأحفاد، وأصبح عدد متزايد من الخزافين على استعداد لنقل هذه المعرفة إلى الشباب من المجتمع، وإلى بناتهم وأزواجهم، وبالتالي زيادة الإنتاج. يتم تدريب الخزافين الجدد أولاً عن طريق الملاحظة، ثم المشاركة في مراحل مختلفة من العملية، وأخيراً عن طريق العمل بمفردهم. وتنتقل هذه الممارسة أيضاً من خلال الدوائر الفنية المجتمعية والجامعات والكليات والمدارس الفنية، وكذلك في المهرجانات والمعارض

الحرفيـة. بالإضافـة إلى أهميتـه التاريخيـة والوظيفيـة وقيمتـه الفنيـة، يسـهم فـن الخـزف الأوزبـكي في إثـراء التنـوع الثقـافي والإبـداع الإنسـاني. يعـد إنتـاج وبيـع السيراميك أيضاً مصدراً للرزق، وجـزءاً أساسياً مـن الحياة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للمجتمعـات المعنيـة.

وتعد صناعـة النحـاس في قريـة لاحـج عـلى جبـال القوقـاز في أذربيجـان واحـدة مـن الصناعـات التقليديـة القديمـة التـي يشـتهر بهـا المكان، تـم إدراج الحرفـة في القائمـة التمثيليـة للـتراث الثقـافي غـير المـادي للبشريـة عـام 2015م، صناعـة النحـاس في لاحـج هـي الممارسـة التقليديـة لصنـع واسـتخدام الأواني النحاسـية المتمركـزة في مجتمـع لاحـج، يقـوم سـيد حرفـة صناعـة النحـاس بتنسـيق العمليـة برمتهـا، ويرافقـه متـدرب يتعلـم التقنيـات اللازمـة ويقـوم بالمسـاعدة.

يصهـر النحـاس في الأفـران ويطـرق في صفائـح رقيقـة، ثـم يقـوم الحـرفي بصقـل الألـواح النحاسـية المطروقـة وتزيـين الأواني النحاسـية الجاهـزة بالنقـوش. ويقـال إن هـذه المرحلـة الأخـيرة مـن العمليـة لهـا أهميـة خاصـة؛ لأن التصاميـم المسـتخدمة غالبـاً مـا تركـز عـلى البيئـة، مـا يعكـس المعرفـة التقليديـة والقيـم الثقافيـة لحاملهـا. السـيد هـو المسـؤول عـن بيـع الأدوات النحاسـية في

ورش العمـل ومكافـأة عمـل الحرفيـين الآخرين المشـاركين. ينتقـل التقليـد داخـل العائـلات مـن الأب إلى الابـن. تـأتي العديـد مـن العائـلات في أذربيجـان لـشراء الأواني النحاسـية في لاحـج واسـتخدامها في حياتهـم اليوميـة، معتقديـن أنهـا تحسـن الفوائـد الصحيـة للطعـام. بالنسـبة للحرفيـين، يمثـل التقليـد مصـدراً رئيسـاً للمعيشـة، ويوفـر إحساسـاً قويـاً بالهويـة والفخـر المجتمعـي.

وتعمـل صناعـة النحـاس أيضـاً عـلى تعزيـز العلاقـات الأسريـة داخـل مجتمـع لاحـج، ويُنظـر إليهـا عـلى أنهـا علامـة واضحـة عـلى هويـة المـكان.

مؤيد الشيباني: التوثيق فن قائم بذاته يشمل المثل الشعبي والقصيدة والرؤية والحدث والتواريخ

عبير يونس
كاتبة - سوريا

من الصعب الإلمام بما أنجزه الباحث والشاعر العراقي مؤيد الشيباني من توثيق، فقد أكد أنه «لم يمر يوم من الأيام لم يقم فيه بالتوثيق، وعلى مدار أربعين عاماً».

أصدر الشيباني عدداً كبيراً من الكتب التي وثق فيها حياة بعض الشخصيات، والمظاهر المحلية التي تميز بعض الممارسات في الإمارات، ووثق الجوانب الاجتماعية في مسألة التأسيس خلال خمسينيات القرن الماضي، من بينها «زايد الأول»، و«جابر جاسم.. رحلة الكلمة والنغم»، و«أسماء ونصوص ومدارات فنية حول الأغنية الإماراتية في أكثر من نصف قرن»، و«راشد الخَضر: قصيدة اللهجة.. ورموزها المكانية»، وغير ذلك كثير.

حول هذه التجربة تحدث الشيباني لـ«مراود»، وبيّن الأسباب التي تقف وراء بحثه المستمر لتوثيق كثير من تجارب وممارسات المجتمع الإماراتي.

* ما الأسباب التي دفعتك للتوثيق؟

* ضمن سياق حياتي الثقافية، واكتسابي المعرفي وتجاربي في المؤسسات الصحافية والإعلامية على مدار خمسة وأربعين عاماً، تعمقت في مسألة أهمية التوثيق، ووجدت أن هناك كثير من الساحات العربية، تفتقر إلى مسألة التوثيق، ولذلك هناك تهمة بأننا ننسى، والحقيقة أننا ننسى؛ لأننا لم نوثّق، والتوثيق يشمل التنظير، والتنظير مهم وأساسي، ويشمل تأمل الربط التاريخي بالحاضر، وبالتالي استشراف المستقبل. فالتوثيق فن قائم بذاته؛ لأنه يشتمل على المثل الشعبي والقصيدة والرؤية والحدث والتواريخ، وجامع كل هذا عندما كنت في المطبخ الصحافي في جريدة الوطن الكويتية في عام 1979 تشبعت ثقافتي بما يصب عندي من مقالات ودراسات وبحوث، كانت تنطوي على كثير من الرؤى لكتاب مهمين من العالم العربي في تلك الحقبة الحيوية، واستمر هذا في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، عندما تحولت إلى العمل في الإمارات، واشتغلت في الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزة، وكل هذه التجارب أكسبتني تأكيداً على أني ابن التوثيق، فأنا موثق.

* ما سبب إصدارك أكثر من كتاب عن الأغاني الإماراتية، من بينها «الأغنية الإماراتية.. نشأتها وتطورها»؟

** عشقت الأغنية واعتبرتها عنواناً للإبداع، قبل الفنون الأخرى وبما أنني في ساحة الإمارات التي أتبادل معها الحياة، حيث امتدت سنوات الإقامة فيها لأكثر من أربعين عاماً، عاصرت خلالها الأصوات واكتشفتهم، وبعضهم بدأ واعتزل وأنا موجود، فوثقت تجاربهم. ووجدت أن الكلام جميل جداً، ويحمل معاني مهمة، وهو مرتبط بالنغمة والإيقاع الخاص بالدولة وطبيعتها الصحراوية والبدوية والعربية والخليجية؛ أي بكل طبائعها، حتى في اكتسابها من الجوار والتأثيرات، وهذا طبيعي وموجود في كل مكان، إضافة إلى الطبيعة الحقيقية النابعة من أصل المكان، لقد كنت أول من جمع ووثق الأغنية الإماراتية، ووجدت فيها حكايات ونصوصاً.

* ما مصادرك؟

** شهادات مهمة جداً من أصحاب الأصوات أنفسهم بالنسبة للمعتزلين، أما المتوفين فقد تركوا الأبناء أو الزوجات أو الأخوة (مثال) مر في الثمانينيات صوت غنائي جميل جداً اسمه «فتى شمل» (شمل بلدة في رأس الخيمة)، وشاء القدر أن يتوفى في حادث سير في منتصف الثمانينيات، ولم أجد على مدى سنوات وأنا أبحث أي أثر يدل عليه غير التسجيلات الموجودة، إلى أن اكتشفت ابن عمه، والتقيته، وقدم لي من هو «فتى شمل»، واسمه الحقيقي، وابن من هو. وهكذا

من خمسين شاعرة غنى لهن المطربون على مدى نحو سبعين عاماً، ووجدت الخصوصية في مسألة اختيار الاسم المستعار لتقليد اجتماعي ثقافي له دلالة مكانية «فتاة العرب» و«فتاة المسعودي» و«فتاة بوظبي» وغيرهن.

* ما الثيمة التي تميز توثيقك الكتب التي تتناول فيها حياة الشعراء؟

** أول كتاب صدر بسبب علاقتي الوطيدة بالباحث والشاعر والأديب الراحل حمد خليفة بوشهاب، وهو معروف بالبحث وجمع التراث الشعبي، وكان من ضمن لجنة التاريخ والتراث. ولأني عاصرته وعشت معه أكثر من عشرين عاماً، تناولت تجربته المهمة، وانطلقت من قصيدة مهمة جداً اسمها «البشارة» التي كتبها عام 1967 بعد مرور سنة على تسلم المغفور له، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مقاليد الحكم في إمارة أبوظبي 1966، ومضمون القصيدة بأن هذا القائد هو الذي سيزف البشرى للزمن وللأجيال، وفعلاً صدق بوشهاب بقصيدته، فنحن منذ تلك الفترة ولغاية اليوم نتأكد من فحوى القصيدة ومضمونها الجميل.

وأنا أوثق الشعراء الذين وثقوا مثلاً أحمد بن علي الكندي الذي وثق رحلات القنص مع الشيخ زايد، رحمه الله، في الستينيات من القرن الماضي، حيث ركزت على قصيدته ووصفه الشيخ زايد وشرحه كيف كان في رحلة الصيد، لقد اتبعت هذا الخط، واشتغلت على توثيقه في قراءة درامية من يوم خط الكندي بعصاه الصغيرة وهو يرعى الإبل على الرمال أول بيت، وانتهاءً بعلاقته مع جابر جاسم، وتقديم أجمل النصوص الغنائية التي غناها الأخير بمنتصف الثمانينيات. وأجريت في كتاب «راشد الخضر: قصيدة اللهجة.. ورموزها المكانية»، إعادة قراءة لشعره، ودخلت في التفاصيل الخاصة بقصائده، وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب «بحر عوشة مغاصات المكان في شعر فتاة العرب الشاعرة عوشة بنت خليفة السويدي»، التي كتبت شعراً لا يمكن قراءته بتجرد، كونه مملوءاً بالمعاني العظيمة.

ودرست قصاصات عتيج بن روضة وحققتها وتعمقت فيها، وتناولت تجربة سعيد بن عتيج الهاملي (1875–1919) والدخول في تجربته حذر جداً، ومهم، فبدأت من بوابة القصيدة ماذا يقول وماذا يقصد تماماً؟ فكما قرأنا المتنبي في عَلَاقته هناك تاريخ داخل القصيدة، وهو ما اشتغلت عليه وكان منهجي.

الأمر بالنسبة للشعراء، فقد بحثت كثيراً عن شعراء كانت نصوصهم تُغنى، وبالتالي وجدت أن ممراً أخذني إلى ممر آخر، ومساحة إلى أخرى، ووجدت أن المصادر كاملة موجودة في النسيج الاجتماعي.

والتفصيل الآخر هو العمل الميداني في صحف «الخليج» و«البيان»، حيث بحثت عن المكان وأجوائه، وذهبت إلى فاطمة المغني في خورفكان في ثمانينيات القرن الماضي، وحاورتها حول المكان قبل أن تكون صوتاً توثيقياً جميلاً، وأيضاً هناك من توفاهم الله، وكنت قد حاورتهم من قبل.

* ماذا عن توثيقك الشعر، وإصدارك عدداً من الكتب عن رواد الشعر الإماراتي؟

** الشعر الشعبي الإماراتي يتميز بأهمية كبيرة جداً، وهي بنية القصيدة الإيقاعية العروضية المعنى واللهجة وقوة المفردة وجماليتها، سمات تتجلى بتجارب مهمة مثل سالم الجمري وعوشة بنت خليفة، وهذا ما قادني إلى أهمية الصوت الشعري النسائي في الإمارات، الذي له عمق هائل، بحيث وصلت إلى أكثر

* عملت أيضاً على المكان؟

* نعم جاء كتابي «عزف على خشب السدر» بمثابة القراءة الميدانية في دولة الإمارات، حيث ذهبت إلى خورفكان والذيد والبدية والظفرة والعين وغيرها، وبحثت في القلاع والشوارع الداخلية وبعض البساتين، واستعرضت أبعاد المكان بأماكن مثل المسعودي والقطارة، بأسلوب تلقائي فيه شيء من القراءة اللغوية الجميلة والوصف؛ لأجل استحضار تاريخ معين. وبعد ذلك صورت الكتاب نفسه لبرنامج «عزف على الذاكرة»، من إنتاج تلفزيون دبي، وضم ثلاثين حلقة.

* حدثنا عن تجربتك في التوثيق لمسيرة أشخاص كان لهم دور في التحولات الحادثة في الدولة؟

** وثقت لتجربة شخصيات اجتماعية ثقافية رائدة في مختلف المجالات، في ريادة العمل المصرفي صدر لي كتاب عن عبد الله صالح العميد المحافظ وعميد المصرفيين منذ 1954، وشخصيات مهمة أخرى، اشتغلت على بدايات المجلس الوطني الاتحادي، وغرف التجارة، وارتبطت هذه الجهات بالمؤسسات والمناخ الثقافي العام، إذ دعمت واشتغلت على فكرة نشوء المجتمع مثل سعيد بن جمعة النابوذة، إنها أجواء العبور الصعبة في تلك المرحلة الخمسينية؛ لأن الثقافة ليست وحيدة، فهي ابنة المكان وبداياته.

* ما طبيعة التحديات التي واجهتك في التوثيق؟

** التحديات الأساسية الوقت الكبير، وجدت نفسي

أمام طريقين فهذا الوقت إما أمنحه لشغلي ورزقي وعائلتي أو أتوقف، فعملت بما يدعم يومياتي.

أما قلة المعلومات، فاستطعت أن أسيطر عليها من باب عملية البحث الدقيق والمضني وعدم التوقف وعدم الخضوع واليأس، فلو كان أحدهم بعيداً أذهب إليه، وعندما لا يوجد أي مصدر أبحث في مسألة المقارنة، حيث اشتغلت على روح المقارنة، وعلى الزمن في قصيدة سعيد بن عتيج الهاملي التي يمتدح فيها الشيخ زايد بن خليفة، أبرز قادة آل نهيان في القرن التاسع عشر، فقرأت عن تلك الحقبة مثل كتاب «قصر الحصن»، وقرأت قصيدة الهاملي التي يمدح بها الشيخ زايد بن خليفة، وأجريت بحثاً دقيقاً.

إذاً مجمل التحديات إما بالوقت أو المصادر وفي الطباعة أو المؤسسة التي تستقبل الكتاب، فمن يطبع الكتاب عند التدقيق يطرح أسئلة مضنية وصعبة من أين هذا، ولماذا هذا، وأحاول أن أشرح هذا في التوثيق، فالكتاب عبارة عن ربط وتأمل وإعادة قراءة.

* ما جديدك؟

* أنجزت قراءة في تجربة الشاعر الراحل محمد بن سوقات، وهو أخو الشاعر حمد بن سوقات.

الأبوذية..
شعر شعبي يرتبط بتقاليد وتراث الشعر العربي: والعشق والشجن

ظافر جلود
كاتب وصحفي - العراق

جاءت كلمة الأبوذية، إما من كلمة (أبو أذية)، لما تجلبه من شجون، أو من العبودية، نسبة إلى الشاعر العراقي حسن العبادي، والأبوذية هي من بحر الوافر، ويعتمد الجناس الثلاثي والقفلة الواردة في شطره الرابع والأخير، تكون عادة مغايرة لشطوره الثلاثة، إذ إنها تنتهي بحرفي الباء والهاء.

• الأبوذية الجناس

كفاها منية النفس كفاها ..... يكفيها
يتـ وق الورد للعطر كفاها ..... كفمها
إذا ما أومئت يوماً كفاها ..... كفيها
لصار الصخر أزهاراً شذية.

• تاريخ الأبوذية

كثرت الآراء والاجتهادات حول نشأة الأبوذية وتاريخها، فهناك من يقول إنها من معطيات الأدب الشعبي المحلي العراقي، وهناك رأي آخر يقول إن كلمة أبوذية تأتي من كلمة أبو أذية، وذلك لما للأبوذية من شجن وحزن، ويقال إن كلمة أبوذية قد أتت من كلمة عبودية، نسبة إلى شخص اسمه حسين العبادي، من منطقة الجبايش في جنوب العراق، وقد صادف هذا الشاعر امرأة قروية تنعى (تبكي) فقيداً لها، فتأثر بها، وراح ينظم الأبوذية وبطريقة عفوية.

لكن اختلفت الآراء حول الأبوذية ومنشئها، ولكن اتفقت على أنها من الريف العراقي الصميم، وكانت تكتب باللغة الفصحى، لكنها تعتمد الطباق في أكثر الأحيان، وأما الجناس في الأبوذية، والذي جاء من باب الصنعة الشعرية فقد كان نادراً.

والأبوذية مرموقة في عالم الغناء، خاصة بعد أن تشعبت أطواره، وازدادت طرق أدائه، وأضيفت له العديد من الابتكارات والإضافات على يد المبدعين من الشعراء والمطربين، ومن أطواره ما ولد فطرياً، وبطرق المصادفة. والأبوذية هي من بحر الوافر، ويعتمد الجناس الثلاثي والقفلة الواردة في شطره الرابع والأخير تكون عادة مغايرة لشطوره الثلاثة، إذ إنها تنتهي بحرفي (الباء والهاء).

ثم إن أي حديث عن التراث العربي سوف يتسيّد فيه تراث اللغة بلا شك، اللغة العربية الفصحى أولاً، ثم العاميات العربية والفولكلور بشكل عام، ويشتمل على جانبين أساسيين هما:

أولاً: الفنون القولية وما يتعلق بها ويتبعها.

ثانياً: الفنون الشعبية المادية، أعني الأدوات والملابس والمساكن.. إلخ.

وما يخصنا الآن هو الجانب الأول.. الفنون القولية وتوابعها.. لا مفر لنا من الحديث عن اللغة، بما هي قوام الفنون القولية.. وبالنسبة للغة العربية، فنحن دائماً أمام مستويات ثلاثة لهذه اللغة، اصطنعتها أمتنا عبر عصورها وفي أقطارها المختلفة للتعبير عن ذاتها وصياغة ثقافتها، وهذه المستويات، هي:

-1 اللغة العربية الفصحى المعربة.

-2 اللغة العربية بين الفصحى والعامية (الملحونة أو العارية من الإعراب).

-3 العامية أو اللغة الدارجة في الاستعمالات اليومية.

أما عن الفصحى، وهي الأم فما عادت لغة يومية لأيّ من الشعوب العربية؛ لذا فإن تراثها من العصر الجاهلي وحتى الآن هو تراث عربي أصيل، لكنه يقع خارج دائرة الفولكلور، ليستقر ضمن التراث الرسمي، بحكم أنها لغة القراءة والكتابة، وليست لغة المشافهة، ولأنه أيضاً حتى في أيام الفصحى الذهبية؛ أي قبل الفتوح الإسلامية، فإن أدباءنا ومفكرينا ميزوا بين أدب الخاصة وأدب العامة.. مجالنا الآن إذن يهتم بالمستويين الثاني والثالث، فهما الوعاءان اللذان يحويان الفنون القولية الفولكلورية العربية.. وفيهما نجد أشعاراً ملحونة، كما نجد الزجل والمواليا والسير مثل عنترة بن شداد والزير سالم وسيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة والأميرة ذات الهمة وحمزة البهلوان والظاهر بيبرس وفيروز شاه وسيرة بني هلال وتغريبتهم.. إلى غير ذلك من السير والملاحم الشعبية، وقد أطلق الجامعيون في مصر على كل هذا الخليط اسم الأدب العاميّ، كما يتضمن المستوى الأخير بالتحديد (اللغة العامية الدارجة).

بما أنه هو الوعاء الأكبر فنوناً مثل الشعر الشعبي والأغاني الشعبية بجميع ألوانها، وبما يرافقها من ألحان وموسيقى وحكايات وأمثال ونكت وطرائف، وكل أشكال القولي الشفاهي، ومن عجب أن يظل هذا النوع حيّاً رغم تقلبات الأحوال والعصور، وذلك لأن دورانه على الألسن والشفاه، وليس على الورق يكون بمثابة دوران الدم في عروق الكائن الحي؛ لذا فهو يرفض أن يجمد، لكنه يتغير ويتنوع ويتطور باستمرار؛ لأن ما يشكله هو ذاكرات وأناس في مواقف معينة وفقاً لمواهبهم المبدعة وتلبيةً فوريةً لحاجاتهم.

ثمة نقطة مهمة أحب أن أؤكدها، وهي مرتبطة بعملية التنوير، حيث يأتي دور الأدب العامي أكثر أثراً من أدب الفصحى، وذلك لأن أدب الفصحى بماله من خصائص ومميزات يظل فوق مدارك العامة، ما يقلل أو يضعف تفاعلهم معه، ويضعف بالتالي تأثيره فيهم، بخلاف الأدب العامي الذي واسطته في مجتمعه عامة الشعب، فهو بحكم عفويته وبساطته ومجاراته أحداث الساعة، وانتقاله السريع مشافهة، يكون له النفوذ الطبيعي على جميع طبقات المجتمع.

وبالنظر إلى أن الشعر الشعبي أو العامي تحديداً سنجده يرتبط بتقاليد الشعر العربي الفصيح، وليس بتقاليده فحسب، وإنما أيضاً أغراضه، وهذا الارتباط أسس للتشابه والتجانس بين جملة ما أُنتج في أدبنا العربي من شعر على اختلاف البيئات والعصور، فهما في نظري مرتبطان دائماً ببعضهما بعضاً، ولا أتخوف من أحدهما على الآخر.. وقد أدركت المؤسسات الثقافية والأدبية في عصرنا الآنيّ ما للأدب العامي من أهمية وفعالية في توجهات الشعوب وقيادتها، فاعتنت به، ولعل خير شاهد على ذلك هو الاهتمام بطباعته وجمع تراثه وإعادة طباعة أمهاته ومصادره القديمة (مثل ألف ليلة وجلجامش.. إلخ).

ولعلنا نميل إلى أن البدايات كانت أبعد من ذلك بكثير، إذا ما ارتبطت العملية باللهجات، حيث كانت دائماً هناك لغة عربية لكل العرب، يكتبون بها القصائد والمعلقات، وتنشد في الأسواق الأدبية الكبرى، مثل سوق عكاظ، كما كانت هناك فنون قولية شعرية أخرى هي أكثر غنائية في الترنم بها مثل الحداء والأراجيز وأعتقد أنها كانت تختلف من لسان قبيلة إلى أخرى.

• الموشحات والأزجال:

استطاع الأندلس أن يحدث شيئاً جديداً في الشعر العربي يتجاوب إلى حد كبير مع البيئة الأندلسية بما فيها من ترف ولذة ونعيم، ألا وهو الموشحات والأزجال التي أحدثت موجة واسعة من الغناء والموسيقى فشاع الغناء وشاعت الموسيقى، وكثر المغنون والمغنيات، وظهرت الجوقات، واتصل كل ذلك بالشعب وأعياده ومواسمه، ومن هؤلاء المغنين والمغنيات زرياب الذي أضاف وتراً خامساً للعود، وفضل وقمر وسلّامة وغيرهم.

ازدهرت الموشحات وكان المطوّر لها مقدم بن معافي القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني الأموي (888-912) وأخذها عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه، صاحب كتاب (العقد الفريد)، ثم برع في هذا المجال بعدهما عبادة القزاز ثم كثر الوشاحون.

كتاب «عالم المعرفة» للدكتور محمد زكريا عناني

القنص والحداق والغوص والتجفير ..

مفردات تراثية ورد ذكرها في القرآن الكريم

أثناء تلاوة القرآن الكريم، وجدت أنه ورد فيه الحديث عن أربع مفردات تراثية محلية، هي: القنص والحداق الغوص والتجفير، وكان الباحثون عنها وفيها قد تناولوها في واقعها الميداني، وتاريخها من خلال لقاءات مع الآباء والأجداد الذين امتهنوها وعاشوها؛ لأنها كانت بحكم ظروفهم مفصلاً مهماً في مسيرتهم الحياتية... وعن هذه المفردات في القرآن الكريم نجد:

حمدي نصر
كاتب صحفي - مصر

أولاً- القنص

المعروف أن القنص هو صيد الطرائد من طيور الحبارى والكروان، والأرانب البرية والغزلان بالصقور وكلاب السلوقي المدربة التي احتاج تدريبها وقتاً وصبراً وجهداً. وقد ورد ذلك في القرآن الكريم بقول الله سبحانه وتعالى:

«يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (4: المائدة).

وفي تفسير هذه الآية أنقل لكم بتصرف ما أورده ابن كثير، حيث قال: أحل لكم ما صدتموه بالجوارح، وهي من: الكلاب، والفهود، والصقور، وأشباهها.

ومن قبيل التذكير نقول: إن الإمارات نجحت في عام 2009، بالتعاون مع 11 دولة على مستوى العالم، في إدراج ملف الصقارة في القائمة التمثيليّة للتراث الثقافي غير المادي لـ«اليونسكو» كتراث إنساني خالد متوارث من آلاف السنين.

ثانياً- الحداق

أما عن الحداق والغوص، وكيف ورد ذكرهما في القرآن الكريم، فنقول:

قال الله تعالى:

«وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (12 فاطر)

وأنقل لكم بتصرف أيضاً ما أورده القرطبي في تفسير هذه الآية بقوله:

وما يعتدل البحران فيستويان، أحدهما عذب فرات، والفرات: هو أعذب العذب، وهذا ملح أجاج، والأجاج: المر، وهو أشد المياه ملوحة.

ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر.

وقوله: ومن كل تأكلون لحماً طرياً وهو صيد السمك المتعارف عليه في التراث المحلي بـ«الحداق».

ثالثاً- الغوص

ويقول سبحانه: ومن كل البحار تأكلون لحماً طرياً، وذلك السمك من عذبهما الفرات، وملحهما الأجاج، وتستخرجون حلية تلبسونها، يعني: الدر والمرجان، وهو المتعارف عليه في التراث المحلي بأنه الغوص، وترى الفلك فيه مواخر، السفن مقبلة ومدبرة بريح واحدة، وهذا أيضاً هو السفر، ونقل البضائع بحراً.

وقوله لتبتغوا من فضله أي: لتطلبوا بركوبكم في هذه البحار في الفلك من معايشكم، ولتتصرفوا فيها في تجاراتكم، وتشكروا الله على تسخيره ذلك لكم، وما رزقكم منه من طيبات الرزق، وفاخر الحُلي، وفي السفر بحراً، يقول سبحانه وتعالى:

«وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ» (32: الشورى)، وفي ذلك قال ابن كثير: يقول الله تعالى ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه، تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجواري في البحر كالأعلام، كالجبال أي هذه في البحر كالجبال في البر. وورد أيضاً «وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ» (الرحمن: 24)، وقال ابن كثير إنه ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت.

رابعاً- عجائب التجفير في القرآن

التجفير ورد في القرآن على ثلاث صور، هي: براً وبحراً ونهراً.

ولنتفق أولاً على أن التجفير بمعناه هو تتبع الأثر الذي قد يكون أثراً مادياً أو معنوياً.

أقول ذلك لأن كلمة آثارهم تكررت في القرآن الكريم 8 مرات، 7 منها آثار معنوية ليس مجالها هنا في هذا البحث.. وهي كالعادات والسلوك والعبادات، أما الأثر المادي فورد في الآيات:

1. «فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا» (61 الكهف)

وهنا نورد ما قاله المفسرون في تفسير هذه الآية:

الذين اتفقوا على أن الحوت الذي كان سيدنا موسى وفتاه يحملانه معهما كطعام في رحلتهما بعد نسيانه أنه قد دبت فيه الحياة وقفز إلى البحر يشق طريقه فيه تاركاً أثراً له.

فقال ابن كثير: إن الحوت قفز إلى البحر ثم سلك فيه فجعل لا يسلك طريقاً إلا صار جامداً. وورد في تفسير الطبري أن الحوت اتخذ المسلك أي طريقاً وأورد عن بعض العلماء قولهم: إن هذا المسلك صار حجراً.

فهما لما بلغا مجمع البحرين نسيا الحوت الذي كانا يأكلان منه.

«فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا» (الكهف: 62)

فلما شعر سيدنا موسى بالجوع لطول المسافة وإرهاقها لهما طلب الغداء من فتاه الذي كان يرافقه فرد عليه قائلاً:

«قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا» (الكهف: 63)

2. «قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا» (الكهف: 64)

فلما اكتشف فتاه أنه نسي الحوت عرض عليه الرجوع إلى المكان الذي كانا فيه لاستعادة الحوت، وهنا كان التجفير براً، لأنهما تتبعا أثرهما حتى وصلا إلى المكان الذي كانا فيه ليجدا الحوت الذي أكلا جانباً منه قد دبت فيه الحياة مرة أخرى بقدرة وقدر الله، وقفز على الماء وأخذ يجري فيه تاركاً أثراً واضحاً وهو الذي ذكرناه في تفسير الآية 61 من سورة الكهف.

3. أما التجفير الثالث الذي كان في النهر فأيضاً مع سيدنا موسى عليه وعلى سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام.

وقد ورد ذلك في:

«وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (القصص: 11)

- أوحى الله سبحانه وتعالى لأم موسى أنها إذا خافت عليه فلتلقيه في اليم!

- وكان ذلك عجيباً أيضاً، ولأنها أم أمرت أخته بتتبعه وهو في تابوت يعوم على سطح النهر، وكان ذلك التجفير أو التتبع في النهر، وظلت تتابعه حتى وصل إلى مكمن الخطر الذي كانت بسببه هذه المخاطرة، وكان لهذا التتبع وبفضل الله أن عرضت على أهل فرعون مرضعة للطفل بعد أن حرم الله عليه المراضع؛ ليكون قدر الله بعودته إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن.

وفي النهاية أقول: إن هذا يؤكد مدى عمق تراثنا في صوره الأربع، وأصالته، وتنوعه وشرعيته.

حمد بن خليفة بوشهاب

(شاعر الإمارات الموسوعي)

ضياء حامد
كاتب ـ مصر

ما بين البدايات والرحيل، سجل تاريخ حافل بالإنجازات والنجاحات، ليس بما يتصل بذاته فحسب، وإنما بما يتعلق كذلك بالوطن، إنه الشاعر الإماراتي حمد بن خليفة بوشهاب.

لم يكن الشاعر حمد بن خليفة بوشهاب شاعراً عابراً ولا مثقفاً عادياً، إنما هو مبدع كبير، لم يكن ليكتب ليعبر عن هواجسه وآماله فحسب، وإنما كان نموذجاً للمثقف العضوي الذي يحمل همّ مجتمعه ووطنه، ويبذل من أجلهما كل نفيس وغالٍ، فقد أسهم في التوثيق والدفاع عن التراث الأصيل، كما نظم من القصائد ما يذكر بعهد الشعر العربي في العصور العباسية والأموية، ولذلك فإن ذكر اسمه يجعلك تستشعر وتتذكر آثاره البديعة، وبصماته الباقية كالوشم في الصحافة الثقافية التي صارت شحذاً لهمم المبدعين الذين استفادوا من تجربته وتميزه.

نشأته

ولد حمد بن خليفة بوشهاب في مدينة عجمان سنة 1933، تعلم الشعر في الكتاتيب ثم التحق بالمدرسة المحمدية، تتلمذ على يد العديد من المدرّسين مثل: عبدالعزيز وعبدالرحمن الصفار وإبراهيم بن الشيخ نصار، والشيخ حمد بن خالد، الذي استفاد منه حمد بن خليفة كثيراً، نظراً لتمكنه من اللغة العربية والنحو، إضافة إلى كونه شاعراً.

جالس حمد بن خليفة الشعراء مبكراً، ومنهم: راشد سالم الخضر، وحمد بن سليمان، وعبدالله الشيبة، إذ أخذ يحفظ ما يقولون ويكتبه، ليبدأ بنفسه بالكتابة وهو ابن التاسعة، أحب الشعر مبكراً، فحفظه وأتقنه وقرأه في المجالس، وتغنّى به، ثم بعد ذلك بدأ يكتبه، ولتمكّنه من علوم اللغة ظل محافظاً على القصيدة العمودية، سواء في شعره النبطي أو الفصيح.

ونظراً لظروف الحياة التي عاشها الشاعر، والعصر الذي يستلزم السعي وراء لقمة العيش، لم يستطع إكمال دراسته، ما دفعه إلى الاعتماد على نفسه في تعلمها والتثقف بها، فعمد إلى دراسة كتب التراث، واستوعب ما بها، وكان القرآن الكريم خير معين له، يفهم لفظه، ويتدبر معانيه، ويتعرف أسرار لغته.

ارتحل حمد بن خليفة وتغرب كثيراً، فقد تنقل بين جزيرة سقطرة في بحر العرب والكويت والسعودية والبحرين، سعياً وراء العيش، وتعلّم في غربته مهنة «الطواشة»، وهي فنون بيع اللؤلؤ وشرائه، كما عمل في غربته كاتباً للعرائض في السوق الكويتي.

محطات مهمة في حياته العملية

يعد الشاعر حمد بن خليفة أول من قدم برامج الشعر الشعبي في التلفزيون، وكان ذلك عبر تلفزيون الكويت من دبي عام 1971، كما عمل مديراً لمكتب وزارة الإعلام في الشارقة، في الفترة من 1972 إلى 1976، كما عمل وزيراً مفوضاً بوزارة الخارجية، وكان عضو لجنة التراث والتاريخ.

ويعد حمد بن خليفة أول من نشر الشعر الشعبي في الصحافة اليومية، حيث كان مشرفاً على صفحة الشعر الشعبي في صحيفة «البيان» التي أسسها عام 1981، ليكون بذلك أول من نشر الشعر الشعبي في الصحافة اليومية، وقد كانت هذه الصفحات نافذة مهمة يطل من خلالها الشعراء على تراثهم وجديدهم، وهي نافذة اللهجة الأم، كما ارتبط حمد بن خليفة بالقصيدة النبطية، وهي القصيدة المحلية الشائعة في الإمارات ومنطقة الخليج، والتي تعتبر نافذة تطل على اللهجة الأم وتجمع العلاقات الاجتماعية والثقافية، كما يعد حمد بن خليفة أول شاعر إماراتي تغنى قصائده في مصر، إذ تم تلحين وغناء قصيدته «عيد الفرج» على مسرح البالون في القاهرة في منتصف السبعينيات.

مشروعه الفكري والأدبي

أثرى الشاعر حمد بن خليفة المكتبة الإماراتية والمكتبة العربية بالعديد من المؤلفات والدواوين، كما عمد إلى توثيق الشعر الشعبي لدولة الإمارات العربية المتحدة، كما حرص على توثيق تاريخ الدولة والأنساب في المنطقة، وقد بذل جهوداً كبيرة في عملية الجمع والتوثيق في مجال القصيدة النبطية على مدى أكثر من مئتي عام، وأعاد إلى الذاكرة أسماء منسية في مطبوعات عديدة، منها وأهمها «ديوان تراثنا من الشعر الشعبي»، الذي صدر في جزأين، الأول عام 1980، والجزء الثاني عام 1981، والذي يعد درة الكتب التي أصدرها، حيث كان حصيلة جهد بذله على مدار أربعة عقود من الزمان، جمع خلالها قصائد شعراء متوفين منذ مئات الأعوام، ومن أجل تحقيق هذا الإنجاز طاف البلاد؛ ليكون دقيقاً في الجمع والتدقيق والتحرير، وذلك إيماناً منه بأهمية حفظ التراث، وقد أشاد كثير من شعراء الإمارات بهذا العمل العظيم، وأقروا أنه لولا اهتمامه وحرصه لضاع كثير من التراث، وله إضافة إلى ذلك، العديد من الدواوين الشعرية والمؤلفات، منها:

- ديوان سلطان بن علي العويس عام 1978.
- ديوان ربيع بن ياقوت عام 1983.
- ديوان شاعرات من الإمارات عام 1984.
- كتاب الماجدي بن ظاهر - حياته وآثاره، عام 1984.
- ديوان سلطان بن علي العويس 1985.
- ديوان حمد بن عبدالله العويس عام 1986.
- ديوان محمد بن علي الكوس - الجزء الثاني، عام 1987.
- ديوان ربيع بن ياقوت - المجموعة الكاملة عام 1988.
- ديوان أريج السمر - قصائد متبادلة - عام 1989.
- ديوان الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم عام 1989.
- ديوان فتاة العرب عام 1991.
- ديوان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان عام 1991.
- ديوان قصائد مهداة إلى رئيس الدولة عام 1995.
- وقفات مع تاريخ دولة الإمارات عام 1997.

وغيرها من المؤلفات والدواوين.

وفاته

توفي الشاعر حمد بن خليفة في التاسع من أغسطس عام 2002، وذلك إثر نوبة قلبية، وكان يوم وفاته يوماً ثقيلاً على الساحة الأدبية ومحبيه في الإمارات والوطن العربي، ومنذ ذلك اليوم ومرارة الفقد مازالت تتردد في أفئدة من عرفوه ونهلوا من ثقافته، والذين أجمعوا أن الراحل ترك فراغاً أدبياً وثقافياً لم ولن يستطيع أحد أن يسده، فقد كان قامة أدبية قدمت خدمة جليلة للساحة الثقافية الإماراتية، من خلال تدوين التراث الشعبي المحلي، حيث أدرك منذ صغره أهمية أن يوثق هذا الموروث الشفاهي، كما حرص على أن يمد ساحة الشعر الشعبي بأسماء شعرية ترقى بالساحة، فالشعر، كما يؤكد المقربون منه، كان بالنسبة له مسؤولية فكر إبداعي، وليس مجرد كلمات تقال في المناسبات.

إصدارات معهد الشارقة لتراث..

ما بين التراث المحلي والعالمي

سارة إبراهيم
كاتبة - مراود

يعدّ كتاب «عناصر التراث الإماراتي على قوائم اليونسكو» من إعداد إدارة المحتوى والنشر، من الكتب التي تعد إضافة للمكتبة الإماراتية، كونه يجمع 15 من عناصر التراث الثقافي الإنساني التي أضيفت في السنوات 2010-2023م، وتعد جزءاً مهماً من هوية المجتمعات الإنسانية، وإدراجها في «اليونسكو» يعد إنجازاً مهماً، كما هو توثيق وحفظ للتراث غير المادي. يجمع عناصر ورموزاً وعادات وتقاليد وفنوناً شعبية توارثتها الأجيال. وقد امتهن البدو «الصقارة»، باعتبارها وسيلة من وسائل الصيد في ظل البيئة الصحراوية، ومن الفنون التي أدرجت «العيالة»، وتعرف بأنها صنف من صنوف الفنون الشعبية التي يمارسها الرجال بمشاركة بعض الفتيات، يطلق عليهن «النعاشات»، كما أدرجت فنون «الرزفة» و«التغرودة» و«العازي»، وارتبطت «القهوة العربية» بالكرم وحسن الضيافة واحترام الآخرين، كما يعد «المجلس» المنتدى الذي يجمع أفراد المجتمع لمناقشة القضايا المتنوعة، ومن المهن اشتهرت مهنة «السدو» بين نساء البادية، فكانت تتم من خلال نسيج وبر الإبل وشعر الماعز وصوف الأغنام، كما تميزت المرأة بغزل «التلي»، وتعد «الأفلاج» نظام ري تقليدي عرف في المناطق الزراعية، وتتمتع «النخلة» بكونها رمز العطاء ومحور الحياة في حقبة مضت، فمنها الصناعة والمأكل، و«سباقات الهجن» من الموروثات الثقافية التي لها قاعدة جماهيرية واسعة، وتستخدم التقنيات التقليدية في «الخط العربي» كالقصب وسيقان البامبو كأداة للكتابة، وتعرف «الحداء» بأنها تعبير شفهي متعدد الأصوات، وتعد وجبة «الهريس» من الوجبات ذات الحضور في المناسبات الخاصة والعامة، ويطهى من القمح واللحم أو الدجاج.

وفي أحد عشر فصلاً ثرياً يناقش كتاب «المرأة في بادية المنطقة الوسطى من إمارة الشارقة»، من تأليف خليفة سيف حامد الطنيجي، البداوة ومجتمعها، ومجتمع المرأة في البادية، المرأة من البادية إلى كتابات الرحالة، وحالها بين القصص والعبر والأشعار والأمثال، مهن المرأة في البادية والزواج وزينتها، كما يأتي على نساء سميت باسمهن مناطق في الوسطى، ومؤسسات تعنى بالمرأة هناك. وقد ضربت المرأة في البادية أروع صور العطاء في بيتها وبمساعدة زوجها، فنسجت السدو، وهو من أبرز حرف البادية، وصنعت مفارش الخيمة، وبيت الشعر للسكن، وغزلت الصوف، وأعدت بيدها قوت يومهم من منتجات الألبان والزرع والخبز، كما أنها رعت الماشية، ووفرت الماء، وأوقدت النار، فكانت تجمع الحطب، ولا ينتهي عملها في هذا النطاق، فهي كأي امرأة تربي وتعد الرجال. وقد اتسمت المرأة البدوية بسمات عدة اكتسبتها من صعوبة البيئة التي تعيش فيها، فهنالك الغزو والترحال وقلة الموارد، فهي صبورة، عاطفية، مضحية، حكيمة، ذكية، وحظيت البدوية بدور اقتصادي في ظل مجتمع ما قبل النفط، من خلال تحملها كثير من الأعباء كغيرها من نساء البيئات الأخرى في الإمارات.

وفي كتاب «أعلام الشعر الشعبي في الشارقة» الذي يحتفي بثلاثة عشر شاعراً تركوا بصمات حية تشهد على تاريخ وثقافة حقبهم الزمنية، وقدموا إسهامات خالدة في مجالات الحياة، يستعرض الكاتب الدكتور مني بونعامة سيرة الشعراء؛ الشيخ صقر بن خالد القاسمي، الشيخ سلطان بن صقر، أحمد بوسنيدة، عبدالعزيز بن دخين، محمد الخيال، محمد الكوس، راشد بن طناف، حمد العويس، سالم العويس، سعيد الصواية، علي بن رحمة الشامسي، عبدالله بن ذيبان، راشد شرار. وبحسب الكاتب، تكمن أهمية الاحتفاء بأولئك النخبة الأعلام والفطاحل الأفهام في المعارف التي سطّروها والآثار التي تركوها، وما تزخر به من قيمة علمية ومعارف تراثية تجعل أصحابها روّاد عصرهم، وجهابذة مِصْرِهم ممن انتهت إليهم القيادة والرّيادة، لذلك فمن الأهمية بمكان توثيق سيرتهم الأولى، وإسهاماتهم الكبرى حتى تسهم في التأريخ للحياة الثقافية في دولة الإمارات العربية المتحدة بشكل عام، وإمارة الشارقة بشكل خاص، فهو أدعى للاقتداء بهم، وحذو حذوهم.

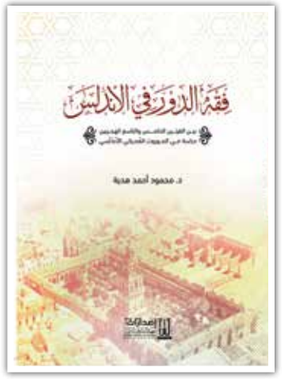

ويعرج كتاب «فقه الدور في الأندلس» بين القرنين الخامس والتاسع الهجريين (دراسة في الموروث العمراني الأندلسي)، على بناء الدور في الأندلس، ووصفها وكرائها وأحكام الدور، وهنا يسعى كاتبه الدكتور محمود أحمد الهدية لإبراز قيمة وأهمية الدار الأندلسية من الناحيتين العمرانية والاجتماعية، ويشير الكاتب إلى أن نظم البناء والتصاميم تلاءمت مع طبيعة المجتمع الذي سعى لاستغلال المواد الخام في البيئة المحلية وتوظيفها فبرز الإبداع المعماري المدمج بالخصوصية والاستقلالية، فقد كانت وليدة تمازج مجموعة من الثقافات، وأدى العرب المسلمون دوراً في تطوير العمارة الأندلسية، وكذلك منحوا الفرص للبنائين والمعماريين من غير العرب ليبدعوا فيها. وهنا يبرز الكاتب معمار الدور وليس القصور. واعتبرت قرطبة من المدن التي اكتظت بالدور، خاصة في عهد عبدالرحمن الناصر (912-961م)، فعجت بالمساجد والحمامات والأسواق، وتميزت مدينة الزهراء ببساتينها، واتصلت رياضها برياض قرطبة، واشتهرت إشبيلية بمائها الجاري والأشجار وإتقان زينتها، وكانت شوارع وأسواق مدينة شلب مفروشة بالرخام، وتعتبر طليطلة ذات المباني الفريدة واسعة الربوع، وغيرها من المدن، وخططت الدور الأندلسية حول المساجد، باعتبارها أساس التنظيم العمراني للمدينة. واستخدمت مواد البناء والزخرفة من الخشب والطوب والحجر والقرميد والآجر والرخام، كما استخدم الزليج؛ أي الصخور الملساء في تزيين الدور الأندلسية في الجدران، واعتبرت القراميد؛ أي الألواح الفخارية من المكونات الأساسية لمعظم الدور، وكانت الخصوصية لها دور مهم في البناء، وفقاً للقاعدة الفقهية «لا ضرر ولا ضرار» حتى إنه منع المؤذن من صعود المئذنة التي ترتفع على الدور المجاورة.

(1) الحمير
في الأمثال العدنية

د. شهاب غانم
كاتب - الإمارات

للأمثال الشعبية أهمية كبيرة في الماضي، وقد بدأت تقلّ هذه الأهمية في القرن العشرين وما بعده مع انتشار التعليم، خصوصاً في الغرب، وتوجد أمثال كثيرة، ولها ما يعبر عن عكس معناها في أمثال أخرى، فعلى سبيل المثال هناك تناقض بين المثلين الإنجليزيين الآتيين:

Too many cooks spoil the broth

الذي نعبر عنه بالمثل الشعبي العربي: إذا كثر الطباخين حرق اللحم.

والمثل الإنجليزي القائل:

Many hands make light work

أي الأيدي الكثيرة تجعل العمل أخف أو أسهل، ولذلك يجد الشخص المتعلم في المجتمعات الحديثة أن الأمثال ليست حجة كما هي مثلاً في الآيات والأحاديث الشريفة.

ثم إن كثيراً من الأمثال في شتى المجتمعات البشرية شرقاً وغرباً نشأت في غالبها في الماضي في بيئات ريفية، ولذلك كثيراً ما نجد استخدام الحيوانات الأليفة التي كان استخدامها في المجتمعات الزراعية والرعوية منتشراً في تلك الأمثال.

وفي هذه المقالة سنضرب مثلاً على ذلك بالأمثلة التي تستخدم الحمار والحمير في أمثال عدن التي كانت قد بدأت تتمدن قليلاً في القرن العشرين نسبة لبقية مناطق اليمن، ولكن الأمثال من المناطق اليمنية الأخرى، خصوصاً من الشمال، كانت تظهر في لغتها العامية، وإن اختلفت اللهجة، بل أحياناً استخدام الكلمات أحياناً.

وسنشير أيضاً إلى بعض الأمثال الشعبية المشابهة من أقطار عربية أخرى، وبعض الأمثال الإنجليزية، وسنشكل كلمات الأمثال كما ينطقها أهل عدن.

1. لما أنا أميرْ وأنتَ أميرْ مِنْ بيسوقْ الحميرْ؟

وهو واضح المعنى ومثله موجود في مصر وغيرها.

2. سمحنا لَهْ يدخلْ، دخلْ بحمارُهْ.

وهو بمعنى المثل العدني الآخر: «سمحنا لهْ يِتْخاوصْ دخلْ يرقصْ». ويتخاوص تعني ينظر من خلال ثقب.

3. جازاها كما جازى الحمارْ أمُّهْ.

أي أسوأ جزاء، فالحمار بهيمة لا يميِّز، فقد يتصل بأمه جنسياً.

4. حماري الأعرجْ ولا سؤالْ اللئيمْ.

ومثله: حمارْتي العرجا ولا ذلْ السؤال.

والمعنى يختلف قليلاً في المثل: حماري الأعرجْ ولا جَمَلَهْ الميّتْ.

5. اربُط الحمارْ جنب الفرسْ إن تعلمْ أو درسْ.

ومعناه من هو كالحمار فلن يستفيد من مرافقة الأذكياء.

6. يزبطْ وينطحْ كما الحمارْ الصُّبياني.

والحمار الصبياني نوع من الحمير في اليمن معروف برعونته، ويزبط معناه يركل.

7. الذي ما يعرفْ الهوى هو والحمارْ سوى.

وهناك مثل بمعنى معاكس يقول: العاشقْ حمارْ.

8. كلْ واحدْ يشوفْ حمارُه فرَسْ.

وهو شبيه بالمثل الشعبي: القرد بعين أمه غزال.

9. اصبر يا حمار لما يجيك الصراب.

وهو بمعنى المثل اليمني: مع شخضر الزرع قد الحمار مات، أي عندما يخضرُّ الزرع سيكون الحمار قد نفق. وهناك أمثلة شعبية عربية مشابهة منها: عيش يا كديش لمّا ينبت الحشيش، ومنها: انطر يا حمار لمّا يجيك الرّبيع. والمثل الإنجليزي المقارن يقول:

While the grass grows, the steed starves

ومعناه: بينما ينمو الحشيش يجوعُ الجواد

10. انخشْ الخُرْجْ يزهَدْ الحمارْ.

وانخش بمعنى انكش ويزهد باللهجة اليمنية الشمالية بمعنى ينتبه. ومثله المثل اليمني اضرب الوطاف يزهد الحمار. والوطاف بمعنى الخرج. ويقول المثل العربي الشّعبيّ: اللي ما يقْدِرشْ على الحمار يقدرْ على البردعة.

11. كلْ مِنْ حيرُهْ قَدَرْ وأنا على حمارْ خالتي.

يعني كلّ من لديه قوة استأسد وأنا لا أستطيع أن أستقوي إلا على حمار خالتي، ويقال لمن يستقوي على الضعفاء.

12. لبنْ الحمارْ يِكفي ابنه.

يقوله من ليس لديه فائض يعطيه.

13. ما دخَّل الحمارْ بين الخيول.

ومثله المثل العدني: يا بُرمةْ أيش دخَّلكْ بين الدُسوتْ. والبرمة طنجرة للطبخ من الفخار والدست طنجرة معدنية. والمثل العربي يقول: الحمار حمار ولو بين الخيول رُبيّ

14. ما يجي الغنجْ إلا من الحميرْ العُرج.

قد يقال عن من يتدلل عليك، وهو مساعد أو موظف قليل الكفاءة.

15. إذا شبع الحمار نهق.

ويذكرنا بقوله تعالى: إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى. (العلق: 6 و7)

16. التكرار يُعلّم الحمار.

وهو مثل شعبي عام.

17. إذا قلبكْ سالي فجحرْ الحمارْ مفرجْ.

يعني إذا كان الإنسان سالياً وخالي البال فيمكن أن يسعده أي شيء حتى النظر إلى مؤخرة الحمار.

18. اربط الحمار حيث يقول لك صاحبه.

وهو مثل عربي شعبي عام.

19. دواءْ الحمارْ من كرُّه.

والكرّ هو ما يتغوطه بعض الحيوانات، ويمكن أن يعني أن معالجة المشكلات التي تأتي من شخص تكون من خلال التعامل مع أفعاله السيئة.

20. لو يدري الحمار أيش فوقه لنهق.

ويذكرنا هذا بقوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً (الجمعة: 5). ويذكرنا ببيت الشعر لعبد الغني النابلسي:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وهناك أمثال أخرى تتعلق بالحمير، ولكن نكتفي بهذه النماذج.

القهوة العربية.. رمز الكرم والأصالة

سعاد الكلباني
كاتبة - مراود

هناك شيء سحري في الطريقة التي يمكن بها للقهوة أن تضفي البهجة على مزاجنا الصباحي، وتمنحنا ذلك الشغف وتلك الحماسة للاستمتاع باليوم. تعد القهوة رمزاً للكرم والضيافة عند العرب، ولا يكاد يخلو بيت عربي منها مهما كانت درجة فقر صاحب البيت، وقد اقترنت منذ زمن بعيد بالعرب في حلهم وترحالهم، وهي أشهر مشروب في العالم على الإطلاق، وقد فاقت شهرتها شهرة الشاي، وربما يعود ذلك لطعمها اللذيذ، وإمكانية التنويع في طريقة عملها.

تعددت أنواع القهوة حول العالم لتصل إلى ما يزيد على 30 نوعاً، والتي ترضي أذواق عشاق القهوة جميعاً، على الرغم من أن أغلبها محضّر من الحبوب ذاتها التي تنحصر بين نوعين أو أربعة على الأكثر، وهي: بن أربيكا، روبوستا، ليبريكا، وإكسيلسا، إلا أن الاختلاف الحقيقي يعود إلى طرق تحضير كل نوع.

ولعمل القهوة طريقة خاصة في الإعداد، حيث تمر بخطوات متعددة تنفذ بكل عناية، حيث تعكس مدى قدرة من يقوم بإعدادها وإلمامه بتلك الأمور قبل تقديمها للضيف، وهي مهنة متوارثة عبر الأجيال في حياة كثيرين، ولأهميتها أنشد الشعراء القصائد متغنين بها:

سولي الكيف وأرهولي من الدله
البن الاشقر يداوي الراس فنجاله
كيف لنا نحرقه بالنار ونزله
وليا انقطع لو ورا صنعاء عنينا له
يا ما حلا الفنجال مع سيحة البال
في مجلس ما فيه نفس ثقيله
هذا ولد عم وهذا ولد خال
وهذا رفيق ما لقينا مثيله

نشأة القهوة:

أول من تعرف إلى شراب القهوة هو الفقيه الصوفي أبو الحسن علي بن عمر الشاذلي، المتوفى سنة 1418م، حيث قام برحلة إلى الحبشة، ووجد الأحباش يصنعون من ثمار البن شراباً أسود، يحتسونه صباحاً ومساءً، وعندما سأل عنه، قيل له إن هذا الشراب يمنح الجسم نشاطاً وحيوية، ومن هنا اتخذ الشاذلي مغلي حبوب البن شراباً له، كما كان يصنعه الأحباش، حيث ارتاحت له نفسه، وأرشد أتباعه إليه، وأتى به من الحبشة إلى اليمن عن طريق صلاته ورحلاته إلى إثيوبيا. ثم تعرف العالم جمال الدين بن عبدالله الذبحاني اليمني، إلى القهوة، وتنقل من اليمن إلى مكة نحو عام 1450م، حاملاً معه ثمار البن لاستعماله الشخصي. وقد ارتبط اسمه بتاريخ انتقال القهوة من عدن إلى مكة المكرمة، ثم قام العالم الصوفي أبوبكر بن عبدالله العيدروسي، بتجريب أكل من شجرة البن، فأعجبته، فاتخذ من مغلي تلك الثمار بعد تحميصها وسحقها شراباً له.

وهكذا انتشرت القهوة من اليمن إلى سائر بقاع الدنيا.

طريقة تقديم القهوة:

للقهوة طريقة في التقديم، إذ يجب على المضيف أن يسكب القهوة للضيوف وهو واقف، ويمسك الدلة بيده اليسرى، ويقدم الفنجان باليد اليمنى، ولا يجلس حتى ينتهي جميع الجالسين من شرب القهوة. ويجب أن يبدأ من اليمين (عملاً بالسنّة الشريفة)، أو يبدأ بالضيف مباشرة، إذا كان من كبار السن. والمتعارف عليه تكرار صب القهوة حتى يقول الضيف (كفى)، أو يهز فنجان القهوة واضعاً إصبع السبابة على وجه الفنجان. ويشترط في بعض المناطق أن يملأ الفنجان إلى النصف، ثم يقدم إلى الضيف، ويعتبر من الإهانة أن يقدم الفنجان وهو ممتلئ بالكامل، على عكس بعض المناطق إذ لابد من ملء الفنجان بالكامل، حتى لا يشعر الضيف بالإهانة.

أقوال العرب عن القهوة العربية:

كان العرب يقولون عن فناجين القهوة ولذة احتسائها: «الأول لراسي والثاني لبأسي والثالث لعماسي»، وهو ما يعني أن الأول ينشط العقل والذهن، والثاني يزيده بأساً وشجاعة، أما الثالث فهو لإزالة الصداع، فالعماس يعني الصداع، وبذلك يقوم الفنجان الثالث بتصفية الذهن وإزالة الصداع من الرأس.

وعندما يقول الضيف: «قهوتكم مشروبة»، فذلك يعني شكر مهذب للمضيف، أما في حال قوله: «قهوتكم مشروبة وقهوتكم مقلوبة»، فذلك يعني شكر أيضاً، ولكن في إطار معاتبة غير لائقة.

أهمية القهوة العربية:

خلال اجتماع «اليونسكو» العاشر، الذي أقيم بالعاصمة الناميبية ويندهوك، في الفترة من 29 نوفمبر إلى 4 ديسمبر 2015، بحضور ممثلين عن 175 دولة، أقرت اللجنة الحكومية لصون التراث الثقافي غير المادي في «اليونسكو» تسجيل القهوة، وأفرد لها موقع المنظمة صفحة، تحدث فيها عن مزاياها.

الفلسفة الجُحويّة..
في التراث الإنساني

د. حنان الشرنوبي
ناقدة - مصر

إذا أردت أن تتعرف إلى تراث البسطاء، فعليك الاطلاع على موروثه الثقافي الذي يقوم في الأساس على الرواية الشفهية.

ومن أبرز الحكايات في تراثنا، والتي أصبحت بعد ذلك مضرباً للأمثال.. حكايات جحا ونوادره الفلسفية.

بين الحقيقة والخيال

تلك الشخصية التي تاهت الأقاويل حولها عبر التاريخ، أهو حقيقة أم خيال، ولعلنا عبر هذه السطور نحاول حسم الجدل.

هو أبو الغصن دجين بن ثابت الملقب (جحا)، ذلك الرجل المثقف من قبيلة فزارة أيام هارون الرشيد.

وصلتنا نوادره وأغلب المصادر عنه، من الآداب العربية الغنية بالفكاهات والطرائف الساخرة، وانتشرت هذه النوادر عبر التراجم التركية؛ ومنها إلى لغات كثيرة منتشرة في العالم، فضُرب به المثل في الحماقة فقيل «أحمق من جحا».

وأغلب الظن أنه أراد ادعاء الحمق ليكشف عيوب المجتمع ومثالبه، وربما رماه المجتمع بهذه الصفة؛ لأنه صادق مع ذاته ومجتمعه، فيذكر الحقيقة ولا يفعل ذلك - في نظرهم - إلا أحمق.

والدليل على ذلك موقفه من السلطان الذي طلبه للاستماع لغنائه، وحين أخذ رأيه في صوته قال إنه سيئ جداً.. فسجنه السلطان، وبعد مدة أخرجه ليغني له ثانية، ويطلب رأيه.. فقام جحا من مكانه طلباً للسجن، مما يدل على صراحته التي وسمها الناس حماقة.

حجا مضرب الأمثال الشعبية

ومن الأمثال التي يتداولها كثيرون:

- ودنك منين يا جحا؟ (أين أذنك يا جحا)؟

عندما سُئِل جحا عن أذنه، فأشار بيده اليمنى من فوق رأسه إلى أذنه اليسرى البعيدة، متخطياً أذنه اليمنى القريبة، وعلى الرغم من أن أذنه اليمنى كانت أقرب إليه من اليسرى، لكنه أراد اختيار الطريق الصعب لسوء تقدير منه؛ فأصبح يقال هذا المثل حين يقوم الشخص باللف والدوران عن عمد، ويختار الطريق الأصعب، بقصد المراوغة وعدم حل المشكلة.

- عد غنمك يا جحا؛ فيرد قائلاً واحدة ونائمة وواحدة قائمة، ومعنى المثل أنهم طلبوا من جحا أن يعد لهم عدد أغنامه، فيرد بتعجب واستنكار: إنهم اثنان فقط ليس أكثر.

ويضرب المثل هنا بقلة الشيء، حيث من قلته لا يحتاج للعد، فهو معروف أنه قليل للغاية.

- جحا أولى بلحم طوره (ثوره). قرر جحا ذبح الثور الخاص به مدعياً أنه سيوزعه على الفقراء والمحتاجين، وبالفعل جمعهم عند منزله، وبدأ يخطب خطبة كبيرة خلاصتها أنه كريم وسخي ويساعد الجميع. بدأ بعدها جحا يمر على كل فرد ويقنعه بالتخلي عن نصيبه في اللحم، فذهب إلى الشيخ وأقنعه أن لحم الثور مُرّ ولا يهضم بسهولة، وللمريض أن لحم الثور سيمرضه، وللسمين أنه ليس بحاجة للحم، وللشاب إنه قوي ويمكنه الانتظار بعد توزيع اللحم على الفقراء وفي نهاية اليوم، طلب من المدعوين الانصراف قائلاً: «جحا أولى بلحم ثوره»، فأصبح يتردد هذا المثل باستمرار عند الحديث عن الشخصية البخيلة التي تريد الحصول على كل شيء، وتدعي الكرم وتظهر عكس حقيقتها.

- وعندما قيل له: يا جحا امرأة أبيك تحبك. رد مستنكراً: هي اتجننت؟

كذلك هناك بعض العبارات التي بمجرد ذكرها يفهم المتلقي الغرض من التلميح والتعريض بها.. مثل:

- بيت جحا: وهي جملة صارت جزءاً من الحديث اليومي للمصريين، ويقصدون به المكان الذي يتوه فيه كل من يدخله.

- مسمار جحا: وهي كناية عن الحجة الخبيثة والمكشوفة لمحاولة امتلاك أحدهم جزءاً ليس له الحق فيه من الكل. ولعل نادرة «جحا وابنه وحماره» من أشهر النوادر التعليمية لأجل تنشئة ابنه.

وتعبّر الجمل السابقة والعبارات المكثفة عن سخريته من الواقع ممثلاً أحد أسرار جمال أمثالنا الشعبية.

ولقد حظيت المرأة - التي تمثلت في زوجته - بحظ وافر من مأثوراته المرويّة على الجانب المجتمعي أو الفكاهي؛ فأبرز الجانب السلبي للمرأة عامة، وزوجته خاصة.

فبعد أن ماتت زوجة جحا تزوج امرأة مات زوجها، فكانت كثيراً ما تذكر محاسن زوجها المتوفى، وكان هو يقابلها بالمثل، فيذكر محاسن زوجته المتوفاة، ولكنه ضاق ذرعاً بذلك، وفي إحدى الليالي وهي نائمة، دفعها برجله فسقطت على الأرض، فغضبت وشكت ذلك لأبيها، فقال له جحا: أرجو أن تنصفني، فنحن أربعة أشخاص ننام على سرير واحد، أنا والمرحومة زوجتي، وابنتك والمرحوم زوجها، والسرير لا يسع أربعة أشخاص، ولذلك تدحرجت ابنتك من فوقه، فما ذنبي أنا؟

حجا بين المصريين

غير أن لجحا في أمثاله (المصرية) مذاقاً خاصّاً؛ وكأنه النسخة المكتملة المعدلة من بين نسخ عديدة شاعت في أنحاء العالم، مثل النسخ (الفارسية والتركية والعربية)؛ ذلك لأنه يمثل في أذهان المصريين رمزاً للنادرة الحكيمة، كما أن أسلوبه الساخر سابق لوجود الشخصية نفسها في مصر، حيث عرف عن الشعب المصري تهكمه وسخريته من الواقع المرير على مر العصور.

ولقد أقبل كبار الكتّاب والباحثين في التراث على كتابة التآليف والمراجع حول شخصيته، مثل عباس العقاد في مؤلَّفه «جحا الضاحك المضحك»، وعبد الستار فراج، في كتابه «أخبار جحا»، وخليل حنا تادرس صاحب «نوادر جحا الكبرى»، ومن قبلهم ورد ذكره في «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي.. والمصادر والمراجع عنه لا حصر لها..

وكما قال عباس العقاد: «وسينشأ لجحا بعد ابنه هذا حفدة وأبناء حفدة، ولا نظنهم جميعاً قالوا – بعد كلمتهم الأخيرة باللغة العربية، أو التركية أو بسائر اللغات، فإنهم خالدون بخلود النفس البشرية بين كل قبيل».

وهكذا سيظل المثل الجحويّ رمزاً لفكرة ناقدة ساخرة عالمية وإنسانية، قبل أن تكون قومية.

نبوءة البُلبُل(*)

شهرزاد العربي
كاتبة - الجزائر

عـاش تاجـر فاحـش الـثراء وزوجتـه في إحـدى المدن الروسـية مع ابنهما الوحيـد «إيفان»، الـذي كان يتمتع بعبقريـة وذكاء حاد يفوق سـنّه.

ذات يـوم جلـس ثلاثتهـم حـول طاولـة الغـداء، وكان بقربهـم قفـص فيه طائـر بلبـل يصـدح بأغـانٍ وألحان جميلة، وظـل التاجر يسـتمع إلى غناء الطائـر، الذي كان مـن دون كلـمات، حتّى فقـد صـبره، وقال:

ـــ إنني مسـتعد أن أمنـح نصف ثـروتي عن طيـب خاطر لمـن يعرفني مـاذا تقـول الطيور!

أثـارت هذه الكلـمات انتباه وحماسـة إيفان (ابـن التاجر)، حتـى إنـه أصبـح لا هـمّ لـه في حلّـه وترحاله سـوى التوصـل إلى معرفـة لغـة الطير.

وفي أحـد الأيام بينـما كان إيفان في الغابـة يصطاد، إذْ فاجأتـه عاصفة هوجـاء، وأرعـدت السـماء، وأبرقت، ثم انهمـرت مطـراً غزيـراً، فاحتمى إيفـان بشـجرة كبيرة، وهنـاك وقع نظـره على عش يحتـوي عـلى أربعة من الفـراخ، كانـت ترتعش مـن الـبرد، فتقدم إيفـان نحوها، وغطّاهـا بمعطفه حتى هـدأت العاصفـة، وتجهز إيفان عائـداً إلى البيـت، ومـا كاد يخطـو خطوة واحـدة حتى سـمع صوتاً يناديـه قائلاً:

ـــ إيفان، يا بـن التاجر، لقـد حميْتَ صغاري مـن العاصفة، ولهـذا أنا مدينـة لك، فاطلـب ما تريد.

ردّ إيفان:

ـ لا أريد شـيئاً، فأنـا معي الكثير، ولا أعـرف معنى الحاجة إلا إذا كنتِ تسـتطيعين تعليمي لغة الطير.

ردّت:

ـ لِـمَ لا؟! عش معي ثلاثـة أيام، وسـتتعلم كل ما تقوله الطيور بينهـا فيما يخصّك.

مكث إيفـان في الغابة ثلاثة أيام، تعلـم فيها لغة الطير، وعاد بعدهـا إلى البيـت أذكى مما كان عليـه، وبعد مدة كان يجلـس مع والديه لتنـاول الفطور، صـدح البلبل بغناء حزين، لدرجـة أن التاجر وزوجته شـعرا بغُصَّـة في القلب، أما إيفـان، فقد انهمرت عينـاه بالدمع عندما سـمع هذا اللحن، فسـأله أبواه عن سـبب بكائـه، فقال لهما:

ـ لقـد تعلمت لغـة الطير منذ فـترة قصـيرة، وأعتقد أن غنـاء البلبل لا يبـشر بخير.

ـ ماذا قال؟ لا تخفي عنّا شيئاً.. سأل أبوه.

رد إيفان قائلاً:

ـ إنه يقول: من الأحسن لي ألّا أكون على وجه الأرض.

قالت الأم:

ـ لا تخفنـا زيادة.. فسّر لنـا قولك، بما أنـك تدّعي فهم لغته.. هل ينذر بشـؤم؟

أجاب إيفان قائلاً:

ـ ألا تسْـمعان البلبل يقول: سـيأتي يوم يصبح فيه إيفان قيْصراً، وسـيكون والده خادمه!

غضـب التاجر كثيراً حـين سـمع كلام ابنه إيفـان، وأنهى الحـوار معه، وشـكَّ في أن ولده ينوي بـه شرّاً، وادعى أن البلبل هـو من قال ذلك، لهـذا قرّر التخلـص منه، بعد أن تشـاور مـع زوجتـه، واتفقا عـلى أن يسـقيان إيفان منوّمـاً، ثـم يضعانـه في زورق، ويدفعان بـه في البحر بـين الأمواج.

نفّـذ التاجـر وزوجتـه مـا اتّفقا عليـه، ودفعـت الأمواج الـزورق بعيـداً، وإيفان غائب عـن الوعي، وحـين ارتطم الزورق بسـفينة، انتبـه إيفان وعاد إلى وعيه، وسـاعده ركاب السـفينة عـلى الصعـود إلى ظهرها.

وبينـما كانت السـفينة تمخر عباب البحر، لاح في السـماء سرب مـن طيـور الكـركي محدثـة ضجـة، فقـال إيفان للبحا ر ة :

ـ احـذروا.. إنني أسـمع هـذه الطيور تقـول: إن عاصفة قادمـة سـتحطم الصّـاري، وتمـزق الأشرعـة؛ لذلـك فالأحسـن لكـم ألّا تقتربـوا أكـثر مـن هـذا، ولتعودوا أدراجكـم إلى الميناء.

(*) ـ ترجمة وإعادة صياغة ـ بتصرف ـ عن كتاب: Leon Sichler, Contes Russes, Ernest le Roux editeur, Paris, 1886

لم يسـتمع البحـارة لـكلام إيفـان، وواصلوا إبحارهـم، وبعـد ذلـك بقليـل هاجمـت عاصفة السـفينة، وحطّمـت، ومزّقت الأشرعة، وسـبّبت خسـائر كبـيرة، وكان عليهم العـودة إلى الميناء لإصلاحها، وما أن أتمـوا ذلـك حتـى أقلعوا مـن جديد.

وبعـد فترة من الإبحـار حلقت فوق رؤوسـهم مجموعة من طيـور البجـع، وهي تصـدر أصواتـاً عاليـة، وتتحدث فيـما بينهـا، واسـتمع إيفـان إلى حديثهـا، ثـم قـال للبحا ر ة :

ـــ إنني أسـمع حديث هذه البجعـات، وإنه يوجـد أمامنا مركـب للقراصنة، الذين سـيلقون القبض علينـا، وينهبون كل ما يوجد معنـا، فلنذهب إلى أقـرب ميناء.

هـذه المرة اسـتمع البحارة لـكلام إيفـان، فاتجهوا نحو الميناء، وفي طريقهـم لاحـت لهـم من بعيـد مراكب القراصنـة وهي تحيط بإحـدى السـفن وتنهبها.

انتظـر البحارة مدة ثـم توجهـوا إلى مكان أبعـد، حتى وصلت سـفينتهم إلى بلاد يحكمها ملـك منذ زمن طويل، وأمـام نوافـذ القـصر كان الغـراب وأنثـاه وصغيرهما، تحلـق وتصدر أصواتـاً غريبة أزعجت الملـك، ومهما فعل للتخلص منهـا، باءت جهوده بالفشـل، ولم تنفع حيلة ولا صيـد لإبعادها عن نوافـذ القصر.

هـذا الأمـر دفـع بالملـك إلى أن يطلـب مـن رجاله أن يعلقـوا إعلانـات تقول:

ـ إن كل مـن اسـتطاع أن يخلص الملك من الغربان سـتكون له نصـف المملكة، وسـتكون أصغـر الأمـيرات زوجة له، أما مـن يضطلع بهذه المهمة، ويفشـل فسـوف يقطع رأسه.

قرأ إيفـان الإعـلان، واتجه إلى قـصر الملك، ووعـد بأنه سـيحرره مـن هـذه الطيـور، وطلـب مـن الخـدم فتح النوافذ، واسـتمع لحديث الطيور، ثم قـال موجهاً حديثه للملك :

ـــ إن هـذه الثلاثـة أيهـا الملـك، هـي الغـراب وأنثاه وابنهـما، وقد جاء الزوجـان يختصمان لديك، ويسـألانك: لمن يعـود الابـن لـلأم أم للأب؟

ردّ الملك:

ـ إنه للأب.

وما أن قـال الملك تلـك الكلـمات حتى طار الغـراب مع ابنه يمينـاً، واتجهت أنثـى الغراب شـمالاً.. وهكذا وفىّ الملـك بما وعـد، وعاش إيفـان في هذا القصر سـعيداً. ماتـت أم إيفان، وبقي أبـوه وحيداً، ثم خـسر كل ما كان معـه مـن مـال، ولم يجد من خيـار إلا التسـول، والتنقـل مـن مـكان إلى آخر، حتى سـاقته الأقـدار إلى المجيء تحت نوافـذ القصر.

رآه إيفـان، فأمـر بإدخالـه إلى القـصر ـ وقد أصبح هـو القيصر ـ فأطعمه وسـقاه، و سأ له :

ـ فيما يمكنني أن أساعدك أيها العجوز المبجل؟

قال العجوز:

ـ إذا كان ممكناً بقائي هنا، وسأكون خادمك المطيع.

قال القيصر:

ـ لقد رفضت سـابقاً الاسـتماع إلى صوت البلبـل، وها نحن نلتقي في الوضـع الذي تنبأ به ذلـك الطائر.

أصيب العجـوز بالخـوف، وأرد أن يجثو عـلى ركبتيه أمام ابنـه الذي أصبـح ملكاً، فمنعـه إيفان من ذلـك، ثم بكى العجـوز، وكذلك إيفان، لكنها كانا سـعيدين بهـذا اللقاء، وسـأل العجوز ابنه:

ـ كيف لم تمت بين أمواج البحر حين أسلمناك لها؟

ردّ إيفان:

ـ ربما لأنه مقدر لي أن أحيا، وأتزوج بنت القيصر.

رقصة الأسد..

رمز حيّ للثقافة الصينية

الكاتب: إيهاب تساي مينغ شيوه
المترجمة: نوال هونغ يه
المراجع: جمال بن علي آل سرحان

مراود

اليوم، دعونا نتعرف إلى الفن الصيني التقليدي - رقصة الأسد. رقصة الأسد هي شكل فني مملوء بالحيوية والعاطفة، وهي ليست جوهر الصين فحسب، بل هي أيضاً رمز حي للثقافة الصينية.

رقصة الأسد، كما يوحي اسمها، تعني رقصة ترتبط بالأسد، ومع ذلك، فإن الأسد هنا ليس الوحش الذي نفهمه عادة، لكنه صورة فنية تتكوّن من أزياء بشرية يرتديها الناس، هذا الشكل الفني له تاريخ طويل، وهو جزء مهم من الثقافة الصينية.

وعادة ما يتم تقديم عروض رقصة الأسد خلال المهرجانات الصينية الكبرى، مثل عيد الربيع ومهرجان الفوانيس، التي يعتقد الناس أنها تطرد الأرواح الشريرة، وتجنب الأذى، وفيها الصلاة من أجل السلام والحظ السعيد.

أثناء العرض، يُظهر راقصو الأسد بوضوح قوة الأسد وخفة حركته، من خلال مهارات وحركات مختلفة. عروضهم وأداؤهم ليست قوية فحسب، بل هي مملوءة أيضاً بالأجواء الاحتفالية والمبهجة.

يمكن إرجاع أصل رقصة الأسد إلى العصور القديمة، ويقال إنه في الحروب القديمة، من أجل رفع الروح المعنوية، كان الجنود يرتدون زيّ الأسود، ويقومون بحركات مختلفة لإخافة العدو. مع مرور الوقت، تطور هذا اللباس والأداء إلى شكل من أشكال الفن الذي استمر حتى يومنا هذا.

يتم توزيع رقصة الأسد بشكل رئيس في جنوبي الصين، وخاصة في قوانغدونغ وفوجيان ومقاطعات أخرى. تعد رقصة الأسد في مقاطعة قوانغدونغ واحدة من أكثر أشكال رقصة الأسد تمثيلاً، والأكثر شهرة. تتكوّن رقصة الأسد في قوانغدونغ عادة من ثلاثة أشخاص: رأس الأسد وجسم الأسد وذيل الأسد.

ومن خلال المهارات والحركات المختلفة، يظهر الراقصون بوضوح قوة الأسد وخفة حركته. وعادة ما يتم تقديم عروض رقصة الأسد في مقاطعة قوانغدونغ خلال المهرجانات الصينية الكبرى مثل عيد الربيع، ومهرجان الفوانيس، وهو ما يعني درء الأرواح الشريرة، وتجنب الأذى، والصلاة من أجل السلام والحظ السعيد.

رقصة الأسد في قوانغدونغ ليست مجرد فن أداء، ولكنها أيضاً تراث ثقافي. وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعادات الشعبية الصينية والدين والأدب والفن وما إلى ذلك. تحتوي رقصة الأسد في قوانغدونغ أيضاً على العديد من القيم التقليدية، مثل الشجاعة والوحدة والانسجام.. إلخ. كما تؤثر هذه القيم بعمق في حياة السكان المحليين.

بالإضافة إلى رقصة الأسد في قوانغدونغ، هناك العديد من الأشكال الأخرى لرقصة الأسد في الصين، مثل رقصة الأسد في مدينة نانينغ في مقاطعة قوانغشي، ورقصة الأسد في مدينة تشيبانغ في مقاطعة هونان.. إلخ. كل شكل من أشكال رقصة الأسد هذه له خصائصه المميزة، الأمر الذي يدل على تنوع الثقافة الصينية.

مهارات رقصة الأسد غنية ومتنوعة، بما فيها القفز، والدحرجة، والرفرفة، والدوس على الكرة.. إلخ.

تتطلب هذه الحركات من راقصي رقصة الأسد مستوى عالياً من المهارة واللياقة البدنية، فضلاً عن التدريب والإعداد على المدى الطويل، ولهذا السبب، تُعرف رقصة الأسد أيضاً باسم «المهارة الوطنية» في الصين، وتحظى بحب واحترام عميق من قبل الناس.

بالإضافة إلى المهارات، تحتوي رقصة الأسد أيضاً على دلالات ثقافية غنية، وباعتبارها طقوساً تقليدية لطرد الأرواح الشريرة، وتجنب الأذى، والصلاة من أجل السلام والخير، فهي ليست كنزاً من الفنون الشعبية فحسب، ولكنها أيضاً جزء مهم من الثقافة الصينية التقليدية.

ترتبط رقصة الأسد ارتباطاً وثيقاً بالعادات الشعبية الصينية والدين والأدب والفن، إلخ. ومن خلال رقصة الأسد، يمكننا الحصول على فهم متعمق لتاريخ الصين وثقافتها وعاداتها الاجتماعية.

خلاصة القول، تعدّ رقصة الأسد رمزاً حياً للثقافة الصينية، وهي ليست شكلاً من أشكال الفن فحسب، بل هي أيضاً تراث ثقافي. ومن خلال رقصة الأسد، لا يمكننا أن نشعر بالسحر الفريد والتراث العميق للثقافة الصينية فحسب، بل يمكننا أيضاً أن نشعر بسعي الشعب الصيني وتوقه إلى حياة أفضل.

صورة رمضان في المخيال الغربي

د. منّي بونعامة
مدير التحرير

اجتذب الخليج وشبه الجزيرة العربية لفيفاً من الرحّالة الأوروبيين من كل عرق وملة، بدءاً بالبرتغاليين والهولنديين، إلى الفرنسيين والإنجليز والأمريكيين وغيرهم، وذلك منذ مطالع القرن السادس عشر الميلادي، مدفوعين بالعديد من الأسباب، التي من بينها الديني والعلمي والسياسي والتبشيري، فضلاً عن حب المغامرة، وركوب الأهوال والمخاطر، والرغبة في الاستكشاف والاستطلاع والمعرفة، وإن كان هذا الأخير لا يمثّل إلا النزر القليل من زوّار الصحراء الجدد؛ لأن المنطقة كانت رمالاً قاحلة، تظلها شمس لافحة، وتلازمها قساوة دائمة في العيش والحياة، ولم يكن فيها ما يغري أولئك الرحّالة الأوروبيين، الذين اعتادوا في بلدانهم المترفة أجواءً مختلفة تماماً عن أجواء الصحراء الطاردة، إلا أن ذلك لم يثن عزيمتهم عن اعتمال الرحلة، وارتياد المجهول، مدفوعين بالرغبة الجامحة في تحقيق أهدافهم الكامنة في استكشاف سحر الشرق وثقافته، وما ينطوي عليه من تراث عميق، وماضٍ عريق حافل بالقصص والحكايات التي سار بها الركبان، وتناقلتها الأجيال عبر الحقب والأزمان، وقد قاد ذلك الحب والشغف الرحّالة الأوروبيين إلى استكشاف الذات والآخر والعالم، وما يزخر به من مكنونات وخبايا وأسرار، وقراءة العلامات بدل الكلمات، ودفعهم إلى اعتمال الرحلة، وخوض غمارها، وارتياد المجاهل لاستكشاف المخبوء والمنسي من الشرق العربي، ودوّنوا في رحلاتهم التي كتبوها مشاهداتهم وانطباعاتهم عن المجتمعات المَزورَة، وما تزخر به من ثراء وغنى. كما رصدوا العديد من المعلومات والمعطيات الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وما يتصل بيوميات وحياة المجتمع الخليجي، والإماراتي على وجه الخصوص، ملتقى القرنين الثامن عشر والعشرين الميلاديين، وقد صادف مجيء بعضهم حلول شهر رمضان الكريم، فكان ذلك مدعاة إلى تسجيل كثير من انطباعات الرحالة عن هذا الشهر الكريم، وكيف يتم استقباله في ذلك الوقت، ومن بين الرحّالة: دو شابرول، جون لويس بوركهارت، إدوارد وليام لين، استيلا إكسيديا، فرانسوا جومار، رونزو مانزوني وغيرهم كثير، حيث دوّنوا الكثير من الانطباعات والشهادات عن تراثيات رمضان في السعودية واليمن ومصر وغيرها من البلدان الإسلامية. كما سجل الرحّالة العرب والأندلسيون مشاهداتهم عن شهر رمضان في البلاد العربية، من أمثال: الرحّالة المغربي أبي عبدالله محمد بن العبدري، الشهير بـ«ابن الحاج»، وابن بطوطة، وابن جبير، والبغدادي، والرحّالة الفارسي ناصر خسرو وغيرهم.

إن كتابات أولئك الرحّالة تزخر بكثير من الصور التي اختزنوها في ذاكرتهم ومشاهداتهم وانطباعاتهم عن المنطقة المَزورَة وحياة أهلها وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وما أثارتهم رؤيته، واستوقفتهم مشاهدته، وأصبغوا عليهم حالة من الذهول والاندهاش، فاستغرقوا في وصف الشهر الكريم، وما كان يرافقه من عادات وطقوس وعبادات، وثقت لنا مشاهد عتيقة، وصوراً عريقة من احتفاء المسلمين برمضان منذ القدم إلى هذا الأوان.

practice throughout history, observed by various ancient civilizations, cultures, and religions, including the Hellenes, Colombians, Amerindians, Japanese, Hindus, Buddhists, and ancient Egyptians. It has also been endorsed by divine religions in various forms and similar patterns.

Islamic fasting is a unique practice that combines external and internal, linguistic and legal meanings. Its purpose is to educate and discipline the soul, restraining it from following its desires. While fasting practices varied among past cultures and nations, depending on their purpose and goals, Islamic fasting stands out as a powerful tool for spiritual growth and self-discipline. It is not merely about abstaining from food and drink, but also carries significant values and purposes that encourage reflection and contemplation.

Ramadan annually revitalizes spiritual atmospheres and faith-based manifestations, inspiring souls to ascend to the realms of purity and perfection. The memories of past times demonstrate how communities celebrate the holy month, including the cultural, social, and recreational events that are evoked each year.

In this issue, “Marawed” presents a stunning collection of images that capture the essence of Ramadan traditions in the Emirati and Arabian folklore. The images beautifully showcase the diverse ways in which the holy month is celebrated, including the accompanying rituals, customs, and traditions that Emiratis have been practicing since ancient times. It is important to note that these traditions vary depending on the location and time.

Additionally, this issue explores the rich cultural heritage of the Arab world, expertly highlighting its unique elements, symbols, and components. This documentation is of utmost importance in preserving the folk Arab and Emirati memory.

Ramadan's manifestations in folklore

Fasting is an ancient practice that has taken on various forms depending on the reason, cause, purpose, and manner. Many rituals and customs have been associated with fasting, reflecting the understanding of ancient nations and past peoples of the concept of fasting, their awareness of its meaning, and its formation in their culture, collective and individual consciousness, and their spiritual behaviour. Fasting has been a common